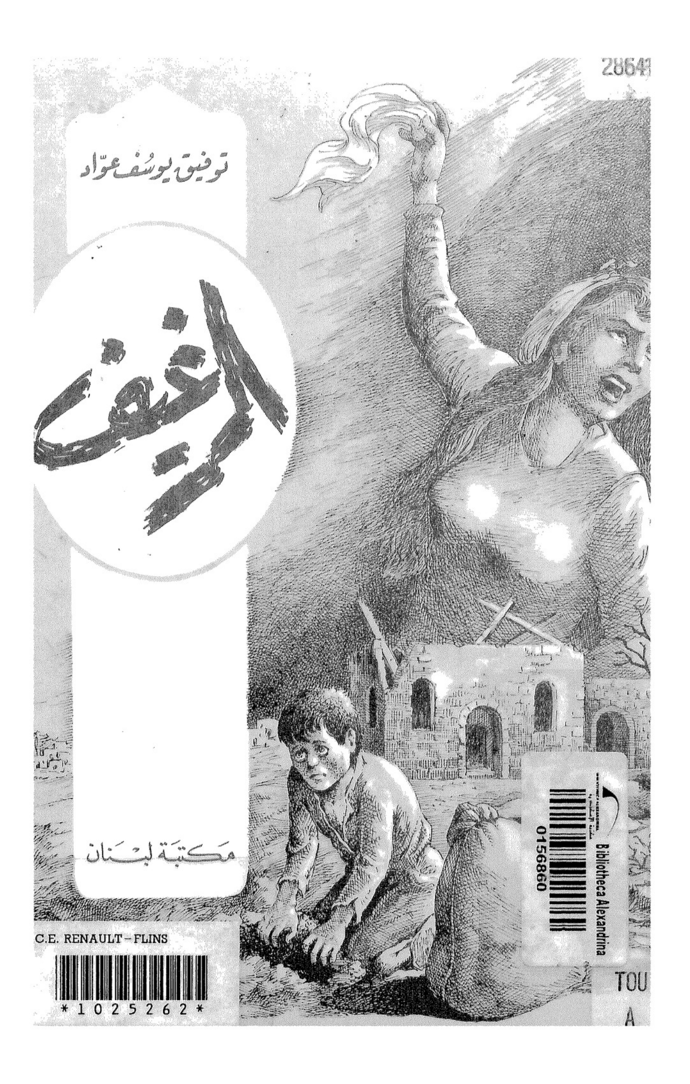
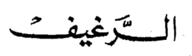


28641
توفيق يوسف عوّاد
الرغيف
مكتبة لبنان
C.E. RENAULT – FLINS
1025262
Bibliotheca Alexandrina
0156860
TOU
A



الناشر
مكتبة لبنان
بيروت

الطبعة الخامسة عشرة
١٩٧٨

توفيق يوسف عوّاد



« ليسَ بالخُبزِ وَحدهُ يحيَا الإنسان »

إليكَ ، يا أبي ، أُقدّم هذا « الرغيف » .

وإذا كنت سكبت له الحبر وراء مكتبي الوثير فقد قدّمت أنت إليّ في أيام الحرب الكبرى ، وإلى إخوتي وأخواتي ، أرغفة سكبت لها عرق جبينك ودم قلبك ، عهد تخلّى الآباء عن أبنائهم وأنكر الأخ أخاه .

وكنت ، يا أبي ، من الذين يقولون مع الناصري : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » . فإذا كان في هذا « الرغيف » نفَس للحرية والكرامة فمن أنفاسك على تلك الأرغفة الغالية .

ترى أنني لا أُقدّم إليك إلا بعضَ ما هو منك . واعذر قصوري عن بلوغ ما بلغت، فأنت أبي، وأنا ابنك ما أزال صغيراً .

بيروت في ١٧ آذار ١٩٣٩

ت . ي . ع .

مدخل

أذكر ذلك جيداً .

قال أبي « قم انظر إلى العسكر ! » فقمت ، وقام إخوتي وأخواتي ولحقت بنا أُمي . المساء . ونحن على الشرفة نتزاحم شادّين بحديدها ، والجنود يمرّون على الطريق ، ثيابهم رثّة مبلولة ، تنوء أكتافهم بالبنادق وظهورهم بالأحمال ، بعضهم في جزمات مقطّعة بالية ، والأكثرون حفاة تغرق أقدامهم في الوحل .

خافت أُمي فدعتنا إلى الدخول فلم ندخل ، فحاولت أن تحملني فامتنعت واعتصمت بأبي ، فبسط كفّيه فوق رأسي واتكأ عليّ لم يحفل بغضبها . أمَا كان الجيران كلّهم قد خرجوا مثلنا فملأوا حافتي الطريق ؟

الفرقة أولها رأيناه ، وأما آخرها فلا يناله الطرف . وأنا أرفع أنفي حيناً بسؤال إلى والدي ، وأُشير بإصبعي حيناً ، وأُصفّق مسروراً حيناً آخر . أُشيح بوجهي عن المشاة وأمدّ برأسي إلى الفرسان ، أُرافق واحدهم إلى أن يغيب وراء كتف أُختي ، فأُنحّيها فلا تُحسّ ، فأدور على التالي . حتى لم يبقَ إلا البغال الهزيلة العرجاء ، والمقصّرون من الجنود ، المقتولون تعباً وبرداً وجوعاً .

ووقع أحدهم على وجهه فتداركته جارة أرملة وأدخلته إلى بيتها . لم أدرِ ما حلّ به ولكني سمعت من غد نساء يتوشوشن بأن أُم حنّا أخذت بندقيته وإحرامه برغيفين وصحن عدس .

وجاء المختار في السهرة فخلا بأبي هنيهة . ثم رأيت أبي وأُمي يُخرجان ما في معجننا من خبز وأكثر ما في الخزانة من بيض ، وحضن بطاطا ، وبصلاً

وسكّراً وأشياء ، وجعلا كل ذلك في كيس خيش ، فحمله فلاّح كان بالباب ينتظر المختار ، وسار معه إلى البيوت الأخرى .

وعاد والدي يخبرنا أن العسكر جائعون ، فالمختارون يجمعون لهم من بحرصاف وساقية المسك وبكفيّا والمحيدثة ما يُمسكون به أنفسهم. ثم أقبل على والدتي يحادثها عن الحرب وتركيا وفرنسا والنمسا وأنكلترا وألمانيا ، فوقفت أصغي وأقاطعهما بالسؤال تلو السؤال لعلّي أفهم ، فما دار لي من كلامهما شيء .

كنت طفلاً لا عهد لي بالروزنامة . ولكني علمت فيما بعد أن الجيش التركي دخل وطني الصغير لبنان ، ووصل إلى قريتي الجميلة في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، وأدركت أنه لم يدخل دخول الفاتحين إلا في البلاغات الرسمية التي أذيعت في اسطنبول وغيرها من العواصم والمدن ، وأن قواده كانوا يخشون قيام اللبنانيين بوجههم ويحسبون لهم حساباً ، لما اشتُهروا به في سالف الزمان من الرجولة والمروءة ، ولما تمتّعت به جبالهم من مناعة وشموخ واستكبار .

مشت الحملة فلم يقف في طريقها إلا العواصف والثلوج ، فأفنت فريقاً وأهلك الجوع فريقاً آخر ، وحامت الغربان فوق بلادي ووقعت على الأودية تقتات لأول مرة من جثث الأتراك ...

أجل ، لم يقف في طريق تلك الحملة إنسان من لبنان ، لأن لبنان تبدّل منذ حوادث ١٨٦٠ غير لبنان . أذكيت فيه الفتن الطائفية فتوزّع شيعاً وتشتّت فرقاً . وسعت الدول الأوروبية إليه بمطامعها ، وإلى سواه من أجزاء السلطة العثمانية المفككة ، فاصطنعت العطف عليه وتكلّفت حمايته ، فاجتمعت سبع منها ووضعت له نظاماً خاصاً ، وأجبرت « الرجل المريض » على ضمان امتيازات له ، أهمّها إعفاء أبنائه من الخدمة في الجيش الهمايوني ومنْع هذا الجيش من احتلال أراضيه .

ومنذ ذلك الوقت أدار لبنان وجهه نحو الغرب ، وحسّه وفكره جميعاً ، وأمسى في مجموعه متواكلاً ، رخو الأعصاب ، قليل الهمّة ، شأن كل شعب يفقد اتحاده وإيمانه بنفسه . فلمّا نشبت الحرب الكبرى وخرقت تركيا امتيازات

لبنان لم تجد فيه أبناءه ، فاستوت على صدره استواء المستبدّ ، فلم تدع ظلماً إلا أتته ولا حراماً إلا ارتكبته ، وسجّل لها التاريخ ، في هذا الوطن الصغير الجميل ، صفحة لم يعرف في حياته أشد اسوداداً منها ، والظن كلّه أنه لن يعرف إلى الأبد .

غير أن بقية من الدم الكريم أبت إلا أن تفور في صدور النابهين المتعلمين من الشبان ، فتعاونوا مع إخوانهم وأبناء عمومتهم وخؤولتهم في كل شعب من الشعوب العربية على خلع نير الأتراك ، وكانوا في طليعة الداعين إلى الانفصال عن الدولة العثمانية التي حكمت العرب أربعة قرون ونيفاً هجعوا سحابتها هجعة هي من أغرب الأسرار وأرهبها في سيرة الأمم . من هؤلاء الشبان مَن أدّى الأمانة الكبرى فمات على المشانق التي نصبها الحاكم العسكري جمال باشا في بيروت ودمشق وسواهما ، ومنهم مَن لبّى نداء الصحراء فاشترك في ثورة الشريف حسين في ١٩١٦ ودخل ظافراً مع مَن دخل بهم نجله فيصل إلى عاصمة الأمويين في ١٩١٨ ، يحاولون إعادة ذلك المُلك العربي العظيم ، وبعث جاهه العريض ، ومنهم مَن لا يزال حياً إلى اليوم يتعهد النبتة التي سقاها الشهداء بدمائهم ، فيعلو ساقها ويشتد ، وتذهب فروعها في السماء .

* * *

كل هذه الأشياء تفتّحت عليها عيناي حينما كبرت . ولو كان ذلك الطفل يدركها في وقفته على الشرفة بين ذراعي أبيه لما صفّقت كفّاه الصغيرتان للعسكر التركي يطأ قريته ووطنه ... وحينما كبرت استيقظ في نفسي ابن ١٩١٤ واحتجّ بسذاجته ، ولعن ألف مرة ومرة لقمات طيبات أطلعتها أرضنا الندية ، ورعتها سماؤنا الطاهرة الوفية ، يقطعها الآباء والأمهات عن أفواه أولادهم وفلذ أكبادهم ، ليسدّ بها الأجنبي المحتل جوفه ويرد غائلة الجوع عن نفسه . حتى إذا تمكّن من البلاد أطعم الآباء والأمهات والشيوخ والصبايا والأولاد شعيراً وكرسنّة وزؤاناً ، أكل الدوابّ والكلاب أطعمهم ، ثم حرمهم فقتلهم ...

ولكن ، ما لي أسترسل في الحديث وأستبق الحوادث من روايتي .

التُّرْبَة

١

كانت ورده كسّار عابسة لم تفترّ عن سنّ طول ذلك النهار . فقد جاء الدرك في الصباح وفتّشوا البيت مرة أخرى ، فقلبوا الأثاث وأزاحوا الخزائن والمقاعد ورموا الفرش واللحف إلى الأرض ، ونزلوا إلى المراح فبعثروا أشياءه العتيقة ، وأقاموا لها الدكان وأقعدوه فلم يدّعوا صندوقاً إلا كفأوه ولا طبقاً ولا إناء ، كأن مَن يطلبونه يستطيع أن يواريه طبق أو يغطّيه صحن ! وزادوا فكانوا غلاظاً ، فشتمها أحدهم وهددها الآخر بعقب بندقيته ، واستهزأ بها الثالث وهي فلانة التي تستهزئ بالناس أجمعين . وكان كبيرهم أشدّهم تجنياً وأبلغهم نكاية بها ، لم يُعرها التفاتة ولم يقل لها خيراً ولا شراً ، ظنّته فاضلهم فإذا به يمدّ يده ، وهو خارج ، ويأخذ من البرتقالات أكبرها لا إذن ولا حياء .

ولم تكن ورده لتحفل بالحادث كثيراً لولا أنها تتشاءم منه وتخشى أن ينال من سمعتها لدى العسكر التركي . فقد تكرر منذ شهر فتكرر به النحس ، وانحبس عنها الرزق طول اليوم الذي يطأ فيه هؤلاء الدرك عتبتها بجزماتهم المسمّرة الطقاقة . وها إن الدنيا تُدغش ولم يزرها من زبائنها إلا همشريّان عند الظهر ببشلك وأربعة متاليك . وشأن الدكان لا يصلح بمثل هذين وكيسهما الهزيل ، ولولا ذوو الشرائط اللمّاعة ومجيدياتهم المُرنّة لماتت ورده جوعاً ومات مَن وراءها ، كما يموت الناس في ساقية المسك وغيرها بالعشرات والمئات .

— قدح واحد بعد ! قدح واحد !

لم تُجب ، وبقيت مستندة إلى عارضة الباب مُديرة ظهرها . فالسكران يردّد هذا الطلب منذ ساعة بإلحاح السكران . وهي تأنف من مجاراته خصوصاً في هذه الأزمة تأخذ بنفسها وكيسها معاً ، فتجعل الحياة كلّها تبرّماً وحقداً . ولو أدرك السكران شيئاً من ذلك لأمسك ، ولكن هيهات !

— قدح أخير ! أقوم وأصبّه بيدي .

— أكسرها لك !

وتحوّلت ترمي الجالس في الزاوية بنظرة تحدٍ . بدين ينطوي كرشه على حافة الخوان، ويتدلّى تحت عينيه الحمراوين شاربان قذران على فم رخو مبتلّ . لم يسمع تهديدها وحاول القيام بكأسه فوقعت على الأرض وذهبت شظايا . فانحنى يلمّها ويبوسها متباكياً :

— يا حرام ... يا حرام !

— كُلْها ، كُلْها . عسى أن تموت !

وجرّته إلى الباب لتطرده ، فإذا رجل قد صار إلى العتبة بطقم إفرنجي ومظلة على ذراعه ونظارتين يسوّيهما ويشمخ كالمتسائل أيدخل أم لا يدخل . غريب لم ترَ له ورده وجهاً من قبل ، فاستوت ترحّب به وتتكلف الضحك ، وتراجعت إلى أقرب مائدة فمسحتها بطرف إزارها :

— تفضّل ، تفضّل ... لا تؤاخذه ، سكران ! دخل إلى هنا سكران . أنا لا أسقي عرقاً في دكاني . ممنوع ! من أجل العسكر ... هل أنت آتٍ من بعيد ؟ أعطني طربوشك لأنفضه . هات عنك . البرد شديد اليوم . سأوقدُ لك النار حالاً .

وفركت كفّيها ونادت :

— أبو سعيد ... أبو سعيد !

ولمّا تأخر الجواب ذهبت إلى باب في الحائط فانفرج، قبل أن تصل ، عن ولد في التاسعة من عمره .

— أين جدّك ؟... ها !... هل طرشت ؟

فلم يبالِ الشيخ بها ، ورفع عينيه من فوق الصغير إلى الزائر الجديد فتلاقت عيون الاثنين هنيهة ، ثم نقلهما إلى السكران وهزّ برأسه وأغلق الباب .

ــ قدح واحد بعد ... يدفعه عني الخواجه .

ــ من أين لي العرق ؟ هل أنت مجنون ؟ (وصرّت بأسنانها) رُح أكمل سكرتك حيث بدأتها . يللا من هنا !... هل ترى عندي عرقاً يا خواجه ؟

ولم يجدِ ورده غضبها شيئاً ، وما أحسّ السكران بتفريكها أصابعها ولا بغمزة حاجبها ، وظل مقبلاً بقمبازه المشقوق على الصدر ، حاملاً حطامة كأسه مصبوغة بالدم .

ــ أهذا عرق أم لا ؟ شُمّ . شُمّ يا خواجه . عرق ورده كسّار رائحته كالمسك . سترى أنها تصبّ لي قدحاً آخر ... وحياتك ! (ولوى عنقه) وحياة طام . ها ! ها ! انظر ، انظر يا خواجه (وأطلق لسانه) حلقي ناشف مثل الحطبة .

فأجفل الرجل من أنفاس السكران .

ــ لا تريدين أن تعطيني ؟ طيّب . أنا أبو زيد ! أنت لا تعرفين أبو زيد بعد ... والله العظيم أطلع على السطح وأُنادي ...

ــ أُخرج من هنا !

وصفعته ، فضحك للصفعة ضحكة بلهاء ، ورفع إصبعه وهو يتهادى :

ــ إشهد يا خواجه ! أنا أُنذرها منذ الآن ، سأطلع على السطح وأُنادي : يا ناس يا ناس ! كذا وكذا ... لأنني أنا وحدي يا خواجه (وحملق بوقار) وحدي أنا أعرف السرّ .

إرتعش الغريب عند هذه الكلمة وركّز نظارتيه على أنفه المجدور وأخذ يحدّج السكران . أما ورده فقد كان ذلك فوق طاقتها فوثبت على أبو زيد تريد أن تقضمه بأسنانها ، فوضع الغريب يده بينها وبينه ، فارتدّت وقالت :

ــ كرامتك يا خواجه ، وإلا ... وحياتك لا تؤاخذني .

ــ ألعفو . أعطيني برتقالة ، وصبّي لأبو زيد قدحاً .

ووضع ريالاً على الخوان. فترددت، فأردف:

– ومتى شرب به قولي لي لأفتح له حساباً على ريال ثانٍ.

– ولكن أنا لا ...

– وثالث ورابع، إذا أحبّ.

فبلعت بريقها وهرولت خلف الستارة.

٢

لمّا جاء أبو سعيد بالموقد كان أبو زيد قد حظي بكأسه واطمأن إلى حظه. والغريب يتناول قطع البرتقالة بطرفي سبّابته وإبهامه قطعة فقطعة متماهلاً، متأنقاً، متشاغلاً بها عن أبو زيد وهذيانه، وورده ومجاملاتها. حتى إذا أحسّ بحرارة النار التفت إلى الشيخ ليشكره، ولكن أبو سعيد كان قد أدار ظهره يسأل ورده:

– ألم تأتِ زينه بعد؟

فنكصت برأسها أن لا. فدنا من عتبة الدكان وأرسل بصره في الطريق حتى طرفها البعيد فلم يرَ إلا الأمطار تتلاعب بها الرياح، فتنهّد من أعماق قلبه، فغشّت لهبة أنفاسه الدنيا في عينيه فوق ما فيها من ضباب وظلام، فأطبق أجفانه عليها جميعاً وانقلب عائداً، فلمّا حاذى أبو زيد رفع السكران طربوشه ولوّح بقدح كان تحته وقال:

– ألسرّ بيننا نحن الثلاثة: أنا وأنت وورده (وجرع جرعة كبيرة) مَن هو الحمار ... بُف ... بُف ... مَن هو الحمار الذي قال إن السرّ إذا جاوز الاثنين شاع؟ أنا واحد، وورده اثنان ... عدّ معي يا خواجه. وأبو سعيد ثلاثة ... وطام (ونفخ أيضاً بين شاربيه) أين صرنا في العدد؟ وزينه أربعة ... هذا أنفك وهذا فمك. وهذا ... تعال، تعال، اقترب مني. هل أنا سكران؟

صحيح أنني سكران . لو كنت صاحياً لكان لك شاربان ! قه قه ! السكر يطيّر شوارب الآخرين !

فلم تتمالك ورده ، على ما بها ، من الابتسام ، لأن الجدريّ كان قد أحفى كل شعر في وجه الغريب . ولكنه لم يُبدِ للنكتة انزعاجاً ، وشارك السكران في الضحك ، والسكران يتنقل في ثرثرته :

ـ أترى هذه المرأة ؟ هذه ست النساء ... بُف ... وأخت الرجال ! هل تظنّين يا ست ورده أنني سأفشي السرّ ؟ يا عيب ! أنت لا تعرفين أبو زيد . لو شنقوا أبو زيد لا يقول كلمة . أُفضّل أن أموت ألف مرة (وضغط رقبته بكلتا يديه) ... ورده مثل أُمي وأحنّ منها عليّ . إسمح لي يا خواجه أن أشرب كأس ورده . تصوّر ... بُف بُف ... تصوّر ما كان يحلّ بأبو سعيد وزينه وطام لولا ورده ! بهم كلّهم ، حتى الصبحا كانت تموت جوعاً . هل تعرف الصبحا ؟ تسمعين مني يا ورده ، اذبحيها ، اذبحيها قبل أن تموت جوعاً . أنا أبو زيد بطولي وعرضي ، أنا أبو زيد ... بُف ... بُف ... الجوع ما عليه أبو زيد ، كنت أموت أنا أيضاً لولا ورده . كأسك يا ورده ، يا أُم الجميع ! أنا أقولها على السطح أمام كل الناس : أبو زيد يعيش من فضل الست ورده !

ـ هل تريد أن تسكت !

ـ هاه هاه ! سددت فمي . الله يقصف عمري ! هل بُحت بالسرّ ؟ قلت لك سدّي لي فمي . ولكن لا . ماذا قلت أنا؟ أتظنّين أنني أزلق بلساني؟ أبداً أبداً . صبّي لي كأساً .

ـ لم يبقَ عندي عرق .

ـ صبّي لي كأساً . أنا أفهم ما أقول . لا تخافي . بوف ... بوف ... أعبثاً تضعين ثقتك بي ؟ أبو زيد سيّد من حفظ السرّ . إسمع يا خواجه ، لا تظن أنني سأبوح لك بالسرّ ، العرق وحده والشرف وحده .

ـ وأنا وأنت معاً .

ـ طبعاً . أنت مثلي شريف ، والشريف يفهم الشريف . أليس كذلك ؟

– صبّي له يا ست ورده .
– ألقدح الأخير على شرط .
– أنا لا أشرب إلا الأخير دائماً ... ما لك تقوم يا خواجه ؟ بل تقعد . وحياتي تقعد ... ما هذا ؟ لا تأخذي منه متليكاً يا ست ورده ، الحساب كلّه عليّ ، أسمعت ؟
وكان الرجل قد أخرج من جيبه حفنة بشالك وترك منها على الطاولة بشلكاً ، فصحّحت ورده أن له بذمتها من المجيدي بشلكاً فعليّها إذن أن تُعطيه ما له لا أن يزيدها ، ولكنه أبى أن يقاضيها حقّه ، ونظر فإذا الصبي يشقّ الباب في الحائط ويتلصص من خصاصه ، فمدّ إليه بالبشلك :
– خذه ، تشترّي به حلوى .
وقام ، فتبعته :
– لا تؤاخذني . لا تؤاخذني . (وخفضت صوتها) تأتينا المرة الثانية في السهرة إن شاء الله فتكون بنتنا هنا ... أعني ليست بنتي بل بنت زوجي . هل تعدني ؟ ما الاسم الكريم ؟
– خليل المعلاّ .
– تشرفنا . تشرفنا ... ولا يكون هذا السكران هنا . لقد أزعجك كثيراً .
– بالعكس ، إلا إذا كان أزعجك أنتِ . هُ هُ هُ .
وضحك خليل المعلاّ ضحكته الأولى في ساقية المسك ، وضرب عقب مظلته في الأرض .



ركض طام إلى جدّه فضمّ يديه وراء ظهره ورفع أنفه :
– إحزر يا جدّي .

ــ كلّتان .
ــ ما حزرت .
ــ أربع كلل !
فشال الصبي بحاجبيه ، فعبس الشيخ وتناول عصاه :
ــ ها ها ! حزرت . برتقالة أُخرى سرقتها من عند أُملك !
ــ لأ . لأ . أُنظر يا جدّي .
ــ هوه هوه ! من أين لك هذا ؟
ــ أعطني إجّتي وتعال نحسب ، كم متليكاً في البشلك ؟
ــ هل نسيت ؟
ــ عندي في الإجّة واحد وعشرون متليكاً .
ــ الخواجه أعطاك البشلك ؟
ــ إي ، إي . وإذا رجع غداً وأعطاني بشلكاً أيضاً ، فكم يصير معي ؟
ــ . . .
ــ كم يصير معي يا جدّي ؟
ــ كثير ، كثير !
ــ يعني كم متليكاً ؟
ــ ماذا أُعلّمك أنا طول النهار ؟
ــ تعلّمني الحساب .
ــ أُحسب لأرى .
ــ جدّي ، جدّي ! أريد أن أصرف البشلك بمتاليك . البشلك لا ينزل في الإجّة ها ! ها ! لا ينزل فيها .
وكان الصغير قد تناول حِقّه الفخاري يعالج باهتمام دسّ القطعة في شقّه فما يُفلح .
ــ جدّي ، جدّي ! اشترِ لي غداً إجّة كبيرة ، كبيرة ! (وكبّر عينيه) تدخل فيها البشالك . وسأقول لراسم بك أن يُعطيني بشلكاً .

ـــ لا ، لا تقل له .
ـــ سأقول للخواجه سامي .
ـــ كم مرة أوصيتك لا تقل الخواجه سامي .
ـــ قلتها بيني وبينك . ولكن لماذا صار اسمه الأخ حنانيا ؟
ـــ هذا لا يعنيك .
ـــ أنت يا جدّي ، ماذا كان اسمك قبل ان يكون أبو سعيد ؟
ـــ بطرس . ألا تعرف ؟ أنا اسمي جدّو بطرس وأبو سعيد .
ـــ وأنا ، لماذا ليس لي إلا اسم واحد ؟
ـــ أنت ؟ ... لأنك صغير .

فلم يفهم طام كثيراً . فبلع بريقه وعاد يحاول إدخال البشللك في الإجـّة .

ـــ وأنت ، ألا تُعطيني بشلكاً يا جدّي ؟
ـــ بلى ، بلى ، سأُعطيك .
ـــ أعطني .
ـــ سأُعطيك في المستقبل يا جدّو .
ـــ أعطني الآن !
ـــ ألا يكفيك ما معك ؟
ـــ لماذا لا تُعطيني أنت إلا متاليك ؟
ـــ المتليك يا جدّو حلو ، أبيض ، ويلمع . ألا ترى البشللك : أسود ، وسخ !
ـــ ولكنه يساوي عشرة متاليك . أمّا أنت قلت لي ؟
ـــ . . .

وكان الشيخ يريد أن يجاوب لولا شعوره بأن حفيده أفحمه فما يدري ما يقول ، فأخذ ينكت النار بالملقط وعيناه تحترقان مثل هذه الجمرات الحمر التي ينكشف عنها الرماد . وما أدرك الولد شيئاً من مأساة جدّه ، وكل ما فهم

أنه أغضبه فهو لا يصرف وجهه عنه مثل هذا الصرف إلا لأمر . فترك الإجّة والبشلك على البساط ودنا منه، فإذا ورده تدخل صائحة :

— طام ! طام !

وتهجم :

— أين البشلك ؟ هاته إلى هنا .

— هذا لي ! هذا لي !

وارتمى طام على الحضيض حامياً ثروته الكبيرة بجسمه الصغير . فشرعت أُمه تشدّه ليزيح فلم يتحرك ، فضربته فما لان ، فشدّته من شعره فدسّ كفّه تحت إبطه وضغط القطعة، واقترب أبو سعيد يردّ كنّته فشتمته، ويُقنع الولد فلم يقتنع ، وما زالت ورده بابنها حتى تمكّنت من كفّه، ففرّكت أصابعه واستولت على البشلك ، وتركته فريسة البكاء .

لبث أبو سعيد دقيقة طويلة جامداً يحدّق إلى الباب الذي دفعته ورده وراءها بغضب ... ثم أقبل على طام يؤاسيه حتى أمسك عن جهشته وقال :

— تُعطيني في المستقبل بدلاً منه ؟

— وعدتك . هل أكذب أنا يا جدّو ؟

— وأحسن منه . بشلك أبيض ، نظيف ، يلمع ... هل يوجد بشالك هكذا؟

— مؤكد، مؤكد يا جدّو .

ورفع الشيخ حاجبيه الكثيفين ونظر طويلاً إلى جبين الصغير ...

ثم تنهد وقال :

— رُح يا ابني تفقّد أُختك هل وصلت ، والحقني إلى المراح .

ونزل أبو سعيد إلى الطبقة السفلى من البيت يضع للبقرة عشاءها . وبعد قليل جاء طام فأخبره أن زينه لم تصل بعد ، ثم جعل يقصّ عليه أن جنديين أقبلا وعاونا أُمه على طرد أبو زيد .

— لو تراه يا جدّي ، ذهب إلى القناة ووقع على وجهه . طوب !

وضحك طام من كل قلبه .

* * *

كان الجنديان طليعة السمّار . ثم توافد بعدهما زبائن كل ليلة ، فحفل جو الدكان بالقلابق ودخان السيكارات وخليط النكات والعربدات تركية وعربية ، وورده تبسم لهذا ، وتجيب ذاك ، وتلبّي طلب الآخر ، لا تكلّ لها يد ولا يملّ لسان . وإذا تصدّى لها ساذج منهم بكلمة تركية ساخرة فليس أسرع منها إلى الرد ، على دهشة البعض وقهقهة الآخرين ، لأن ورده قد ضربت من لغة السلطان بسهم تفخر به ، إلى فخرها بالإنكليزية التي لا يفهمها العسكر ولا يستطيعون — ويا للأسف ! — أن يقدّروا براعتها فيها .

ولكن جهود المرأة لتسلية الجماعة ذهبت سدى . فقد مضت ساعة ثم ساعة ، وبات الانتظار ثقيلاً جداً . وكان أشدّهم تذمراً جندي يدخل الدكان لأول مرة ، لم يرضَ أن يأكل مجدّرة ورده وبصلاتها العفنة إلا طمعاً بما منّاه به رفاقه من لقاء فتاة سمراء ، مربوعة القامة ، مفتولة الساقين ، لها عينان تذبحان ذبحاً ، وفم كالفستقة .

— يا ورده ، أين زينه ؟

— بالقبر إن شاء الله !

— حرام عليك .

— سأريها حينما تصل إلى هنا ؟ ألا تقع بين يديّ ؟

ورفعت قبضتها في الهواء صوب الطريق ، ثم أطلّت من الباب ، فضاق ذرع صاحبنا الجديد فخرج ، ولم ينفع في استبقائه رجاء ورده ولا دلالها ، وخرج بعده آخرون ، وبعدهم آخرون . ولم يلبث أن استوحش أحد الخمسة الباقين ، وكان منتحياً زاوية ، فخرج هو أيضاً . وما أدار ظهره حتى تنفّس الأربعة الصُعداء ، وهتفوا بورده أن تعجّل بتلبيتهم . فنظرت يميناً ثم نظرت شمالاً ثم أعادت الكرة ، فرأت شبحاً على رأسه مظلة ، ورأته يدير ظهره ، فخُيّل إليها أنها تعرف هذا الشخص . هل يكون خليل المعلاّ ؟ ولكنه ذهب من الجهة الأخرى فلماذا يعود ؟ ولم تشأ أن تُشغل فكرها به طويلاً ، وكان

الزبائن ينادونها بفروغ صبر ، فأغلقت الباب برفق وحيلة ، ولم تنسَ أن توجّه إلى أبو زيد شتيمة كبرى لسكره وتخلّيه عن وظيفته هذه الليلة .
واستوى الأربعة على مائدة العرق والقمار .

٤

لم تكن ورده كسّار في ماضيها صاحبة دكان ، ولم يكن من تقاليد أهل ساقية المسك أن تفتح النساء الدكاكين ويتعاطين البيع والشراء .
كانت ساقية المسك تعيش ، قبل الحرب الكبرى ، على مواردها المحلية من زراعة الكرمة وتربية دود الحرير ، عيشة متواضعة كسائر قرى الجبل اللبناني ، وفي فترة من الزمان على حياكة الديما التي أكسبتها شهرة امتدّت حتى البلقان وأطراف أوروبا . وشأن ساقية المسك في ذلك شأن جارتيها بحرصاف وبكفيّا ، وهي وسط بين الأولى والثانية ، تنخفض الأرض بها على سفح يظل ينحدر ببيوتها حتى الوادي حيث يهجع طاحونها القديم هجوعه الأبدي ، وينتثر ذنَبها بدير تاريخي وبضعة أكواخ للفلاحين .
على أن مورد ساقية المسك الأعظم كان من مهاجري أبنائها إلى أميركا . فقلّما يخلو بيت فيها من أب أو أخ أو عم أو خال نزح عن الديار وركب البحار وراء الرزق ، يبقى على بعد الشقة بَرّاً بأهله ، وفياً لقريته .
وبيت كسّار لا يشذّ عن القاعدة ، بل هو نموذج حيّ لكثير من بيوت القرية . حجارته وأقسامه وسطحه صفحات مفتوحة للناظر يقرأ فيها تاريخه وتاريخ العائلة وتاريخ ساقية المسك كلّها .
رأى الجدّ النور في المراح الذي تحتلّه البقرة اليوم . وكان هذا المراح في زمانه موضع فخر . يقال « حارة بعمودين » وكفى ! يشغل أصحابه قسماً منه لقعودهم ومنامهم ، والقسم الثاني لأطباق القزّ ، والثالث للبقر والخروف

والدجاج . لا يفصل بين هذه الأقسام إلا العمودان الثخينان اللذان سلخت السنون طينهما على الإهمال ، فهما اليوم عظمان مجرّدان كالحان ، وخرّبت الأيام الرفوف فيهما وذهبت بأوتاد المناجل والفؤوس ، وأفسدت الرطوبة ، شتاء بعد شتاء ، دهان الحيطان ، فغيّبت آثار الدخان على الحائط الشمالي ، وضاع في الذكريات مكان الموقد ومتّكأ كل مساء .

وتزوج الشيخ ، إذ تزوج ، في هذه الحارة ورُزق فيها ابنه سعيد . وكبر سعيد بين البقر والكرم والحقل ، وتزوج بدوره ورُزق زينه . حتى كان ذات يوم فألقى بعض رفاقه في روعه السفر إلى أميركا ، فأبى عليه والده بادىء ذي بدء لأنه كان وحيده ، فأصرّ فنزل على رغبته ، فغادر ساقية المسك مخلّفاً زوجته زاهيه بعد سنتين لزواجه ، وابنته زينه وهي تحبو من العتبة إلى التوتة ومن التوتة إلى العتبة . وماتت زاهيه في غيابه فكتب له أبوه أنها أُصيبت بحمّى خبيثة ، ولكنه علم فيما بعد أنها وقعت عن صنوبرة وهي تقطف رؤوسها ، مع أنه أوصاها قبل أن يضع رجله في السفر وفي رسائله من أميركا « لا تتسلّقي صنوبرة أبداً ! » .

وكان يحب زاهيه لوداعتها ونظافتها ورعايتها لأبيه . فبكاها بين أثواب الجوخ في المعمل الذي كان ملتحقاً به في نيويورك ، وعلى مخدته في منزله الحقير من حيّ أولاد العرب ، وقصّ أخبار فضائلها على جيرانه وجاراته ، فاستمع الرجال وترحّموا ، واستمعت النساء فتشاورن في عروس له ... فتزوج للمرة الثانية من ورده ، وورده ابنة مهاجر من ساقية المسك نفسها ، مضى عليه دهر في أميركا دون أن يرسل إلى أهله المتخلفين درهماً أو يكتب كلمة ، فلمّا ضاقت الزوجة به ذرعاً ألحقته بابنته عساها تعيده أو تحمله على الأقل على التفكير بها وببناته الثلاث .

وافته ورده فوجدته منصرفاً للذاته الرخيصة من أكل وسكر وكسل ، فبقيت إلى جانبه . ولو أرادت الرجوع لما استطاعت لعجزه عن دفع أُجرة السفر . وأخذت تشاطره حياته الشقية وتقاسي منه السبّ والضرب والعذاب ألواناً .

وانكمشت في عزلتها مدة ، ثم دخلت المعمل حيث تعرّفت إلى سعيد وسواه من الشبان، وانبسطت لها حرية المعاشرة في نيويورك بعد سجن الخفَر في وطنها الأول ، فاكتسبت مرحاً في مزاجها لا تعرفه القرويات ، وجرأة في الحديث يُنكرنها ، وغروراً كثيراً .

وقد رغّب سعيد فيها أنها تشتغل فلا بدّ أن لديها مالاً ، وكان أبوه يُلحّ عليه بالعودة، فليعد إذن بما جمعته هي من الريالات إلى ما جمعه هو . وتمّ الأمر على هذه النية . ولم يجرؤ سعيد على إخبار أبيه به ، حتى إذا وصل الى ساقية المسك وصل بامرأة جديدة وطفل له على صدرها أعظم ما غاظ الشيخ منها تسميتها إياه باسم ناظر المعمل الذي مكثت فيه سنتين متواليتين ...

حينذاك بنى سعيد الطبقة الثانية من البيت على هندسة ورده وبماله وحده، لأن ورده أعطت أمها ما جمعته في أميركا ، وسقَفَه بالقرميد وحمل أباه على بيع البقرات والاشتغال بالديما ، فانتقل بيت كسّار بذلك إلى الدور الثاني من تاريخه مرتقياً إلى صف البيوت المرموقة في ساقية المسك . على أن أبو سعيد عزّ عليه الانفصال عن بقراته كلّها فاحتفظ بواحدة، الصبحا من نسلها الطيّب ، وقسّم الحارة قسمين : الأول لها وللقز ، والثاني له ولامرأته ولأجران الصباغ ، وجعلت ورده غرفة من الطبقة الجديدة للأنوال ، وغرفة لها ولزوجها وولدها ، وفرشت الثالثة صالوناً، وبقيت زينه مع جدّيها في المراح .

كان هذا العهد عهد الرخاء المادي والاتصال ببيروت . تعرّف سعيد إلى تاجر الديما وديع عاصم، واستمرّ ثلاث سنين ونيّفاً يركب العربة فجر كل سبت ناقلاً إليه منتجات الأسبوع ، ويصعد في المساء بكَمَر عامر بالمجيديات، ويصعد معه في بعض أيام الصيف الخواجه سامي نجل التاجر ، فيُنزله في خيمة الكرم ، يبقى فيها نهاره وليله وتقوم زينه على حاجته حاملة إليه مأكله ومشربه كل صباح .

ولكن ذلك العهد كان أيضاً عهد الشقاء والنكبات . فقد ماتت فيه أم سعيد من كيد كنّتها الجديدة ، وتبعها سعيد على الأثر بمرض عزّ دواؤه حتى على

الطبيب الذي أوفده وديع عاصم من بيروت ، فكان حزن الشيخ على امرأته وولده عظيماً ، وضاعفته النفرة بينه وبين ورده ، ولولا حبّه لحفيده وعطفه عليه لانقصف عمره كشجرة تحت العاصفة .

ثم كان أن نشبت الحرب ، فانقطعت النساء والصبايا في ساقية المسك عن أغانٍ كنّ يوقّعنها على طقطقة المكّوك ذاهباً آيباً ، وعلى دوران دولاب أعوج يقطع الخيط بين الدقيقة وأختها ، ونفض أبو سعيد يده من الديما ، وأنزلت ورده الأنوال إلى المراح ينخرها السوس وتنسج عليها العنكبوت ، وجثمت الأجران في مطارحها يأسن فيها الماء ويُثقلها يأس البطالة .

واستقبل البيت دوره الثالث : فتحت ورده دكاناً ! إختارت الصالون لبابه المواجه الطريق وجعلت منه دكاناً بمطعم بخانة بمقمرة بكل شيء : أربع طاولات غليظة عرجاء ، وبضعة كراسيّ من كل شكل ولون ، ودكّة من خشب لها من الوراء ستارة تخبّئ العرق وأقداحه، ومن الأمام رفوف عليها صحون وأصناف من المملّحات والمكبوسات والمحلّيات في أوعية زجاجية بعضها مكسور تلحمه بورقة والبعض مفقود غطاؤه فتسدّه بخرقة ... وصناديق محطمة، وأكياس هزيلة ، وأطباق فوق أطباق تحتوي من الأشياء ما لا عدّ له ولا وصف.

وازدهرت تجارة ورده بفضل العسكر التركي الذي احتل المنطقة منذ أوائل الحرب ، فأصبحت في يسير من الوقت محطّ أنظارهم وأمسى دكانها مجمع ضباطهم وملتقى الباذخين منهم . ولو جارتها زينه فيما تشاء لكانت الآن من الأغنياء ولاستطاعت أن تسترهن البيوت والأرزاق كما يفعل إبراهيم بك فاخر في بكفيّا ، ولتضاعف لله حمدها من أجل هذه الحرب يشقى بها الناس وتسعد ، ويهلكون وتحيا ... ولكن زينه فتاة حرون تتقذّر وتتكبّر ، وكان ينقصها — على تعبير خالتها — أن يأتي سامي عاصم إلى ساقية المسك ، ولا ديما ولا من يحزنون ، وأن تسعى وراءه وتحبه ، كأن المجال ينفسح للعشق والغرام !

غير أن المخلوق الذي يغلب ورده لم يلده بطن بعد ! لذلك وضعت رأسها لرأس زينه تعالجها بالمكر حيناً، وترهقها بالعمل أحياناً . وها هي منذ أول

الموسم تحمّلها سلّة كبيرة وتُجبرها على النزول كل صباح إلى الساحل والصعود بها في المساء مملوءة خضاراً ، مسافة خمسة عشر كيلومتراً وخمسة عشر ... ثلاثين كل يوم تحت الشمس والمطر ، حافية ، نصف عارية ، والزاد فُتات المعجن ، والكلمة الحلوة : اللعنة والدعوة بالموت .

٥

وصلت زينه متأخرة جداً تلك الليلة . كانت تعلم ما يجري في الدكان في مثل هذه الساعة ، فلم تشأ أن تدخل منه . ودارت حول البيت إلى درج يرتقي من جانب المراح إلى السطيحة الغربية . ولمّا أطلت على الزاوية لمحت شعاعاً يشقّ باب المراح فعلمت أن جدّها عند الصبحا ، فخالجها لوقوعها عليه سهران سرور كبير . فقد كانت محتاجة إلى الإفضاء إليه بشيء لو حبست عليه إلى الصباح لما استطاعت إلى الرقاد سبيلاً .

وكأن الصبحا استروحت بإنسان يُقبل ، فأرسلت خواراً ومالت بعنقها ، فلمعت عيناها . ومال الشيخ هو الآخر مقدّماً السراج ليرى مَن القادم .

— سعيده يا جدّي .

— قلقت عليك يا بنتي . سأُوقد لك النار حالاً لتتدفّي وتنشّفي ثيابك . حطّي عنك ، حطّي عنك !

ووضع السراج على حافة المعلف وحطّ عنها السلّة . كانت في ثيابها المبلولة كالدجاجة الطالعة من حوض أُلقيت فيه . إلا أن خدّيها المدوّرين كانا ينبضان بدم حارّ فيخلعان على سمرتها جاذبية نادرة ، وعلى فتوّتها جمالاً فوق جمال النساء .

وأخرجت البقرة لسانها صوب زينه ، وكررت خوارها موجعاً هذه المرة ، فمسح أبو سعيد على ظهرها وهزّ رأسه مكتئباً :

ــ أنت أيضاً يا صبحا تجوعين !

ــ جدّي ، جدّي !

ــ أحمل عنك السلّة وتأخذين معك حطبتين (وخفض صوته) هل كنت عنده طول هذا الوقت ؟ (واختلج شارباه وأردف) عند الأخ حنانيا ؟

ــ جدّي ، سامي يريد أن يروح . جئته اليوم أيضاً بمكتوب أحسست منذ تناولته في «إنطلياس» بخفقان في قلبي. قلبي دليلي. قيل لي هذا مكتوب خطير ، وأُوصيت بالمحافظة عليه . حياة سامي تتعلق به ، هكذا أنذرني مَن سلّمه إليّ . كنت خائفة طول الطريق ، كلّما لمحت مكارياً أو عربة تمرّ ظننت أن السرّ افتُضِح وأنهم سيهجمون عليّ ويسلبونني المكتوب . هل تعلم يا جدّي أين خبأته ؟ كان في صدري إبرة وخيط ففتقت ثنية فسطاني وحشوتها به ورددت الثنية كما كانت . حتى وصلت إلى المغارة وأعطيته إياه فرأيت على وجهه وهو يقرأه اهتماماً ، ورأيت ذقنه ترقص . سألته أن يأذن لي بقراءته فرفض ، فمددت يدي لأختطفه فعبس . فقلت له : إذن تُفهمني ما فيه . فلم يسمع وقال : ماذا عمل جدّك مع كامل أفندي ! إذهبي حالاً وقولي له «سامي في حاجة قصوى إلى ما أوصاك به» . ألحّ عليّ كثيراً ، قال لي «لا يخف جدّك من كامل أفندي، يجب أن يفاتحه بالأمر» وأمسكني بيده يدفعني إلى الخروج . فامتنعت إلا أن يُطلعني على ما في المكتوب. وحينئذ قبل أن يقرأ لي شيئاً ، فوضع كفّه على قسم منه وسمح لي بقراءة القسم الآخر . لقد قبضوا على ثلاثة من رفاقه يا جدّي، وساقوهم إلى الديوان العرفي في عاليه . قرأت أسماءهم ولكنني لم أحفظ منها اسماً . كنت أُفكر فيه هو ، وكل ما حفظته أن صديقه يخشى عليه أن يُفشي أحد المقبوض عليهم سرّه تحت الضغط ويدلّ الأتراك على مخبئه في ساقية المسك ... جدّي، جدّي، أصحيح ما يقول لي سامي ؟

ــ عن أي شيء ؟

— خوّفني كثيراً. أنا وحدي خفت. أما هو فكأنه لا يبالي. لا أقدر أن أسمع هذه الكلمة «الديوان العرفي» إلا ويقشعرّ بدني.

— لا تخافي يا بنتي، لن يطالوه.

قالها بقوة المؤمن فسرى الإيمان إليها.

— مَن يظنه في تلك المغارة المهجورة! أليس كذلك؟

— ...

— قال لي إنه يريد أن يذهب إلى كسروان ويحتمي بدير فيها. ألا تعرف ديراً أقرب يا جدّي؟

ولكن أبو سعيد كان مستغرقاً في التفكير.

— قل، ألا تعرف ديراً أقرب؟

فلم يشأ مضاعفة قلقها فداعبها:

— ألا تخافين أن يترهّب فعلاً؟

وابتسم كالعابس، فقالت:

— دعني أنا أكاشف كامل أفندي بالأمر. سامي لا يغادر ساقية المسك قبل أن يعرف نتيجة المسعى معه. وكان يقول لي «يجب أن أراه أنا. يجب! يجب!» ويشدّ.

— لا أنت ولا هو.

— كامل أفندي رجل طيب يا جدّي.

— أجل طيب. وهو عربي. ولكنني أخاف ثوبه. أمّا هو عسكري؟ العسكري لا يُؤتمن يا بنتي.

— هل سمعته يسبّ الأتراك؟ يسبّهم ويسبّ راسم بك والدولة.

— سمعته. له كلمات يُخيّل إليّ وأنا أسمعها منه أنني أسمع سامي. كنت أود لو يسمعها سامي بأذنيه... ترى لماذا لم يأتِ اليوم مع أنه معتاد أن يجيء كل يوم فيغافل رفاقه ويدخل ويقصّ عليّ نكاته. سأكلّمه غداً، سأكلّمه!

ـ خلّني أحضر الحديث يا جدّي .

ـ إطلعي نامي .

٦

أفاق أبو زيد وفي رأسه خُمار داوٍ . وكانت الشمس قد علت في السماء ، فتدحرج على الدرج ولفّ زنّاره في الطريق ودلف صوب دكان ورده غاضباً نافخاً بين شاربيه ، وطرفا قمبازه يضربان على ساقيه . فقد ضاع عليه رغيف الصباح ، ولن ترضى ورده ـ هو يعرفها ـ أن تضيف إلى الغداء ما فاته من الفطور ... فلا بدّ إذن من رثاء رغيف !

ولم يمشِ في النور غير قليل حتّى تفتحت مغالق مخّه ، فتذكر أنه لم يقم بوظيفته الليلة البارحة ، فهدأ خفق قمبازه رويداً رويداً ، ووقف يفتل شاربيه ، ثم انفرجت أساريره وتغضّنت على الأثر . أي شيء قاله البارحة لصاحب النظارتين والبنطلون الإفرنجي ؟ وهَمّ أبو زيد بالبكاء ، فطلع البكاء ضحكاً على وجهه يعزّي به نفسه ويشجّعها ، وانفلتت يداه في الفضاء خطيباً ، واشتد وقع خطواته وتوازن ... ثم وقف ثانية لا يدري من أي جهة يمشي ، يدور يميناً ثم يدور شمالاً ... ثم رأى خليل المعلاّ ، صاحبه أمس ، مقبلاً نحوه فخفق قلبه ـ لماذا ؟ لا يدري ـ وكان لا بدّ أن يختار جهة سير فأدار له ظهره ، ولكن الآخر أدركه وقال :

ـ حظّي كبير يا أبو زيد .

ـ العفو ، العفو !

ـ إلى أين تذهب ؟

ـ أنا مشغول . مشغول جداً عند الست ورده .

ـ وأنا قاصدها .

– أريد أن أقول إن عليّ موعداً مع صديق لي بالقرب من دكانها .
– إذن أرافقك ... كنت أفتش عمّن أتناول غدائي معه .
– صحيح ؟

وجمد أبو زيد مرتبكاً . كان يريد في الحقيقة الهرب من ورده وخليل المعلاّ معاً . فورده ستستقبله بالزعيق لحادثة أمس ، وهذا الغريب يريد أن يجرّه إليها ، ولكنّ الغداء مغرٍ ، فما العمل ؟ وأخيراً فتقت له الحيلة فقال :

– إذا كان لا بدّ فأنا أدلّك على دكان أحسن من دكان ورده .
– كنت أعتقد أن ورده هي أحسن امرأة عندكم وأن دكانها أحسن دكان !

بعد دقيقتين كان الاثنان متّكئين إلى قدحَي عرق في حانوت منعزل. وكان أبو زيد صامتاً لا تطلع الكلمة من شفتيه . ينازعه أمران هامّان جداً ، يحار بأيّ واحد يفكّر فيأبيان إلاّ أن يزحم الأول الثاني ثم يزحم الثاني الأول بسرعة عجيبة ، وهو بينهما يصغي ولا يسمع وينظر فلا يرى ، ويريد التملّص من هذه الوُرطة فلا يستطيع ، كالكرة بين لاعبَين لا يدعان لها مستقراً ولا هي تتنفّس فتستريح !

– أراك يا أبو زيد ضَجِراً . هل لك في دقّ ورق ؟

جاء الإنقاذ بأعجوبة ! فقد كان أبو زيد في الواقع متهادياً بين هذَين: اللعب وحديث البارحة . وما كاد خليل المعلاّ يعرض عليه اللعب حتى قال في نفسه إنه لو استمرّ في مصارعته للأمرَين لانتهى حتماً إلى هذا ! لأن خليل رجل غريب ما همّه من السرّ ، ولا شك أنه عدّها ثرثرة سكران لا يعي ما يقول . وآية ذلك أنه لم يذكر له عن السرّ كثيراً ولا قليلاً ، وما يبدو على وجهه سؤال من هذا الباب البتّة، فإلى اللعب إذن . وتراقصت عيناه طرباً وطمعاً . أجل ، لأن أبو زيد يزعم أنه خير مَن أمسك ورقاً وأن له في اللعب براعات تخفى على أمهر اللاعبين ، تعتقد ورده أنها تفهمها كلّها فيستهزئ بها بينه وبين نفسه ، فهو لا يُطلعها إلاّ على الساذج منها ، كجرح الورقة بالظفر ، والغِش في جمع النقاط وما إلى ذلك . بقيت هنالك الخفّة في التوزيع

من تحت أو من فوق عند الحاجة ، وسرعة الرمي على الركبة ، والخطف عند الفرصة ، والمغاضبة لتشويش المائدة ، والملاطفة في أوقاتها ، مع ضروب من رشاقات اليد ، وزلاقات اللسان ، واختلاف الطبع كان أبو زيد سيدها وضابط أسرارها .

— على بشلك .

— كثير يا أبو زيد . الدقّاق ببشلك . لا تنسَ أن القصد أن نسلّيك .

ومضيا في اللعب . ربح أبو زيد الدقّ الأول ، فالثاني ، فتناول خليل بشلكاً ودفعه إليه فتمانع أبو زيد — وهي من أُصول اللعب أيضاً — فقال الآخر :

— هذا حقّك . كأنك ورثت من أبيك . الآن الدقّ الواحد ببشلك .

— كما تريد .

— على سيرة الإرث ، لقد مات لي عمّ غنيّ كنت عنده بمنزلة الولد وكنت أُحبه كثيراً ...

— مسكين !

— قلت لك إنه كان غنياً ؟

— آه ! الله يرحمه .

— ألم تفهم ؟

ففتح أبو زيد فمه ، فأطاقها خليل المعلاّ ضحكة من ضحكاته :

— هُ . هُ .

— قه قه قه قه .

وربح أبو زيد ، فقال خليل :

— ببشلكين .

— أمرك .

فربح أبو زيد البشلكين فصار أمامه أربعة ، وحان الوقت أن يفتل شاربيه .

— بالأربعة !

فأراد أبو زيد أن يجيبه « بل بثلاثة » ليبقى البشلك الرابع رأسماله إذا خسر .

ولكنه كان واثقاً من الغلبة ، كان واثقاً منذ رأى خليل المعلاّ يفتّ الورق . فابن المهنة يفهم لعب اللاعب من فتّه . وصدق فأله فظفر هذه المرة أيضاً ووضع أربعة بشالك في جيبه وطلب من البائع كأساً أُخرى مع «مازة ممتازة»، وغضب عليه ـ أُصول اللعب كذلك ! ثم اعتدل في جلسته، فقال خليل :

ـ أتزيد ؟

ـ خلّنا على الأربعة .

ـ الدقّ بخمسة بشالك .

ـ بخمسة .

وربح أبو زيد ، فصفّق وطلب لخصمه ـ آداب اللعب بعد أُصوله ـ كأساً على حسابه هو . ولم يرفض خليل التقدمة ولكنه سوّى نظارتيه ولمعت عيناه لمعاناً لم يخفَ على أبو زيد . ورفع خليل قدحه وشرب نخب صاحبه . ثم استؤنف اللعب وظلّ أبو زيد يربح ، يربح ، يربح حتى تكدّست البشالك أمامه وعمرت بها جيوبه ، وأطلّت المجيديات من ذلك الكيس الذي لا يعرف الفراغ .

ـ الدقّ بمجيدي !

وكرّت الخسارة على أبو زيد كرّاً . فجعل يتململ على كرسيّه حيناً ، وينتف شاربَيه حيناً ، ويستنجد ببراعاته وأحابيله ، ويصلّي لسيّدة المعونات التي يؤمن بها كثيراً ، ويكفر ليعود إلى الاستغفار والصلاة ... ولكن عبثاً ! حتى إذا استردّ خليل المعلاّ خسارته كلّها انطلق في ضحكته :

ـ هُ هُ هُ .

فصرّ أبو زيد بأسنانه وقال :

ـ ما بالك ؟ نحن صلح الآن . إلعب .

ـ هُ هُ .

وقطع الغريب هأهأته وتهيّأ للقيام . فحار أبو زيد بين الابتسام والعبوس ،

وخانته أُصول المغاضبة في أوقاتها والملاطفة في أوقاتها، واستوت على وجهه فضائح قهره وصاح :

ـ لا أدعك تخرج !

فعاد خليل كالمتذكّر :

ـ صحيح . كدت أنسى أنني دعوتك إلى الغداء .

ـ لا أُحسّ بالجوع .

ـ مع أن الجوع كافر ... خُذها مني نصيحة يا أبو زيد : البطن قبل كل شيء .

ورأى أبو زيد أن الواجب هنا أن يبتسم ، ففعل وقال :

ـ اللعب يُنسي الجوع وخصوصاً مع خواجه مثلك .

ـ أيّهما أفظع : الموت جوعاً أم على المشنقة ؟

ـ ها !

ـ أسألك رأيك بكل جدّ : ماذا تفضّل ؟

ـ أنا ؟.. يعني ... المشنقة شيء فظيع (وأردف حالاً) والجوع أيضاً شيء فظيع .

ـ أنت ليس لك رأي . كنت أُحب أن أعرف رأي ورده كسّار .

ـ لماذا ؟

ـ ورده سيأخذونها إلى المشنقة !

ـ ماذا تقول ؟ ورده ؟!

ـ ويخربون بيتها إلى الأبد .

ـ هل أنت مجنون ؟

ـ وأنت أيضاً ...

ـ أنا ؟!

ـ العفو ، لا أُريد أن أقول إنك أنت مجنون . بل أنت أيضاً سيأخذونك إلى الديوان العرفي في «عاليه» ... إلا ...

ــ عاليه ؟

ورفع خليل إصبعه في الهواء :

ــ ... إلا ... دعني أكمل ... إلا إذا أردت أن لا تذهب .

فبُعث أبو زيد حيّاً .

ــ أقول لك الحقيقة أنا لا أُحب المزاح . غلبتني وتريد أن تمازحني فامزح على غير هذا الشكل .

ــ وأنا لا أُحب المزاح . عجيب توافق الطبع بيننا !

ــ أنا رائح .

ــ أُقعد .

ــ أُتركني .

ــ أُقعد ، أنا وحدي أُخلّصك من المشنقة .

ــ لماذا تنظر إليّ هكذا (واصطكّت ركبتا أبو زيد) لا شكّ أنك غلطان . أنا أبو زيد ...

ــ ... بن طنوس المكاري مطلوب إلى الديوان العرفي . أتدري بماذا تتخلّص منه ؟

وكان خليل المعلاّ يهمّ أن يدعوه مرة أخرى إلى القعود ولكن أبو زيد وقع من نفسه قاعداً .

ــ تتخلّص من المشنقة بكلمة .

ــ بكلمة ! عن أيّ شيء ؟

ــ لا تتغافل . هل نسيت الليلة البارحة ؟

ــ ماذا جرى البارحة ؟ شربنا عرقاً وصرنا صديقين . أهكذا يصنع الصديق بصديقه ؟ (واغرورقت عينا أبو زيد) .

ــ لقد هدّدت ورده كسّار مراراً بفضح السرّ ، وقلت إنك ستطلع على السطح وتنادي به . أنا أُكلّفك أقل من هذا : توشوشه في أُذني .

ــ أنا ليس عندي أسرار .

— كنت عازماً على إفشائه من أجل كأس عرق .
— أنا !
— عليك الآن أن تفشيه من أجل حياتك !
— وبأيّ صفة تكلّمني أنت هكذا ؟ أنا رائح .
— أُقعد .
— أُتركني ، اتركني !

ونهض، فتعلّق خليل المعلاّ بقمبازه يشدّ به ، فأخذ أبو زيد يصيح ، فوثب البائع يفرّق بينهما ، وتحوّل الدكان إلى ساحة عراك وقعت فيها الصحون والكؤوس أشلاء ، وانقلبت الكراسي والطاولات ، وخليل مُمسك بطرف القمباز لا يُفلته ، وأبو زيد يحلّ زنّاره طاقة طاقة ، ثم خلع القمباز دفعة واحدة وتركه لخصمه ، وأطلق ساقيه للريح .

٧

لم يحاول خليل المعلاّ اللحاق بأبو زيد ، لكنّه اكتفى بالضحك ونقد البائع ثمن أقداح العرق وبدل ما تحطم في المعركة ، المجموع ثلاثة بشالك وأربعة متاليك . ثم نفض مظلّته وخرج قاصداً إلى دكان ورده كسّار ، فالتقى بطام فانكمش حائداً من طريقه وتركه يمرّ ... حتى إذا ابتعد عن السوق والناس تبعه وهتف :

— طام !
— أُوه ! هذا أنت ؟ بغتّني .
— هُ هُ ! أردت أن أُسلّم عليك . أنت ذاهب إلى الدكان ؟
— لأ . ألا تعرف الدكان أين ؟
— أليس من هنا ؟

ـ بل من هنا (وأشار طام بالعكس) أنا ذاهب عند راسم بك.
ـ راسم بك! الضابط راسم بك! ألا تخاف من جزمته الّتي تطقطق؟
ـ أنا أخاف! أذهب عنده كل يوم، أمسح بكفّي على خدّيه وأقول له «أبانا الذي في السموات». كل مرة أقولها بحفنة زبيب وجوزتين.
ـ أنت إذاً صديق الضابط؟
ـ معلوم. وراسم بك يعلّمني العسكريّة.
ـ العسكريّة؟ ستكون ضابطاً عظيماً عندما تكبر! هل تعرف الحركات كلّها؟
ـ أعرف كل شيء. إسألني.
فضمّ خليل المعلاّ مظلّته إلى جنبه وضرب قدماً بقدم:
ـ حا... ظ، دور!
فانتصب طام يحيّي بكفّه كالجندي التركي. فاقترب وربّت على كتفه:
ـ ماذا يُعطيك راسم بك أيضاً؟ ألم يعطِك بشلكاً؟
فرفع الصبي ذقنه سلباً.
ـ ولا مرة؟ ولا مرة؟!
ـ أنت وحدك أعطيتني بشلكاً.
واحمرّ طام حتى أطراف أُذنيه.
ـ هل أنفقته؟
ـ لا.
ـ عافاك! أين هو؟
ـ عندي، عندي.
ـ أرِني إياه.
ـ أعني في البيت، لا أحمله في جيبي.
ـ أخذه منك جدّك؟
ـ لأ. جدّي لا يأخذ مني. جدّي يُعطيني دائماً.

– بشالك ؟
– لأ . متاليك . وعد بأنه سيعطيني في المستقبل بشلكاً أحسن منه .
– أحسن منه ؟ هُ هُ . خذ ، هذا أحسن منه يا طام .
– لأ ، لأ . جدّي عنده أحسن .
– أحسن من هذا ؟
– أحسن .
– ومن هذا ؟ ومن هذا ؟ ومن هذا ؟ إختر البشلك الذي تريد .
وكان خليل المعلاّ قد أخرج حفنة من البشالك ، فمدّ الصبي أنفه إليها كمنقار العصفور ، ثم رفعه وسأل :
– أمَا عندك بشلك أبيض ، نظيف ، ويلمع ؟
– هُ هُ . فهمت . هذا . (وسحب من جيبه قطعة أخرى) .
– هذا ريال مجيدي ، لا بشلك .
– أيعتقد جدّك أن في الدنيا أنظف من هذا ؟
– جدّي لا يكذب أبداً .
– صحيح ؟
– معلوم صحيح .
– خذ .
– المجيدي !
– لا تُخبر أحداً به .
– لا . لن أخبر أُمي (وتناوله) .
– ولا جدّك ، ولا أُختك ، ولا الخواجه سامي .
– الخواجه سامي لا يأخذ مني ، هو مثل جدّي يُعطيني .
فارتعش بدن خليل المعلاّ .
– ماذا أعطاك آخر مرة ؟
– أعطاني بشلكاً .

– ألم يعطِك مجيدياً ؟
– لأ .
– لو تعرف كم أنا مشتاق إليه ! صديقي منذ كنّا مثلك صغيرين . متى أعطاك البشلك ؟
– منذ تشاجر جدّي وأمي فزعقت « لا أُريد أن يدعس الأخ حنانيا بيتي ! »
فارتعش بدن خليل المعلاّ مرة ثانية .
– أترافقني لنراه معاً ؟
– أُريد أن أذهب عند راسم بك . راسم بك ينتظرني .
– دلّني عليه واذهب .
– أُتركني ، اتركني .
– في أيّ دير هو الخواجه سامي ؟
– مَن قال لك إن الخواجه سامي هو الأخ حنانيا ؟ أنا لم أقل لك . أنا لم أقل لك .
ورفع الصغير ذقنه متحدّياً . ولكن شفتيه كانتا تختلجان بشدّة فلم يلبث أن حوّل وجهه .
– زعلت مني يا طام ؟
– أُتركني ، اتركني .
– طام ، طام ... طام !
وكان الولد قد تابع طريقه . وفيما خليل المعلاّ يحاول أن يلحق به إذا بطام ينقلب على عقبيه ويدفع الريال إليه .
– خذ .
وضرب خليل بيده لكنّ طام كان أسرع منه . ألقى المجيدي على الأرض وركض راجعاً إلى البيت ودخل تواً إلى الغرفة التي ينام فيها وأغلق الباب ودسّ جسمه الصغير في الفراش وغطّى رأسه يبكي .
وظلّ اللحاف يخفق فوق صدره طالعاً نازلاً ساعة طويلة .

٨

عند مغيب الشمس ، كانت زينه تضع سلّتها في المخبأ الذي تضعها فيه كل مساء حينما تعرّج على « مغارة الخورية » لتزور حبيبها . والمغارة على مسيرة نصف ساعة من ساقية المسك ، إلى الجهة الغربية الجنوبية ، منقورة في شفير من الصخور ، يحبو إليها الصاعد حبواً ، متمسكاً بالأدغال الملتفّة على الجانبين ، يرصده الموت على غفلة من يده وزلّة من قدمه .

أما لماذا تُنسب المغارة إلى الخورية فأمر لا يعرفه أحد على وجه التحقيق . تحكي عجائز القرية أن الخورية ، جدّة الخوري فلان الذي ما يزال حياً يُرزق ، كان عندها ضرف فيه شيطان ! وكان اللعين ، إذا نام الخوري ، يجعل الخورية في الضرف ويذهب بها ليلاً إلى تلك المغارة فتبقى ساعة وتعود . واتفق ان الخوري انتبه من رقاده مرة ، فرأى الباب مفتوحاً فقام وأغلقه . فلم يُغمض أجفانه حتى طُرق الباب طرقاً منكراً ، فنهض فإذا الضرف ينطح الباب وصوت فيه كصوت الخورية يقول : « يا خوري صلّبْ على وجهك ! » فصنع الخوري إشارة الصليب ، فطلعت الخورية من الضرف .

تقول العجائز : ولم تنفع صلوات الخوري ولا نذوره في إخراج إبليس من الضرف ، ولا كان أحد يشتريه ويبعده عنه . وظلّ الخبيث يخطف له خوريته ، إذا غطّ في فراشه ، حتى مات بهذه الحسرة ! فلما أسلم الروح نطّ الضرف نطّة واحدة واختفى ، خجلاً من الملائكة التي هبطت لتحمل روح القدّيس إلى السماء .

وعلى باب مغارة الخورية شُجَيرة متعرّشة يقال لها عند الرعيان « عاشقة » تستند إلى قطلبة لها أغصان مفتولة ، ملساء ، حمراء كأذرع الحصّادين العارية تحت وهج الشمس .

وحفّت الأوراق على كتف زينه ، فعلا من الداخل صوت :

— مَن ؟

نبرة عريضة مضطربة لم تتعودها . وقبل أن تستطيع جواباً أُعيد السؤال قوياً ، كوترٍ كان مرخى فشُدّ :

— مَن هنا ؟

— أنا . أنا زينه !

ودخلت ، فلم يخرج للقائها ، وسمعت وقع شيء ثقيل وحركة ، فنادت :

— سامي ! سامي !

وكان للمغارة سرداب ينحدر من عند فمها ويذهب متعرّجاً بين حيطان طبيعية محدّدة الجوانب ، وسقفٌ من الصخور تتمدّد هنا وتلتقي هناك وتندلق في ناحية أُخرى . والظلمة في ذلك الكهف شديدة في رابعة النهار ، فكيف عند الغروب . لذلك سَرَتْ في جسم زينه خشية، فكرّرت النداء وفي صوتها استغاثة :

— سامي ، أين أنت ؟

وأنصتت قليلاً . ثم اقتحمت العتمة فإذا نور ينداح فجأة في قلب المغارة ، وإذا سامي بجبّة الأخ حنانيا مُدبر يعالج تركيز السراج في فجوته . ثم أدار وجهه إليها وعلى شفتيه محاولة ابتسام، فصاحت :

— سامي ! أدَمٌ على وجهك ؟!

وبادرت إليه فردّها بكفّه ومسح خدّه .

— ليس هنا، بل الخدّ اليمين . ماذا أصابك ؟

— لا شيء ... لا شيء ... !

— هل وقعت ؟ أُدنُ لأرى .

— قلت لكِ لا شيء .

وقعد على فراشه المطوي لم يلتفت إليها . كانت عيناه زائغتين ، وخصلة من شعره الطويل المشعّث نازلة على صدغه ، فرفعها . ثم نظر إلى زينه نظرة مخيفة، واستوى واقفاً فأخذت بكتفيه :

— قلْ لي ما هذا الدم على وجهك ؟

ـ . . .

ـ هل طلعت اليوم من المغارة ؟

ـ لا شيء . قلت لك لا شيء !

ـ كأنها آثار أظافر ... ودمٌ أيضاً على رجلك ! أُنظر .

ـ رجلي ؟ صحيح ، على رجلي .

ـ أهذا أيضاً شيء لا يجوز لي أن أعرفه ؟

فلم يسمعها ، بل كان مرهفاً أُذنه إلى بعيد .

ـ أُقعد ، اقعد . ماذا تريد ؟

ـ ظننت ، ظننت ... لا شيء ، لا شيء ... ظننت أنني أسمع دعسة .

ـ هل تنتظر أحداً سواي ؟

ـ . . .

ـ مَن يعرف هذا المخبأ ؟

ـ لا أحد سوانا . لا أحد ، أليس كذلك ؟

ـ يفتّشون عليك في البيت دائماً . لقد فتّشوا حتى الآن ست مرات . لا يريدون أن يقتنعوا أنك لست في بيت كسّار . سامي ! سامي !

ـ . . .

ـ ألا تصغي إليّ ؟ ما لك ؟ أرى كل شيء تغيّر في هذه المغارة .

ـ ماذا ترين ؟

ـ كل شيء . كل شيء . إن يدك ترتجف . أُنظر .

ـ من البرد .

ـ ترتجف كثيراً ، كثيراً !

وألصقت بصرها بكفّه . أما هو فلم يجرؤ على الالتفات إلى تلك الكف ، ولكنه شدّها إلى فخذه بجهده ، فلم تزدد إلا اضطراباً ، فأرادت زينه أن تأخذها بين يديها فأجفل .

ـ قلت لكِ اتركيني .

— هل يزعجكَ وجودي ؟
— بل ابقي هنا . لا أُريد أن تذهبي .
وغرق في سكوته . فجعلت تبحث في أنحاء الكهف عن أسباب هذه الأزمة البادية على حبيبه ، وهو يرافق اتجاهات عينيها بزاوية من عينيه ، حتى إذا خطت خطوة وثب واقفاً في وجهها كأنه يحول دونها ودون رؤية شيء .
وغرس ألحاظه فيها ثم قال :
— زينه ، هل تحبّيني ؟
لم تكن المرة الأولى التي تسمع فيها منه كلمة الحب . ولكنها لا تدري لماذا فعلت فيها هذه المرة ما لم تفعله من قبل . كان يقولها في الماضي مطمئناً ، قوياً ، فارضاً إرادته عليها فرضاً ، أما الآن فإنه يقولها بانكسار ، كمن يطلب صدقة . فتماوجت في قلبها عواطف كدوائر الماء اذ يُلقى فيه بحجر ، ورفعت إليه وجهها وقالت كل ما استطاعت أن تقول :
— لماذا تسألني هذا السؤال ؟
وكان ذهنه قد اجتاز على هذا السؤال الجسر الذي لا بدّ منه ليصل إلى ما يريد ، ففتح ضميره وجعل يقصّ قصته .

٩

قال :
— يدي ترتجف . أليس كذلك ؟ ولكن الأمر أهون مما تظنّين ، وأهون مما كنت أظن أنا . أتفهمين ؟ لم أكن متعوداً ... كنت في حاجة إلى بندقية ، فقد فرغ مسدسي ولم يبقَ فيه إلا رصاصة واحدة. من أين أشتري له رصاصاً ؟ وأنا لا أقدر أن أبقى بلا سلاح . أنت تعرفين ، لا أقدر أن أبقى بلا سلاح . وجدّك لم يكاشف كامل أفندي . ألحقّ على جدّك ليس ألحقّ عليّ... لا .

أريد أن أقول: جدّك ليس مكلّفاً أن يغامر هذه المغامرة . أنا أخاف عليه من هذا الجاويش . لماذا أوقعه في هذه الورطة ؟ يجب أن أتدبر أمري بيدي . وعنّ لي أن أروح إلى بيتكم وأقابل كامل أفندي ، وليكن ما يكون . أقول لك كنت على وشك أن أذهب . كنت ذاهباً . ولكن الله أراد أن يكون ذلك الشيء . أتؤمنين أنت بالقضاء والقدر ؟ أما أنا فأقول لك أؤمن بالقضاء والقدر... كنت هنا ، قاعداً على فراشي . كنت أنظم قصيدة . قصيدة وطنية أحمل فيها على الأتراك وأستنفر الشعوب المقهورة . أفكار القصيدة كانت كلّها في رأسي واضحة تماماً . فجعلت أصنع البيت والبيتين ثم أشطبهما ... أكثر من عشرين ، ثلاثين بيتاً شطبتها ، سوّدت الدفتر كلّه . الدفتر الذي جلبتِه لي ، كم ورقة فيه ؟ كلّها سوّدتها ومزّقتها ! كنت أريد القصيدة ... كنت أريد قصيدة جميلة . لا ، لا ! كنت أريد قصيدة قوية ، أتفهمين ؟ قوية مثل الظلم ، قوية أكثر من الظلم ، مثل الثورة التي تحطّم الظلم والظالمين . فأجد ما أنظم جميلاً ، ولكنه مع جماله يُعوزه شيء : القوّة ! فأشطب وأمزّق . حتى دار بي رأسي وأحسست أنّني سأختنق في هذه المغارة ، أحسست أنّني سجين يا زينه ، وأحسست القيود والسلاسل في يديّ ورجليّ . كنت أريد أن أهرب من سجني . ألست أنا الذي خلقت هذا السجن لنفسي ؟ ستقولين لي : كنت مضطراً . لا ، لم أكن مضطراً . هذا كذب ! ماذا أنتظر من غدي في هذه المغارة ، في هذا القبر ؟ رفاقي الذين اعتُقلوا وسيقوا إلى الديوان العرفي في عاليه سجناء ، أما أنا فميت ! والذين سبقوهم إلى المشانق شهداء ، أما أنا فجبان ... جبان أختفي عن الأنظار وأقنع بلقمة أمدّ بها في حبل حياتي الذليلة . ومن يأتيني بهذا الرغيف ؟ فتاة ! رأيتُني حقيراً كالحشرة التي أدوسها بقدمي . وماذا أفعل هنا عدا الأكل والشرب والنوم ؟ قصائد ! قصائد !... ضحكت ، ضحكت عالياً يا زينه . لا أدري كيف كانت هيئتي حينما ضحكت ، لا أشك أنني كنت كالمجنون ... سأصل بك إلى ما أريد . خرجت إلى باب المغارة ، وهممت بأن أرمي نفسي من الشفير فأقع تحت محطّماً .

ثم قلت لا ، بل أخلع عني هذه الجبّة وأمشي إلى عاليه : تطلبونني فها أنذا ! ولكنني جبان . قلتها لك أنا جبان ! لأنني لم أفعل هذا ولا ذاك ، وانتهيت إلى أن من الخير لي أن أنتظر . ارتحت إلى حالي وكنت على وشك أن أدخل وأتناول غدائي . وأدرت ظهري وخطوت ، فإذا بقعقعة حجارة غير بعيد مني ، هنا ، إلى يمين المغارة . فنظرت . وحينئذ رأيته . رأيت جندياً ينحدر من الأكمة محاذراً يتلفّت بين الخطوة والخطوة . سبق لي أن رأيت جنوداً كثيرين يمرّون تحت هذه المغارة ، وربّما كان هذا العاشر . ولكنه كان يحمل مارتينة والآخرون كانوا عزّلاً كلّهم ، حفاة ، نصف عراة . وكانت المارتينة في يده يحاول إخفاءها فيجرّها على الأرض جرّاً وهو يرفع رأسه أمامه مُزيحاً بها البلاّن والشوك . سمعت حزّتها على الأغصان ، ورأيتها تلمع على شمس الظهيرة . وكان يسير دائماً في وجهتي . لم يكن آتياً إليّ . كلاّ ، كلاّ ، لم يكن يقصد بي سوءاً . كنت على يقين من ذلك . كنت واثقاً أنه فراريّ كزملائه الهاربين من جور ضباطهم الأتراك . وشعرت بشيء في قلبي نحوه . شعرت بالشفقة عليه . أذكر جيداً أشفقت عليه وشتمت الضباط الأتراك وتركيا . وأدليت برأسي أتتبّعه . ثم خشيت أن تحين منه التفاتة إلى فوق فيراني ، فاستخفيت فغاب عني . فانحدرت خطوة فرأيته ما يفتأ يمشي مسرعاً وذقنه إلى الأرض . أردت أن أقف حيث كنت منه فلم أدرِ أيّ قوة دفعتني إلى الانحدار أيضاً ، فانحدرت دركة ثانية ، ثم انحدرت الثالثة وأنا أتساءل عن السبب متعجباً بيني وبين نفسي . ولكنّ صوتاً داخلياً ، صوتاً دقيقاً متواصلاً كان يقول لي : انزل ، انزل ! وأنا أنزل . ثم نظرت فإذا هو على عشر خطوات من المكان الذي أُشرف عليه ، يمشي دائماً في وُجهتي محدوباً . ثم رأيته يشيل برأسه قليلاً ، فخفق قلبي ، ورأيت شاربيه يرتجفان ، ورأيته كأنه يناجي شيئاً غير منظور فهو يطبطب بشفتيه . أقول لك كنت أراه جيداً . وحبست أنفاسي أنتظر . ماذا كنت أنتظر ؟ لا أعلم . ثم اختفى ، فظننت أنه غيّر وجهته . فإذا بفوهة بندقيته تطلّ من قلب الوزّالة الكبيرة تحتي . ولعت الحديدة هذه المرة حتى

بهرت عينيّ . لم أكن أُريد شيئاً . أقول لك لم أكن أُريد شيئاً حتى تلك اللحظة . لم تحدّثني نفسي حتى بمدّ يدي وخطف المارتينة . لأنها لم تكن تكلفني أكثر من مدّ يدي هكذا . ولم أمدّها . بل ندمت على انحداري إلى هنالك وقلت : كان عليّ أن أبقى فوق . هذا ما قلته ، أذكر جيداً . كل ذلك جرى في لحظة ، لحظة واحدة . فإذا هو يرفع وجهه فجأة وتلتقي عيناي عينيه ! وحينئذ، حينئذ فقط ... قلت لك القضاء والقدر . عيناه المدوّرتان المذعورتان ، لماذا رفعهما إليّ ؟ لماذا رفعهما في تلك الثانية ولم يرفعهما قبلها ولا بعدها . كان إذن يمرّ دون أن يحدث شيء . هل صاح ؟ لا أذكر هل صاح بفمه ، ولكني رأيت عينيه تصيحان صيحة هائلة . رأيتهما جيداً . زرقاوان كبيرتان . ورأيت شاربيه . كان له شاربان طويلان مشوّشان، ورأيت جبينه وخدّيه . لا أقدر أن أنسى ! لا أقدر ! وجهه في تلك الثانية من الدهر لا أقدر أن أنساه . عيناه الفارغتان من كل شيء ، المملوءتان بألف شيء وشيء ، لن أنساهما . أقول لك سمعت عينيه تدعواني وتلحّان عليّ ، فلم أستطع المقاومة ... أجل هما عيناه . ولولاهما لما حدث شيء ... كان ذلك أقوى مني ، أقوى مني ! فلم يكن بدّ ولا مهرب ...

وأمسك سامي وجعل يلهث كأنه صعد جبلاً عاتياً . وساد بينه وبين الفتاة سكوت . ثم قال وهو ينظر جانباً وقد هدأ صوته هدوءاً غريباً :

— وهكذا ، هكذا قتلته .

— لا ! لا !

— رميت جثته في الوادي . يمكنكِ أن تريها ...

وقام فرفع الفراش وأخرج من تحته بندقية وقال :

— لا تنسي أن تأتيني غداً بزيت لأمسحها .

ثم أردف :

— وصار عندي ثوب عسكري تركي قد أحتاج إليه .

وأزاح الفراش وأخرج ثوباً ملطخاً بالدماء...

١٠

ثم قال متعجباً :

— ما لك ساكتة ؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا ؟ إن يدك ترتجف . لماذا ترتجف يدك ؟ انظري إلى يدي أنا ، انظري ... ماذا قلت لي ؟ جاء الدرك وفتّشوا عليّ أيضاً . هه ! مجانين ! إذا قبضوا عليّ وساقوني إلى عاليه فسأقول لهم : قتلت جندياً تركياً وسلبته بندقيته وثوبه . ما رأيك ؟ ألا ينبغي أن أقول لهم كل شيء ؟ أما إذا حكموا عليّ بالإعدام من أجل جمعية انتميت إليها وإمضاء لي وجدوه على بعض المناشير ، وقصائد ... قصائد ! (وعاد إلى ضحكته المرّة) هل يستحقّ الإعدام شاعر ينظم القصائد؟ أنا لو كنت رئيس الديوان العرفي وجاؤوني بواحد اسمه سامي عاصم لقلت له ... أتعلمين ما أقول له ؟ إسمع ، ما اسمك أنت ؟ — سامي عاصم — أنت متّهم بعصيان الدولة العليّة والثورة على السلطان ، أتنكر ؟ — لا . لا أنكر التهمة لأنها فخر لي وشرف .. وهنا يا زينه لا أعلم بالضبط ما يكون موقف رئيس الديوان العرفي لأنني لست الرئيس . ولكنني لو كنتُه لتابعت وقلت : ماذا كنت تعمل يا سامي عاصم لأجل تحرير وطنك من ظلم الأتراك ولأجل استقلال بلادك ؟ — كنت أنظم القصائد ! ! ! ها ها ها ! لماذا لا تضحكين ؟ أليس في هذا ما يُضحك ؟... وكنت أيضاً أُقيم في مغارة اسمها مغارة الحورية ! وأنتظر زادي من فتاة تمشي كل يوم ثلاثين كيلومتراً حاملة على كتفها عشَرة أرطال . ثم يقول سامي عاصم ، أعني أنا : وكان قلبي يخفق خفقاناً حلواً إذ أسمع حفيف أغصان القطلبة على فم المغارة فأعلم أنها هي ... ثم أحني ، أعني أنا دائماً ، أحني رأسي على كتفي هكذا وأقول لرئيس المحكمة : نعم ، لأنني كنت أُحبها ! أليس هذا شيئاً مضحكاً ؟ ماذا ! أتبكين ؟ لا . لا أُريد أن تبكي . أنا لا أقول لك ذلك لتبكي . ولماذا البكاء ؟ ... أتظنّين أنهم يهتدون إليّ ؟ كلا . لن يعرفوا مخبئي . هبيهم استدلّوا عليه ، فهل يتجاسرون على ارتقاء هذه المغارة ؟

أخرج إليهم شاهراً بندقيتي . أنا فوق وهم تحت . تك تك ! تك تك !
أتّخذ من الصخر متراساً . لا تنسَي الزيت والخرقة . خرقة ناعمة لأمسحها بها .
المغارة رطبة لا تدخل إليها الشمس وأنا أخشى عليها الصدأ ... ماذا كنت
أقول لك ؟ أتبكين أيضاً ؟ أُف ! لا تخافي . سأقتلهم إذا جاؤوا إليّ . ولن
ترتجف لي يد ... قلت لك لم أكن متعوداً . يجب أن أترك هذا السجن .
سأنطلق وأقول للناس الذين يموتون في عقر دورهم أو على قارعة الطرق :
« يا ناس ، لماذا تموتون جوعاً ؟ قوموا ! قوموا واقتلوا ظالميكم واحموا الرزق الذي
يغتصبونه منكم . أتخافون أن يقتلوكم ؟ ولكنكم لا تخافون الموت أنتم ، لأنكم
تموتون كل يوم بالمئات ، وتنظرون إلى إخوتكم وآبائكم وأُمهاتكم وأولادكم
يموتون على مشهد منكم ولا تتحركون ، بل أنتم تخافون الحياة ! » أجل أقول
هذا وأقبض ناصية واحدهم ، وأنزع وجهه عن التراب وأُعطيه بندقية . أقول
له « خذ ! » أُعطي كل واحد بندقية مثل هذه ... لم تقولي ما جواب كامل
أفندي لجدّك . كان ينبغي أن أرى هذا الجاويش بنفسي ، لأنني في حاجة
إلى سلاح ، في حاجة إلى بنادق أُخرى . عشرين ، ثلاثين ، مئة بندقية ،
ألف بندقية ! ألا ترَين أنه يوافقني على تهريب السلاح من الثكنة ؟ أمّا هو
قادر على تهريبه ؟ ألا يبيع رفاقه بنادقهم كل يوم ببضعة أرغفة من الخبز ؟
وإذا كان عربياً ويكره الأتراك فلن يكون لديه أشهى من طلبي . إذا أراد
مالاً أُعطيه . أنزل إلى بيروت وأرهن بيتي أو أبيعه وأحمل ثمنه إليه . كل
مارتينة بليرة ذهبية . وأدعوه إلى السير معي . أقول له : « هيّا هيّا لنعلن
الثورة على الأتراك أعدائي وأعدائك ! » آه ! الثورة ، الثورة ! لو أن هذا
الشعب يثور ! لو تعرفين الثورة ما أجملها ، ما أروعها !... ألا تظنّين أنه
يأتي ؟ يفرّ مثل هذا الجندي الذي فرّ اليوم ومرّ تحت مغارتي . أنا أُقنعه .
أنا أكفل لك أنه يأتي . ونطيح في الجبال والأودية مثل سائر الطيّاح . لا نقطع
الطرق بل نقتل الأتراك ، نهجم عليهم في الليل ونفتك بهم وننهب أسلحتهم
وأرزاقهم ... ونمشي في البلاد من قرية إلى قرية ونسلّح الناس بما ننهب .
سأقول له . سأذهب وأُقابله . سأذهب !

وهزّ زينه من كتفها .

ــ متى يأتي إلى الدكان ؟

ــ . . .

ــ ما لكِ ؟ متى يأتي كامل أفندي إلى الدكان ؟

كان يتكلم بحماسة متوقدة ، وما يفتأ يهزّها هزاً عنيفاً وهي تُصغي إليه ، فلا تدري أيحق لها أن تحبه أم يجب عليها أن تهابه . وأرادت أن تغضب لحبّها وتصيح : « وأنا ؟ وأنا ، ماذا تفعل بي ؟ » فلم تُطعها شفتاها وأطرقت تقول :

ــ لا أعلم ... لا أعلم .

ــ أنا أعلم . أنتِ قلت لي إنه يأتي كل مساء . لا تَدَعوه يخرج قبل أن أجيء .

فانتفضت زينه :

ــ أتريد أن ترمي نفسك بين أيدي العسكر ؟ قلت لك إنهم يبحثون عنك .

ــ لن يرجعوا إلا بعد أُسبوع كما فعلوا في المرّات السابقة . يجب أن أُقابله .

ــ سامي ...

ــ قولي لجدّك لا يدعه يذهب قبل أن أصل أنا .

ــ سامي ! سامي !...

ــ ماذا ! أعدتِ إلى البكاء ؟

ــ لماذا تعذّبني هكذا ؟

وغطّت وجهها بيديها وأجهشت .

ــ زينه ، زينه ! ارفعي وجهك إليّ . أُحب أن أتملّى من هاتين العينين . أنت تعلمين ، لم يبقَ لي حياة في هذه المغارة . ألم تقرئي الرسالة التي حملتها إليّ البارحة ؟ يجب أن نفترق . سأذهب كما قلت لك إلى كسروان ، إلى دير من الأديرة سأدلّك عليه فيما بعد ، حيث أجتمع برفاقي لأمر خطير . وسيوافينا إلى كسروان نعّوم لبكي صديقي وصديق جدّك . هو اليوم مختبئ في مغارة مثل هذه في ناحية صنّين . ولقد أحببت ألاّ أُطلعك على جزء من تلك

الرسالة لأنني لم أكن عازماً بعد على المضيّ فيما يحتويه . أما الآن فيجب أن أمضي . سنجتمع ونعلن الثورة يا زينه . أتفهمين حرصي على مقابلة الجاويش؟ يقولون لي في الرسالة : إن عليك تدبير مئة بندقية بواسطة أحد الجنود . كامل أفندي فرصة يجب أن لا تفوتنا . مَن يدري؟ ربّما خرج على الأتراك فحاربهم معنـا ...

ـ وإذا افتُضح أمرك وأمره ؟

ـ لا تخافي . إذا اتفقنا أحكمنا الخطة واتخذنا الحيطة . الجماعة ينتظرونني يوم الأحد، ونحن في الخميس . يجب أن أراه غداً . ما من ذلك بدّ . وبعد غد أُغادر ساقية المسك تحت ستار الليل . قولي لجدّك « سامي قادم إلينا بعد غروب الشمس لمقابلة كامل أفندي » . فليحبسه إلى السهرة بحيلة . تعالي قبل ذلك وأخبريني . سأنتظرك ، أسامعة ؟ أنتظرك . تصوّري يا زينه ثورتنا ظافرة، والأتراك منهزمين من هذه البلاد يأخذون معهم الجوع والأمراض والمشانق ، وتتوارى عنّا إلى الأبد جزماتهم ووجوههم ... غداً بعد غروب الشمس ، قولي لي « اي » ... يجب أن ننتصر أو نموت ! لدينا الآن ثلاثمئة رجل . ولا يمضي أُسبوع حتى نصير ثلاثة آلاف .

وسكت طويلاً .

ـ زينه ، زينه ! تأتين بعدي إلى هنا وتقولين « كان الأخ حنانيا في مغارة الحورية » . وتتذكرين هذه الجبّة وهذه اللحية . « هنا كان ينام ، هنا كان يأكل » ... وتصلّين لي ... سأذكرك أنا مهما كنت بعيداً . ستكونين في قلبي . سأذكرك تحت الرصاص أو تحت حبل المشنقة . ولن أنسى زينه التي كانت تزورني كل يوم وتحمل إليّ رغيفين وبرتقالات قطعتها عن فمها . لن أنسى ، وحياتك يا زينه لن أنسى . ذخيرة عودة الصليب التي أعطيتني إياها لن تفارق صدري . أنا اؤمن بها لأنك أنت تؤمنين . سأتناولها صباح مساء وأنظر إليها فأراك تخيطين ثوبها ثم تعلّقينها في عنقي بيدك ، وتمهّدين مخبأها ، ويخفق قلبي لك كما خفق حينما أقمتِها حارساً عليّ .

كان سامي يقول ذلك وزينه تمدّ كفّها وتشدّ على الذخيرة وعلى صدره بكل ما فيها من قوة . حتّى إذا سكت ، رفعت وجهها ببطء ولبثت ناظرة إليه ، فخُيّل إليها أن عينيه تغرورقان ، ثم اغرورقت عيناها ، فانتصبت بينهما ضبابة كثيفة حتّى لم يعد أحدهما يرى صاحبه .

ثم أهوى بعضهما على بعض في عناق عظيم ...

١١

دخلت زينه هذه المرة من الدكان لترى هل كامل أفندي فيه ، فلم تجد غير خالتها منتحية إلى رجل هزيل ، مجدور الوجه ، في طقم إفرنجي ، مع نظارتين على أرنبة أنفه . وشدّ ما كانت دهشتها حينما وضعت سلّتها وأكملت طريقها دون أن تدعوها خالتها إلى مجالسة الرجل . فقد كانت ورده تنتظرها كل مساء لتستدرّ من الزبائن مالهم على وجهها الصبيح ، فتجاريها الفتاة يوماً وتعصي أياماً . ولكن ورده لم تشعر هذه الليلة بوصولها ، وكأنها تبرّمت بها فقطعت الحديث بينها وبين خليل المعلاّ فور ظهورها على العتبة ، ولم يحفل بها هو واكتفى بإلقاء نظرة عليها ثم تلهّى بتنظيف نظارتيه .

لم يكن أشهى من ذلك على قلب زينه، فقصدت إلى جدّها في غرفتهما المشتركة ، وبادرته بالسؤال عن كامل أفندي ، فأخبرها أن الضابط راسم بك أمر بحبسه وأن الجنود يعلّلون ذلك بأن مخبراً أخبره أن كامل أفندي سبّه فأنزل به ذلك عقاباً له . فكانت صدمة عظيمة لآمال زينه ، فذهبت إلى فراشها وألقت عليه جسماً منهوكاً وغماً لا حدّ له .

١٢

كان راسم بك ساكناً بيتاً من بيوت بحرصاف ، على مشية عشر دقائق من ساقية المسك . رجل أشرف على الخمسين ، طويل القامة ، متصلّب كالعمود ، له شاربان كفّتا ميزان ، وحاجبان معقوفان ، وكتف تنخفض عن الثانية ، وبجزمة لها مهماز له وسوسة مخيفة . وكان راسم بك قائد الكتيبة التي احتلّت تلك المنطقة ، له الأمر المطاع لا على العسكر فقط بل على الأهلين جميعاً وما يملكون .

وكانت ورده كسّار تفخر على الناس بأن الضابط صديقها وصديق ابنها طام . ولهذه الصداقة حكاية ترجع إلى نحو من شهر . ذلك أن راسم بك مرّ ذات صباح أمام الدكان فرأى فيه الجاويش كامل أفندي والجاويش محمد أفندي ، فدخل يداعبهما . فعدّته ورده شرفاً عظيماً وحامت حواليه تحار ماذا تقدّم إليه تودداً واستعطافاً . فضربت بيدها وقرّبت شيئاً قلّب له شفتيه استكباراً فكادت تموت ... لولا أنه أشار إلى طام الواقف في الزاوية أن يدنو منه . فتردّد فوثبت أمه تجرّه إليه ، فرفعه على ذراعيه في الهواء ثم حطّه ثم رفعه ثم حطّه ، والجاويشان وورده يضحكون . وساقه راسم بك إلى بحرصاف . ولم يعد طام إلا بعد ساعة بجيوب ملأى بالزبيب والجوز ، فأجلسته ورده تسأله عمّا قاله الضابط له ، فأجابها أنه خاطبه بالتركية والعربية مخلوطتين فلم يفهم كثيراً ، وأن كل ما يفهمه أن راسم بك لطيف وكريم ، وأنه أعطاه زبيباً وجوزاً ، ووعده بمثل ذلك كلّما زاره .

فكانت لورده فرحة لا تبيعها من أحد، ودخلت من وقتها فأخبرت زينه وأخبرت عمّها أبو سعيد . وفاض سرورها فوضعت لهم ذلك اليوم صحوناً عامرة ونصف رغيف لكل واحد زيادة عن المقنّن ، كأن الزفة قائمة !

ومنذ ذلك اليوم وطام يزور الضابط كل يوم ، فإذا تأخر عن موعده أو

نسي ذكّرته أمه ورددت عليه اللازمة : « قل له أمي تسلّم عليك وترجو منك أن تشرّف دكانها » .

* * *

ولأول مرة في حياته عصى طام جدّه . أرسله ليجمع حشيشاً للصبحا فغافله وترك المنجل على باب المراح وأطلق ساقيه للريح . فقد قضى أمسه دون زبيب وجوز ، فلا أقل من أن يستعجل نصيب يومه . ولكن حادثته مع خليل المعلاّ لم تكن تفارق ذهنه ، فظل طول الطريق يتلفّت وقلبه ينخلع كلّما سمع دعسة، محاذراً أن يلتقيه فيستدرجه بحيلة من حيله إلى أكثر مما استدرجه إليه من سرّ الأخ حنانيا .

على أنه كان يُحسّ براحة ودهشة معاً لعدم إقدام أحد على سؤاله عن شيء . ولو سألوه لأنكر ... ولكن مَن يسأله؟ وماذا قال هو لخليل المعلاّ؟ وإذا كان خليل المعلاّ عرف أن الأخ حنانيا هو الخواجه سامي فقد بقي عليه أن يعرف أين هو . وهو لن يدلّه على دير مار نهرا ولو أعطاه كل بشالك العالم ومجيدياته . وكان الصبي يعتقد أن الأخ حنانيا مختبئ، كما قيل، له في دير مار نهرا ــ حيطة اتّخذها أبو سعيد مع حفيده حين غادر سامي البيت إلى مغارة الخورية .

وصل طام إلى منزل الضابط وهو يفكّر بكل هذا عالياً . فإذا راسم بك على الشرفة يدخّن نارجيلته عابساً مكمدّ اللون . فوقف أمامه يلهث من الركض ، وأراد أن يقفز إلى حضنه ، حسب العادة ، ويفتل له شاربيه فلم يجرؤ وتحوّل عنه منكسراً، فقال راسم بك :

ــ أُطور كرسي ! أُقعد !

وضرب بكفّه على كرسي فقعد الغلام جزءاً من الكرسي لا يتحرك فيه إلا عيناه الدعجاوان يختلسهما إلى صديقه المبرطم، ثم يردّهما على قرقرة مفاجئة أو أحّة صاخبة . ثم نهض الضابط وقذف النربيش على الأرض ، فالتفت طام فإذا جندي مكبّل اليدين يُقبل بين جنديين آخرين واحد عن يمينه وواحد

عن اليسار . وإذا راسم بك يرفع ذقنه ثم يخفضها باصقاً بوجه المأسور بصقة جبّارة . فينفض المهان رأسه ويلتفت الى طام مبتسماً فعابساً عبسة ذات بريق موذٍ ، والقذر ينحدر على شاربيه وأنفه الطويل خيوطاً متمايلة ، ويُكسبه في كلا الابتسام والعبوس سحنة تاعسة . فكاد طام يشهق باسم « كامل أفندي » لأنه كان يعرفه من تردده على الدكان . ولكن صوته اختنق وأخذ يُجيل رأسه بين راسم بك وكامل أفندي وشفتاه تختلجان ولا تطيعانه بكلمة .

وقف الجنديان بالمأسور على العتبة فحلاّ وثاقه . فهمّ بالانحناء ، فأمسكه صاحب يمينه من يأفوخه وأدار له وجهه نحو الضابط ، ولكزه صاحب شماله على خاصرته ، فضمّ كامل أفندي رجليه ورفع يده بالتحية لضابطه . حينئذ انكفأ راسم بك إلى كرسيّه وانحنى كامل أفندي إلى نعليه فنزعهما ووضعهما خلف الباب ودخل إلى البهو ودخل الجنديان ، ولحق بهما الضابط بعد أن أوصى طام بالانتظار خارجاً .

انتظر طام دقيقة ، فإذا في البهو حركة ، فقام إلى الباب يصغي ، فإذا صفقات متوازنة تعقبها أنّات متوازنة تقطّعها شتائم ضخمة . وإذا هذا المزيج المبهم يدوّي في أرجاء البهو الواسع وفي صدر الصبي اللائص بين الباب والشبّاك ليرى شيئاً فما يستطيع . ثم إذا بالصفقات تسكت، ثم تخفت الأنّات وتستطيل وتعمق ، ثم لا تبقى إلا الشتائم وما تلبث هي أيضاً أن تتلاشى ...

وانفتح الباب ، فتعثّر طام بالكرسي في تراجعه إليه . وخرج كامل أفندي بين الجنديين ساحباً على البلاط قدمَين يسيل بين أصابعهما الدم . وأرخى على الباب يداً ضعيفة مشلولة إلى نعليه فأخذهما تحت إبطه . ودفعه صاحباه على الدرج ، وشيّعه الضابط ببصقة أُخرى ، فتململ طام في مكانه يريد أن يلحق بكامل أفندي ، فإذا راسم بك يحضنه ويقعد به مرسلاً لهاثه على شعراته المجعّدة . فأحسّ الغلام هذا اللهاث شوكاً يخز جلدة رأسه ، فقفز وتدحرج على السلّم كالكرة ، وطار كالطير .

ولم يصل إلى الزيتونة العجوز القائمة في منتصف الطريق بين بحرصاف

وساقية المسك حتى لقي كامل أفندي يمشي متثاقلاً عارجاً على الميلين، فأسرع إليه يعرض كتفه عليه ويسأله عن سبب الفلق ويدعو على راسم بك معلناً أنه لن يحبّه بعد اليوم مهما أعطاه من خبز أبيض وجوز وزبيب وحلوى! فاعتمد الجاويش كتف طام وأخذ يسأله بدوره عن سبب صداقة الضابط له، وإلى متى ترجع، وماذا بينهما بعد تفتيل الشاربين ... حتى وصلا إلى الدكان.

١٣

أدخلت ورده الجاويش إلى البيت، وقام أبو سعيد على العناية به ... وحار الشيخ أيفاتحه بمطلب سامي أم لا. يدفعه أن الجاويش مضطهَد لكرهه الأتراك، ويثنيه أنه قد انفتحت العيون عليه من أجل هذا الكره. وكان كامل أفندي يئن حيناً ويشتم الدولة حيناً آخر. ثم نظر من النافذة فرأى الليل فاستأذن وانتحى زاوية من الغرفة وركع يصلّي العشاء.

إن مرأى رجل يصلّي يوحي الاحترام في قلوب الآخرين، فكيف إذا كانوا مؤمنين إيمان أبو سعيد وكان المصلّي ضحية مثل كامل أفندي يرفع إلى خالق السماء ظلامته من أبناء الارض. ولقد بلغ ذلك من نفس الشيخ أن أومأ إلى طام بالانصراف، فذهب إلى الدكان، وخرج هو إلى الشرفة تاركاً الجاويش إلى ربّه. فإذا الصبحا تخور مرة ومرتين وثلاثاً. وما عادتها أن تفعل إلا لأمر، فانحدر إلى المراح فإذا ببابه ... الأخ حنانيا.

— الخواجه سامي!

— هو أنا.

— كيف تخاطر بنفسك والليل لم يُظلم بعد! ادخل إلى المراح.

— جئت لأودّعك يا أبو سعيد. لا بدّ أن زينه أخبرتك. وقد مرّت عليّ هذا الصباح وأخبرتني كذلك بخبر كامل أفندي. فما الفائدة من الانتظار حتى السبت؟ الخير أن أمشي إلى كسروان الليلة.

ـ أُدخل ، ادخل . هو في غرفتي ، فوق .

ـ مَن ؟

ـ كامل أفندي .

وقصّ عليه قصّة الفلق ، فداخل سامي من الفرح ما لم يستطع إخفاءه ، فجعل يفرك كفّيه ملحّاً على الشيخ في مقابلة الجاويش فوراً ، فحاول إبعاده عن هذه المجازفة فقال :

ـ يا أبو سعيد ، ماذا يخاف المظلوم من المظلوم ؟

ثم صعدا معاً ، فوجدا كامل أفندي قد عاد إلى الاستلقاء على الحصير ، وكأنه أحسّ بأنفاس غريبة فأدار وجهاً مصفرّاً وادعاً وقال :

ـ مساء الخير يا محترم . اعذرني إذا لم أقدر على الوقوف .

ـ خذ راحتك يا ابني .

ونظر سامي إلى قدمَي الجاويش الناضجتين ، ثم إلى وجهه المعذّب وأخذ يهزّ رأسه . كانت لكامل أفندي الورّاق هيئة ساذجة : أبرص البشرة ، أزرق العينين ، ليس فيهما لمعان لخبيء البتة . دمشقي ابن شيخ ، نشأ في بيت متديّن وترعرع في جو الكتب الصفراء ، فأخذ منها لفكره وحسّه كل شيء ، وأغلق نوافذ نفسه عن الحياة تاركاً إياها تمرّ بعيدة عنه بملذاتها وحسراتها ، وجمالها وقبحها ، لم يهزّه يوماً شوقٌ كبير ، ولم تقرضه خيبة عظيمة ، ولم يقف مرة مستقرياً عن سبب ، أو متسائلاً عن نتيجة . أليس كل شيء مكتوباً ، والله يجري الأمور ، أولها بحساب وآخرها بحساب ، ما يستقدم منها الإنسان ولا يستأخر .

ـ في شريعة محمد ، صلى الله عليه وسلّم ، لا يجوز هذا يا محترم (وأشار إلى قدميه) أفيجوز في شريعة عيسى عليه السلام ؟ أنت كاهن ، وأنا على يقين أن الكهنة يكرهون الأتراك ولا يشون بكارههم إليهم . « وسيرى الظالمون أيّ منقلب سينقلبون » .

تمشّت في جسد سامي رعشة مؤذية وحلوة معاً ، وامتدّت إلى شفتيه فجعل يقضمهما بأسنانه معلّقاً ناظريه بوجه الجاويش .

ــ أخبرني أبو سعيد بما حلّ بك ... ماذا قلت بحقّ الضابط راسم بك ؟ أصحيح أنك شتمته ؟

ــ والدولة !

فلم يجد سامي ما يقول بعد، وأحسّ برجليه تُدنيانه ، فدنا وجثا بركبة واحدة إلى يمين كامل أفندي وسأله :

ــ هل أنت محموم؟ هات كفّك .

وضغط سامي بسبّابته على كف الجاويش ضغطة قوية . فقابله بالمثل ، وحملق كل منهما بالآخر هنيهة واضطرب كيان سامي . ثم سحب يمناه وألقاه على ساعده الأيسر مظهراً السبّابة والوسطى ومخفياً أخواتهما . فأخذ الآخر يرفع رأسه عن الحصير ، ثم رفع كتفيه فظهره واستوى قاعداً هاتفاً « هاء » فأجابه سامي « لام » وكامل « الف » وسامي « لام » ، وهجم أحدهما على الآخر يتعانقان .

تلك الإشارات والحروف هي علامة التعارف بين أعضاء «الجمعية القحطانية» ، إحدى الجمعيات السرّية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت في معظم الأقطار الناطقة بالضاد وبين ضباط الجيش وجنوده العرب خاصة ، يدبّرون في الخفاء معدّات الثورة، ويهيّئون يوم الانتقاض على الدولة .

. . . .

وفي ساعة متأخرة خرج من بيت كسّار شبحان فوقفا أمام المراح متواجهين . كان الظلام ناعماً ، والنجوم ترتعش في الجلد الفسيح ارتعاش الآمال الجديدة، والصمت يشمل الأنحاء إلا هيمنة نسيم نديّ بارد . ثم امتدّت كف أحدهما إلى كف الآخر فتصافحا بقوة ، وسمعهما الليل وحده يتعاهدان :

ــ إلى غد !

ــ إلى غد !

وافترقا ، فذهب ذو الثوب العسكري في الطريق وانسلّ ذو الجبّة في الوادي .

البذار

١

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي أحاط بمغارة الحورية أربعة من الدرك وجنديان تركيان على رأسهم الضابط راسم بك ودهموا سامي عاصم نائماً، فكبّلوا يديه ولكزه قائدهم بجزمته صائحاً :

— قم دلّنا على كل ما تخبئ .

فانتصب سامي بجبّته فرفع الضابط كفّه بالمسدس وأهوى على صدغه :

— خذ يا أخ حنانيا !

فأدماه ، وقهقه الآخرون . فضرب بيديه المكبّلتين وقذف راسم بك بقوله:

— جبان !

فكان الجواب ضربة أخرى على رأسه ، فصبغ الدم حاجبه وتشعّب على خدّه حاراً . ونصر الجنود قائدهم متألّبين على الفريسة حذفاً بأعقاب البنادق وبالشتائم . ثم انصرفوا ينقّبون ، يلتقطون من هنا ورقة ، ومن هنا خرقة ، ومن هناك علبة كبريت فارغة . وسامي ينظر إليهم لا يفكر بشيء ولا يحسّ بشيء . حتى اهتدوا إلى البندقية ملفوفة بالثوب العسكري المبقّع بالجساد فوثب الضابط إلى الثوب :

— من أين هذا ؟

ونظر الجنود بعضهم إلى بعضهم يغمغمون :

— ثوب عسكري !

ـ عسكري تركي !

ـ وبندقية أيضاً ؟ !.

ـ من أين هذا ، أقول لك ؟ ودمٌ عليه ! ألعلّك قتلته ؟

ـ لقد أكملتَ ما بدأ به جنودك . انتهت إفادتي .

فوقف راسم بك مفرّجاً بين رجليه ورفع مسدسه مشيراً بالهجوم ، فعادوا إلى سامي بكل ما ملكت أيديهم وألسنتهم ، ثم وضع فوهة مسدسه إلى رأس الأسير يطرقه بصخرة ناتئة . وإنه لماضٍ في ذلك إذ حانت التفاتة منه إلى شقّ في الصخرة مسدود ، فرفع يده ، فرفع الجلادون أيديهم وتوجهوا بعيونهم جميعاً إلى ذلك الشقّ وقد ظنوا فيه الوثيقة الكبرى والمؤامرة العظمى . وجعلوا ينزعون ورقة بعد خرقة وخرقة إثر ورقة ، ويمدون بروؤس بنادقهم حيناً ، ويشكلون عن زنودهم حيناً آخر ، يتناوبون ويتعاونون ، والسرّ الهائل يأبى إلا الاستعصاء والاستخفاء . حتى ضاق القائد ذرعاً فأزاحهم وأرسل ساعده عارياً في الشقّ مكشراً عن أسنانه ، وهم من ورائه منحنون عليه ، يشدّون ... يُرخون ... وأمسكت أصابعه بشيء فالتفت إليهم بعينَي البشرى ، فحبسوا أنفاسهم .

هذه المرة تلقّى سامي حملتهم بلذة غريبة . فقد كان في الشقّ نعلاه القديمتان أخفاهما فيه وطال العهد عليهما فتكمّشتا وأكلهما الفساد .

* * *

اقتاده في طريق بيروت ثلاثة فرسان مشياً على قدميه ، مربوطاً بزنجير إلى سرج من سروج خيلهم . وكان قد نهكه ما ناله منهم في المغارة فلم يلبث أن خانته قواه فاستسلم ، يجذبه الحصان ويُدلي به في طلوع الطريق ونزوله ، فتنخلع يداه شداً لتهويا بعد ذلك بقيده الحديدي الثقيل هوياً يحسّ أن كتفيه ذاهبتان معه . فإن شكا ألوى عليه الفارس بالسوط وهمز مطيّته ، فتجتمع عليه ضروب من العذاب ، من اضطرار إلى الركض ، واتّقاء للسنابك ، وتعرّض للحصى المتنافر . أرسل الشكوى الأولى احتجاجاً ، والثانية عفواً ، ثم ختم على فمه حتى وصلوا به إلى إنطلياس ، فقعدوا في حانة يشربون الخمر ، وأذنوا

للخادم فقرّب إليه السطل الذي سقى به الخيل ، فعبّ منه ، ثم أدخل وجهه فيه وأخرجه سعيداً ببرودة الماء ، وهم يشيرون إلى لحيته المبتلّة المتساقطة ويقهقهون.

وعرّجوا به على « الجديدة » ، المركز اللبناني الأخير قبل بيروت ، وكان بانتظاره ثلاثة آخرون فتسلّموه وتولّوا أمره حتى الولاية حيث زجّوه في أحد الأقبية مع كثيرين من أمثاله . وكانت الحمّى قد دبّت في أعضائه فاستلقى على الحضيض كالقتيل .

ولم يدرِ متى ولا كيف نقلوه ، ولكنه صحا ، إذ صحا ، نشيطاً على نور نهار جميل ، وكلام ، وقرقعة آلات ... ففرك عينيه فإذا هو في القطار على محطة « عاليه » .

كانت بلدة عاليه قبل الحرب مصيفاً لأغنياء بيروت وأشرافها ، ومقاماً للهو والسرور ، النهار فيها مسرح والليل عيد ، فصارت على عهد الأتراك شؤماً لم تنعق بومة بمثله . أربع سنوات كاملة مرّت على عاليه وكأن عاليه أوقفت الزمان عن دورته في الفلك فهو يزحف بين الأقدام والوحول والسلاسل ، يومه شهر وشهره دهر ... والمحطات في العالم مملوءة بالقلوب الخافقة للقاء الأحبّة ، والوجوه الطلقة ، والثغور المُرنّة بالقبلات . أما محطة عاليه فكان عليها وجوم مخيف ، يروح الجنود بحرابهم اللامعة ويجيئون ، يخفرون المعتقلين وينهرون الناس ، والناس أشباح منتصبة ، شيوخ وأطفال يبسطون أيديهم للحسنة ، ونساء وصبايا في أسمال بالية ، وعيون ملتاعة بارزة ، يعرضن جمالهن برغيف خبز .

وذهب جنديان بسامي إلى بناية كبيرة على بابها حجّاب عابسون ، ودخلا به على ضابط ثخين الرقبة ، مفتوح المنخرَين ، يجلس وراء منضدة عليها أوراق ودواة وقلم في غرفة عارية باردة الجدران .

وبادره الضابط :

— ما اسمك ؟

— سامي عاصم .

— ها ها ! الأخ حنانيا ! أليس كذلك ؟

— ...

لم يكلّف نفسه عناء النظر، فصاح الضابط .

— الى الرقم ٦ !

وخبط على الطاولة ، فأدار سامي وجهه ، وقد رنّ الرقم في أذنه رنيناً منكراً فجعل يفكر طول الطريق فيما عساه أن يكون الرقم ٦ .

٢

أربع غرف ، اثنتان من هنا واثنتان من هنا ، وفي الوسط ممشى معتم في آخره طاولة وراءها هيئة إنسان . أدناه خفيراه ، فسأله الحارس عن اسمه ودوّنه في دفتر أمامه ، ثم ترك القلم وتناول سوطاً من الجلد وقام مشيراً إلى الجنديين ، فتبعاه ، وسامي يسرّح بصره من اليمين ومن الشمال في عيون زائغة ، وأنصاف شوارب ، وأصابع غليظة تطلّ من طاقات مشبّكة في أعلى الأبواب .

— يا أفندي ، يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

وتجاوبت الضحكات من طاقة إلى طاقة . والتفت سامي صوب الدعاء فرأى وجهاً مذعوراً وراء إحدى الطاقات بشاربين نازلين وعينين تهمّان بالبكاء وفم ...

— يا أفندي ، يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

وانطلقت الضحكات أوقح منها من قبل . فاستدار الحارس ، وأقبل يخادع المنادي بابتسامة . فأشرق وجه السجين ومدّ يده على حديد الطاقة ، فانهال السوط عليها ، فتقلّصت وتوارت ، ثم توارى صاحبها . وكأنّ المضروب كان ناسياً فتذكّر ، فصرخ صرخة هائلة .

وتناول الحارس مفتاحاً من حزمة ضخمة يربطها بزنّاره ، وأدخل سامي إلى الغرفة المحاذية لغرفة المضروب ، وفكّ الجنديان وثاقه وأغلقا عليه الباب . وما كادا حتى انبعثت في أنفه رائحة كريهة ... ونظر فرأى شيئاً يتململ في الزاوية وإذا شخص يستوي واقفاً ويقول :

— أمعك شيء للأكل ؟

وكانت عينا سامي قد ألِفتا العتمة ، فإذا هو بمخلوق في قميص وسخ نبتت له لحية طويلة كثّة ، وطال شعره حتّى جعل له رأساً أقرب إلى رأس حيوان . فداخلته من هذه الحجرة ومن ساكنها معاً نفرة واشمئزاز ، وأحسّ أنه لو أقام يومين هنا لمات اختناقاً . وبقي صامتاً لا يجيب سائله . ثم دنا من الطاقة فإذا الوجه المعذّب يعود إلى الظهور على طاقة زندانه المقابل وتعلو الصيحة :

— يا أفندي ، يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

ويأتي الحارس بسوطه ، ويظل السجين مادّاً كفّه على الحديد حتّى تنال نصيبها . فيهمّ سامي فيمسكه رفيقه قائلاً :

— أبله كما تراه وتسمعه ، لا يكفّ عن الدعاء : يا أفندي يا أفندي ! والأفندي يضربه . جاؤونا به أمس فلم يدعنا نذوق طعماً للنوم طول ليلنا .

— هيه ! هيه ! لماذا تضرب هذا المسكين هكذا ؟

فانقلب الحارس إلى سامي عاقداً يديه بالسوط خلف ظهره :

— أعلى بالك ؟ لو لم تكن جديداً لأدّبتك ! ولكنني أُحذّرك : لا تتدخل في ما لا يعنيك .

ومضى . ثم عاد إلى وسط الرواق وهتف :

— ألـ .. قيـ .. روانة !

فضجّ السجناء في زنادينهم . وانفرج الباب وأدخل جنديان حافيان حلةً كبيرة ذات لهب ، فصبّا منها قصعة لسامي وثانية لرفيقه ، وطرحا لهما رغيفين أسودين . أما سامي فنظر وشمّ وصرف وجهه ، فسأله الآخر وهو يزدرد ويلتهم ويتلمّظ :

— ألا تأكل ؟

— لا .

فقرّب القصعة والرغيف إليه .

— دائماً هكذا ، الجديد في السجن لا يأكل في اليوم الأول . ستتعوّد .

وأدخل يده . فإذا الباب يخبط ، وإذا الحارس ينشب يديه في لقمة بين أسنان السجين ، ثم يرفسه ويتناول القصعة والرغيف ويخرج محدّجاً سامي بسخرية . فأدرك سامي معنى ذلك كلّه ولم يقل شيئاً . ثم انحنى يسائل رفيقه :

ــ ما اسمك أنت ؟

ــ حنّا الدهّان من « بيت مري » . وأنت ؟

ــ كم مضى عليك هنا ؟

فأشار حنّا الدهّان إلى الجدار وهو يتابع أكله مشغولاً فمه باللقمة عن الكلام والدنيا . فنظر سامي فلم يفهم فأعاد :

ــ قلت لك كم مضى عليك في هذا السجن ؟

ــ أما ترى ؟ انظر إلى الخطوط وعدّها . هذه هي روزناميّ . أحفر على الحيط بظفري خطاً كل يوم .

فجعل سامي يعدّ الخطوط : « ثلاثون ... أربعون ... خمسة وأربعون » ، فقاطعه حنّا الدهّان :

ــ الخطوط العمودية للشهور ! (وبلع لقمة) حسابي المخطوط يصل إلى ثلاثة أشهر وخمسة عشر يوماً . بعد ذلك لم أعدّ . قلت : ما الفائدة من التعب؟

ــ يا أفندي ، يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

فلم يضحكوا لانصرافهم إلى الأكل . ومشى الحارس إلى المستغيث به فضربه أيضاً . ففار الدم في عروق سامي :

ــ ألا تكفّ عن ضرب هذا المسكين ؟

فجاء الحارس صوب سامي هادئاً مطمئناً . والتقت عيون الاثنين من خلال الشبكة الحديدية . وشدّ سامي عليها بأصابعه متحدياً الجلاّد بسلاحه الوحيد، حقده ، يتفجر من عينيه وتختلج به شفتاه . فما كان إلا أن أهوى السوط على كفّه، فما تمالك من الصراخ وسحب أصابعه إلى فمه وقد جرّت الضربة عليها خطاً أحمر لاهباً ... وعاوده إذ ذاك الشعور الذي عذّبه لأول مرة في مغارة الحورية لمّا ضربه معتقلوه دون أن يستطيع عن نفسه دفاعاً ، شعور الإنسان

باحتقار أخيه الإنسان ، حتى ينزع عنه ثوب الإنسانية ويجرّده من كرامتها وعقلها ومحبتها وفضائلها جميعاً ، فما يراه إلا وحشاً وما يتمنى لنفسه إلا أن يكون وحشاً مثله — ولكن حراً — في ميدان يصاوله فيه باليد والرجل ، والظفر والناب ، ولا يغادر أحد منهما صاحبه إلا وقد شفى غليله بالموت وانبطاح جثة على الأرض حجراً من حجارتها الصمّاء ، لا الخير تقدر عليه ولا الشر .

وقعد مُطرقاً. وجعل حنّا الدهّان يقصّ عليه قصته وقصص السجناء. تهمته صورة لنابليون وجدوها في بيته ، وتهمة آخر كتاب من صديق له في أميركا يذكر له فيه الدولة التركية بما لا يرضيها ، وتهمة ثالث أنه سبّ السلطان ... وسامي يصغي حيناً ويشرد حيناً آخر ليفكر بزينه .

ولما اسودّ الليل أغمض جفونه على خيالها ونام .

٣

كانت زينه تتقلّب في فراشها مفتّشة عن وسيلة تصل بها إلى عاليه . فكل ما تدّخره لا يتجاوز البشلكين اختلستهما متليكاً فمتليكاً من تجارتها اليومية . ولقد خطر ببالها أن تفاتح جدّها بالأمر ، لا طمعاً بماله فلا مال عنده ، ولكن عسى أن يستدين ، ثم عدلت عازمة أن تخفي رحلتها عنه . وعنّ لها أيضاً أن تستولي على إجّة طام بحيلة من الحيل فتضمّ ما تحتويه إلى ما تخبئه في ثنايا ثوبها ، فيكفيها المجموع ثمن ما تمسك به الرمق ذهاباً وإياباً . ولو أن خالتها أرسلتها إلى إنطلياس لعملت بالرأي الأخير وانطلقت وراء سامي فور اعتقاله . ولكن ورده انقطعت منذ الحادث عن إيقاظها مع الفجر ، ولا تذكر لها البرتقال ولا الخضار . وأعجب من ذلك أن لهجتها تبدّلت فما تقذفها بلعنة ، ولا تلحّ عليها في مسامرة الزبائن ، ولا تلفظ اسم الأخ حنانيا بخير أو شر ، مع أنه كان حديث الناس في ساقية المسلك وجوارها .

وفجأة لمع في ذهن زينه خاطر لم تتمالك من الارتعاش له ، فجعلت تنظر إلى الباب في الحائط الفاصل بين غرفتها وغرفة خالتها . وكانت ورده قد أغلقت الدكان واستسلمت إلى النوم ، تسمع زينه غطيطها يخترق الجدار متقطعاً بنفخات سكرة ثقيلة . وبالرغم من العتمة السائدة أدارت الفتاة وجهها تطمئن من ناحية جدّها . ثم رفعت لحافها وقامت تتلمّس الشبّاك، ومن الشبّاك إلى المغسلة ، فإلى المقص الذي تركته عليها بعد رفء ثيابها ، فتناولته وضمّت سنّيه برفق، وبسطت يديها من جديد تستهدي . ولم تصل إلى الباب حتى وقفت دونه . خُيِّل إليها أن ورده ستنتبه عليها بل إنها قد نهضت فهي الآن من الجهة الأخرى من الباب ليس إلا أن تفتحه وتطلع في وجهها ! فاضطربت حائرة بين الإقدام والإحجام ، وعضّت إصبعها . وصاح ديك في الليل ، فلم تدرِ أي سحر حمله هذا الصوت الأبحّ إليها فعاودها العزم . فلتقل لها خالتها ما شاءت ولتفعل بها ما طاب لها! فاللعنات وشدّ الشعر واللكمات أشياء تعودتها منها ، فما تبالي بعد .

وفتحت الباب، ولعلّه صرّ بالمزلاج ولم تسمعه . ولكنها سمعت خالتها ما تفتأ تشخر ، ورأتها على ضياءة من القمر تنفذ من الشبّاك، رأتها مكشوفة قد زلق اللحاف عن كفليها الرابيين، وغطّاهما القمر بفضته العمياء . فتابعت تسترق الخطو ، والمقص في يدها تضغطه مع ضغط فكرها ، حتى إذا وصلت وقامت بمهمتها قامت بها برباطة جأش ، وباطمئنان لم تكن تتوقعه قط .

كانت ورده تربط مفتاح صندوق المال بعنقها مبالغة في الحرص . فلمّا استولت عليه زينه انسلّت إلى الدكان ، فلم يكن عليها إلا الاختيار بين الليرات والمجيديات والبشالك ، فكمشت من الصندوق ما وسعت كفّها وصرّته بمنديلها وجعلت الصرّة في صدرها، ثم تساءلت هنيهة ما تصنع بالمفتاح ، ثم تركته مكانه وولّت .

ولم تفطن إلى أنها نسيت طرحتها والرغيف الذي تناولته من المعجن إلا بعد أن بلغت « قرنة شهوان » ، على ساعة من ساقية المسك .

* * *

وصلت إلى عاليه على مساء بارد. وما كادت العربة تدخل بها المدينة حتى أخذها انقباض في صدرها وحلّ محل اللهفة التي رافقتها طول الطريق من ساقية المسك إلى بيروت ومن بيروت إلى هنا. وكان في العربة ثلاثة ركّاب آخرين حاولوا بادئ ذي بدء أن يفتحوا حديثاً بينهم وبينها فصدفت عنهم، وكان جديراً بها ألا تفعل، فقد كان في استطاعتهم أن يعينوها على أمرها في هذه المدينة الغريبة الرهيبة. فحاولت أن تصل ما انقطع من الحديث وتسألهم عن الديوان العرفي، والسجن، ومقابلة السجناء. وهيأت في سرّها الخدعة، تقول هو ابن عمّها أو ابن أُختها. واستأنست بشيخهم ومدّت بفمها إليه، فإذا به يشير إلى السائق بالوقوف وينزل.

استأنفت العربة سيرها فوضعت الراكبَين الباقيين كلاً حيث يقصد، وهي ساكتة تنظر حواليها إلى البنايات الشاهقة وتتفحص وجوه المارّة ويخفق قلبها كلّما لمحت جندياً. ثم شعرت أن الحوزي ينظر إليها شزراً متبرّماً بها بعد أن تقاضاها الأجرة في بيروت قبل أن تضع قدمها في عربته، فشدّ اللجام وألقى سوطه وقال:

— هذه عاليه! (وأردف مستهزئاً) تفضلي.

— هل تعرف أين السجن؟

— أي سجن؟ في عاليه عشرات السجون، والعربة لا تدخل واحداً منها!

فترجّلت منكسرة فناداها وقال:

— إذا كنت آتية لزيارة سجين فسلي عن رشدي بك.

— رشدي بك!

— رئيس التحقيق، رشدي بك. (وابتسم كالمكشّر ثم ضرب بسوطه).

وقفت لا تدري من أين تذهب. رشدي بك! رشدي بك! رئيس التحقيق رشدي بك! أذكت هذه الكلمة فيها أملاً، وبعثت لهفة مشوبة هذه المرة بعذاب الاستيحاش. لو قال لها أين تستطيع أن تراه! لو دلّها على وجهة! ولكن لماذا ضحك؟ ما معنى ضحكته تلك؟ وجعلت ترسم في ذهنها صورة

لرئيس التحقيق ، وتبحث فيها عن سبب ضحكة الحوزي ، فتراه هو الآخر خلال ضباب الظن ضاحكاً فتضاحكه ، ثم تعبس لترجع إلى الضحك . ولو رآها أحد ورأى وجهها في تلك الساعة لما شكّ أن بها مسّاً . ثم ثابت إلى نفسها فإذا هي في سوق ، عن الجانبين دكاكين وناس . فواصلت طوافها تتصفح الوجوه من هنا ومن هناك ... ثم تمتمت : « ما اسمه ؟ هل نسيت ؟ راشد ... راشد بك ... بل رشدي بك . رشدي بك ! » وردّدت ذلك مراراً .

وجازت بها فقيرة بثياب ممزقة ، على ذراعها طفل مطمول الوجه بالدمع والقذر ، فأسرعت إليها وتصدّقت عليها بمتليك .

— يا خالتي أتعرفين رشدي بك ؟

— مَن ؟

— رشدي بك رئيس التحقيق في الديوان العرفي .

— لا . لا يا ست، سلي في الدكاكين . الله يوفّقك وينجّي مَن لك !

واستأنفت زينه سيرها ، تهمّ بالدخول إلى دكان ثم تغادره إلى التالي . حتى رأت خبزاً في واجهة فدخلت وابتاعت رغيفاً ، على غير شهوة منها إلى الأكل ، وطرحت على البائع سؤالها ، فقال :

— ألكِ أحد في السجن ؟

— سامي عاصم .

— سامي عاصم ؟

— شاب طويل أسمر جاؤوا به من ساقية المسك منذ ثلاثة أيام .

— كلّهم شبان مثل الرماح يا بنتي . من أين لي أن أعرفه ؟ أجل ، الأمر بيد رئيس التحقيق .

— دلّني على بيته .

— أدلّك على مكتبه . في البناية المجاورة للمحكمة ، في أول عاليه . عليك أن ترجعي من هنا .

وكان يريد أن يكمل ولكنها أدارت ظهرها مسرعة .

« كأن رشدي بك ينتظرها على موعد ! » ... وهزّ الرجل كتفيه .

٤

استوقفت زينه في طريقها عجوزاً، فرفعت العجوز وجهها المسنون وهتفت بها:

— صبيّة مثلك تحار كيف تقابل رشدي باك؟ (ولفتّها بنظرة من رأسها إلى أخمص قدميها). ولكن اذهبي والبسي غير هذا الفسطان.

وتابعت سيرها، فحدّجتها زينه بغضب، وتذكرت ضحكة الحوزي ... وخطت عشر خطوات أُخرى، فرُفع لها عن بعد جنود منتصبون، فلم تشكّ أنه الديوان العرفي لما وصفوا لها من أشكاله. بنايتان كبيرتان متقاربتان، على باب كل منهما حجّاب يحملون بنادق على رؤوسها حراب، وللبنايتين فناء مشترك إلى الشارع فيه ضباط بقلابق سوداء وبيضاء، وأزرار لماعة، وطماقات طويلة ومهامز، متجمعون حلقات، يتحادثون بأصوات عالية. فجعلت تدنو متفرّسة بوجوههم مهتمة لحركاتهم، والحجّاب لا يحيدون رأساً ولا ينبسون بكلمة. فأقبلت على واحد منهم فلم يلتفت، فظنّته لا يحفل بها فإذا هو يصوّب حربته إليها ويصيح:

— يساق ... تشابوك!

فأجفلت وعثرت وأوشكت أن تقع. وأرادت أن تجوزه مواصلة سيرها، فهددها مرة أخرى، فانقلبت إلى السوق منكسرة، ودخلت إلى الدكان الذي ابتاعت منه رغيفاً وطلبت صحن فول. وقصدت إلى زاوية فوجدت الطاولة فيها مشغولة فقعدت في الزاوية المقابلة.

وكان صاحب الزاوية الأولى يأكل بنهم عجيب، يهبط مع الملعقة ويصعد بحركة متوازنة موقّعة على خفق لسانه بعد كل لعقة. فراقها ذلك منه فجعلت تنظر إليه، وهو مُدبِر، لا ترى إلا قذاله وطرفَي نظارتيه وظهره الصاعد الهابط، حتى إذا فرغ من حسائه دقّ بالملعقة على الصحن واستدار، فالتقت عيناه عينيها.

— ألخواجه خليل المعلاّ!

وقامت إليه . كانت قد رأته في دكان خالتها مرّتين، الأولى عند عودتها من مغارة الحورية ، والثانية في اليوم التالي وقد شرب نخبها وظل يسامر خالتها إلى منتصف الليل . وخالجها سرور كبير بلقائه ، وأغرتها بشاشته وحفاوته ، فمضت تُفضي إليه بكل ما في قلبها وهو يصغي أحسن إصغاء ويربّت على كتفها ويهوّن عليها ، ويؤكد لها أنه يعرف رشدي بلك شخصياً وأن له عليه دالّة الصديق . وزاد فتحنّن على سامي وقال :

— سأوصي رشدي بلك به .

ونهض من فوره ، على أن تنتظره حيث هي نصف ساعة على الأكثر . ولكنه لم تختفِ رجلاه حتى أطل رأسه على باب الدكان يشير إليها بإصبعه ، فدنت فأسرّ في أذنها وهأهأ ، فأدخلت يدها في صدرها وفتحت الصرّة . فلم يصدّق نظارتيه فأزاحهما وحملق :

— إياكِ والنشالين ! ادخلي . ادخلي . إن أولاد الحرام كثيرون .

واختليا في زاويته . فتناول من الصرّة ليرة ذهبية وأربعة بشالك وخرج .

صدق خليل المعلاّ في ميعاده حتى الكذب ، فلم يغب أكثر من عشرين دقيقة فهبّت زينه إلى لقائه :

— ماذا ؟

— أقعدي ، ولنأكل معاً برتقالة .

وجعل يقصّ عليها أن رئيس التحقيق وعده بإنقاذ سامي عاصم مهما كلّفه الأمر ، وأنه مطّلع على ما بينه وبينها من مذكرات السجين التي ضُبطت في مغارة الحورية ، وأنه كان ينتظر أن تأتي إلى عاليه ليقابلها ويستوضح منها بعض ما يحتاج إليه للأخذ بناصر الأخ حنانيا (ولم ينسّ خليل المعلاّ هأهأته إذ تلفّظ بهذا الاسم) وأنه سيأذن لها بزيارته كل يوم إذا شاءت ، ولكنه الآن مشغول كثيراً ، وقد أمست الدنيا ، فهو ينتظرها صباح غد في بيته .

— الساعة السابعة تماماً ، لا تنسي .

وأضاف :

ـ حبّذا لو أستطيع مرافقتك! ولكني لن أكون في عاليه. تعالي أدلّك على بيته.

وقادها إلى طرف المدينة وأشار إلى قصر فخم. وقبل أن يفترقا قال:

ـ أوصيك باللطف. لا تعبسي هكذا. ألا تريدين أن تخلّصي سامي؟ إضحكي. رشدي بك يحب الضحك. هُ هُ هُ...

وكان على زينه أن تجد مبيتاً لها فأرشدها إلى نزل فقير وسلّمها إلى صاحبته: امرأة مترهّلة، عوراء، لا تفتأ تضحك. أخذتها من يدها وأدخلتها إلى «أحسن غرفة عندها»، فاستلقت الفتاة على سرير مخلّع، عليه لحاف وسخ ومخدة مبقورة... المرة الثانية تنام فيها خارج بيتها، وكانت الأولى في بيروت على باب الخان. غير أن وحشتها هذه الليلة أوجع منها البارحة، حتى لقد ساورها شيء هو الندم، ولكنها لم تشأ أن تسمّيه باسمه، على قيامها بهذه المغامرة... وأحسّت بذلك الشيء ملء الغرفة المعتمة الباردة الحقيرة. فإذا طردته حلّ محله شيء آخر هو الشك في خليل المعلاّ، ولكنها لم تشأ كذلك أن تسمّيه باسمه، مع أنه يعذبها ويقضّ مضجعها فتبعده مخادعة نفسها عنه، محوّلة غضبها إلى البق السارح من السرير إلى عنقها وذراعيها ورجليها، تطارده نفضاً ومعساً ولعناً.

٥

ضحكة الحوزي، واستهزاءة العجوز، ووصية خليل المعلاّ... ولكن هل أحد يأكل أحداً؟ ثم ليست هي باللقمة الهيّنة! وهزّت برأسها. ماذا يريد منها؟ يمدّ إليها يده؟ تكسرها له! تبصق في وجهه كما فعلت بالجاويش محمد أفندي الذي تجرأ عليها خلف الستارة في دكان خالتها قبل أُسبوع. ستبقى على العتبة بعيدة عنه وتقول له ما تقول...

في الواقع ماذا تقول له؟ كيف تبادئه الحديث؟

كانت زينه تلوك هذه الأفكار مرة أخيرة وهي واقفة أمام منزل رشدي بك عند بوابة الحديقة تنتظر أن تحمي الشمس لتدخل ، فقد أتت مبكرة جداً . ثم دنت تتلصص من خلال القضبان الحديدية، فإذا سيدة تنزل السلّم رافعة بيدها طرف ثوبها الفضفاض ، فارتدّت زينه إلى الجدار مستخفية . فرمقتها السيدة بعينين مكحولتين حتّى الأذنين وقلبت شفتها ومشت . فأنشأت زينه تقلّدها تحدياً وازدراء . ثم انكفأت فدخلت رابطة الجأش ، فإذا هي بعياط وضوضاء . فأخذها فضول غريب لمعرفة ما يجري ، ونسيت ما جاءت من أجله فجعلت تقدّم رجلاً فرجلاً وتحتمي بشجرة بعد شجرة ... الكلام بالتركية ، جدال عنيف وشتائم ولبط جزمات . حينئذ ثاب إليها شعورها بحقيقة حالها وأحسّت بحاجة إلى الهرب من هذا المكان . وكأن قدميها لصقتا بتراب الجنينة ، تشدّ بهما إلى البوابة فلا تطيعان . ثم رأت ضابطاً ضخماً — هذا رشدي بك ! — ينهب السلّم نهباً ويهدد السماء بسوط يحمله ، وخلفه ضابط آخر يكاد يعثر على كل درجة . فتحاشتهما حتّى جاوزاها ، فانسلّت إلى الشارع ، وظلت تركض وراءهما كالبلهاء حتّى وصلا إلى مركز المحكمة ، فوقفت دون الخفراء لاهثة . ولبثت مكانها دقائق طويلة ، على يقينها بأن رشدي بك لو طلع لها لما تجاسرت على الدنوّ منه . ثم أحسّت بيد على ثوبها وانتصب لها صبي وقال :

— تعالي كلّمي أمي .

قادها الصبي إلى الطبقة السفلى من بناية الديوان العرفي . مطبخ كبير ، وامرأة في الأربعين ذات رشاقة وزلاقة وحركات ذكّرتها خالتها ورده . كانت تلك المرأة متعهدة طعام السجناء ، ولها من أجل ذلك صلة بالضباط ، برئيس التحقيق خاصة ، تساوم أهل السجناء على الحصول لهم على الأذون ، ويسهّل رشدي بك مهمتها لأمور كثيرة، إذا كان التجسّس على الزائرين أعظمها شأناً في نظر الدولة ، فليس ألذّها في نظره هو حينما يخلو إلى عبثه كل مساء ...

انتهت المساومة بين زينه وبينها على مجيدي قبضته منها وصعدت إلى الطابق الثاني . ولكنها لمّا رجعت بالإذن بعد خمس دقائق لم تسلّمه إليها إلا ببشلك للصبي ليوصلها إلى السجن .

٦

كان السجن الذي فيه سامي يبعد بضع مئات من الأمتار . ولكن زينه وجدتها فرسخاً، فلمّا أشار الصبي أن « هذا ! » ارتعدت فرائصها . وتناول أحد الخفيرَين المنتصبين على الباب الورقة من يدها فنظر فيها ، ثم دخل إلى الحارس فأراه إياها ، فقام الحارس إلى الفتاة يجسّها من هنا ومن هناك. وهي تتفلّت من يديه الوقحتين ، حتى إذا وصل إلى صدرها أجفلت ، فصاح بها ، فأخرجت الصرّة :

— أنا أُريك إياها .

فلمّا بصر بالمجيديات انبسطت أساريره على غبطة لا حدّ لها . ومشى أمامها إلى غرفة سامي وفتح بابها وصاح به :

— « هيه ! هيه ! » .

— سامي !

ولم تستطع أن تزيد فالتوت شفتاها بالبكاء ، فحدّجها الحارس وخرج .

— جئتِ إلى هنا يا زينه !

لقد بدّله السجن ، على قلة هذه الأيام التي قضاها فيه ، تبديلاً . خبا لمعان عينيه وغشيتهما ضبابة باهتة مخيفة ، وكأن جبينه الواسع العالي قد ضاق وانخفض ، وامتقع لون شفتيه وارتخت سفلاهما وترهّلت . ولم يقتصر هذا التبديل على هيئته بل شعرت زينه أنه نال من نفسه أيضاً ، وأحسّت لذلك بألم قبض قلبها بسنّين محددتين . وزادها جو هذه الغرفة . عارية ليس فيها من متاع الدنيا إلا حصير عتيق قذر وإحرام ممزق ، وقد رسمت الرطوبة على حيطانها أشكالاً بشعة وانبعثت منها العفونة . معتمة لا ينفذ إليها النور إلا من طاقة مشبّكة تحت السقف نسجت عليها العنكبوت خيوطها ، إمعاناً في البخل على السجين بالنهار وشمسه .

— كنت كالمجنونة لمّا علمت . ساقية المسك كلّها تقول إنهم ضربوك .

رحت إلى المغارة في المساء أدور فيها . ظننتك ذهبت إلى كسروان دون أن تخبرني . وأخذتُ أبحث في المغارة عن شيء ، عن ورقة تتركها لي ، عن علامة . ولما عدت إلى البيت أخبرني جدّي، ودمعت عيناه ، وبكى طام معنا . هل عرفوا بحادثتك مع العسكري ؟ لا تقرّ لهم ، إياك أن تقرّ بها !

— هس ! هس !

ونظر صوب الباب . فخفضت صوتها :

— أنا أخبرت جدّي . لم أدرِ مَن أخبر كامل أفندي أيضاً . لو ترى جزعه لوقوعك في يد الديوان العرفي ! جدّي يوصيك : لا تقرّ !

فابتسم السجين هادئاً ، فقالت :

— هل أقررت ؟

— يجب أن يغفر لي جدّك كل ما سبّبته له يا زينه . أما أنت فستغفرين . أنا واثق أنك تغفرين .

— ماذا تقول ؟ وبماذا أسأت إلينا ؟

— اسكتي ! الجدران هنا لها آذان يا زينه . أخاف أن يظنوا بك .

— الحارس على مكتبه (ونظرت من الباب) يقلّب هدية صغيرة حملتها لك... ولك أيضاً هدية من جدّي . خذ .

وأرادت أن تدسّ له الصرّة .

— ما هذا ؟

— خبزها . جدّي يعلم أن طعام السجن لا يكفي .

فرفض شامخاً :

— أنتم في حاجة أكثر مني .

وباعدها عن الموضوع ، يسألها كيف تركها جدّها تأتي وحدها إلى عاليه ، ويسألها عن كامل أفندي ، وعن طام ، وعن خالتها ... فإذا :

— يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

فأدارت زينه وجهها وقد فاجأها هذا الصوت المذعور الأبحّ يشقّ فضاء السجن . فقال سامي :

— أبله يظن أنه إذا نادى بحياة السلطان عفوا عنه . ولو رحموا لاكتفوا ببلاهته وأطلقوا سراحه . سيسكت الساعة . لقد دخل الحارس بسوطه ليجلده به حتى يُغمى عليه ... فإذا عاد إلى وعيه عاد إلى الصراخ : بادي شاهم ! إن منظر هذا المسكين يؤلمني أكثر مما يؤلمني سجني . أنام وصوته في أذني : بادشاهم ...

— بادي شاهم ،جوق يا شاه ! يا أفندي يا أفندي ! آه آآآ ...

— أتسمعين ؟.. ها ، سكت .

أنصتت زينه مضطربة . ثم نظرت إلى سامي وقالت :

— حلمت حلماً هذا الصباح . كنت بين النائمة والصاحية . حلم غريب هائل . رأيتُني في أرض واسعة ، سهل كبير ، كبير لاحدود له ، لا جبال ولا أودية ولا سواقي ... رمل على مدّ النظر وشمس تكوي كياً . وأنا أمشي في السهل وتغرق رجلاي في الرمل . أمشي ، أمشي ثم استكفّ فلا أرى شيئاً ، والشمس تصبّ على رأسي . ثم عطشت وجفّ لساني فالتصق بحنكي . أُحاول أن أصيح : عطشانة عطشانة ! فيختنق صوتي ... وكنت أسمع خلفي أصواتاً وشيئاً يقول لي : التفتي خلفك فربّما كان مع أصحاب هذه الأصوات ماء . ولكنني لم أتجرأ على ذلك . أياماً وليالي الله يعلم عددها مشيت حافية حتى تشققت قدماي وسال منهما الدم . فإذا برجل يتداركني بقُربته ، فأشرب فينصبّ الماء على لساني مراً كالصبر ، ولكنه لا يصل إلى حلقي حتى يصير كالشهد وأحلى . فأردت أن أشرب أيضاً فناديت الرجل فابتعد عني وهو يبتسم حتى توارى . ثم لاح لي في الأفق مثل الضباب يتحرك صوبي وينتشر حتى حجب السماء . ثم إذا هنالك مثل النقاط تتململ تحت الضباب ، وإذا هذه النقاط خرفان لا عدّ لها ، قطيع عرض السهل ، متزاحم متراصّ ، يقفز في ركضه قفزاً كما لم أرَ في حياتي خرفاناً تركض قط . وأنا أتقدم وقلبي يهبط

في صدري ويعلو . فإذا ذئب يحكّ بي ويمرق كالسهم ، فالتفت خلفي فرأيت ذئاباً كثيرة ، كثيرة عرض السهل ، تهجم مكشرة عن أنيابها وعواؤها يملأ الجو . وأنا أركض دائماً وأقع وأقوم ، ثم أركض ، أركض ... وإذا بي أسقط هذه المرة عاجزة عن النهوض وأعضّ الأرض . أحملق مذعورة بالذئاب الهاجمة والتمس مهرباً ولات مهرب ! فأُدخل رأسي بين كفيّ وأُغمض أجفاني على أفظع ميتة . فإذا صوت يناديني باسمي «زينه ! زينه ! » ألا أزال في قيد الحياة ؟ فرفعت وجهي فرأيت الذي يناديني خروفاً يتكلم بلغة الإنسان ! ونظرت إلى نفسي فإذا أنا واحدة من القطيع : نعجة ولي إلية ! وتلاقى أُفقا الغبار من هنا ومن هنا ومدّا فوقنا رواقاً لا أول له ولا آخر . فسألت الخروف الذي خاطبني : كيف تقاتل الخرفان ذئاباً ؟ فإذا به قد تحوّل أسداً، وإذا الخرفان حواليه أُسود جميعاً وأنا لبوة ... وزأر أسد فينا زأرة عظيمة تجاوب صداها كالرعد في البرّية ، ووثب إلى الذئاب ، والتحم القطيعان في معركة هائلة ، واختلط الزئير بالعواء حتى طبّق السماء ، وتناثرت الأشلاء عضاً ونهشاً وكسراً، وسالت الدماء كالأنهر . وأهويت أنا على ذئب فأنشبت أظافري وأنيابي فيه . ثم حطمت عظام ثان وثالث ورابع ، أنتزع قلوبها وأمصّها مصاً . وشردت عن قطيعي فوصلت إلى تلّة ونشقت هواء طيباً، ونظرت إلى نفسي فإذا أنا قد عدت أنا ، إنسانة ضعيفة مسكينة أبكي وأجهش بالبكاء ...

حينئذ خرج الحارس فظنته زينه آتياً إليها لينذرها بانتهاء الزيارة ، فتوقفت عن الكلام ، فهتف سامي وقد بلع ريقاً لذيذاً :

— أكملي ، أكملي !

— ... واستفقت فرأيت دموعي قد بلّلت اللحاف .

لم يعتّم الحارس أن أقبل وفي شدقيه لقمة يعوّج بها شارباه . ووقف على الباب يلوكها ناظراً إلى الزائرة والسجين :

— يلّلا !

صاحها صيحة أطارت من فمه عليهما رشاش حلوى ! فالتفت سامي إلى

زينه وقد زحمته الضحكة ، فإذا هي مشغولة بدسّ الصرّة إليه من وراء ظهره، فما كان من الحارس إلا أن هجم مزمجراً وضرب بيده فاستولى على الصرّة واستاق الفتاة من كتفها .

ـ يا أفندي ، يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

فالتفتت زينه إلى غرفة المنادي ، فإذا على طاقتها وجه أبو زيد !

٧

ظلّ أبو زيد الشغل الشاغل للسجن، إلى أن كان ذات مساء فجاء جنديان فكبّلا يديه بالحديد وأخرجاه . فأطلّت الرؤوس على الطاقات وضجّ السجناء صياحاً وهمهمة وضرباً على الحيطان والأبواب . ونظر سامي فرأى صاحب بادي شاهم يخرج بين خفيريه آية مذلة ، يلوي رأسه إلى كتفه ويطوّف عينيه الملتاعتين، وقد ارتخى شارباه ارتخاء لا قيام بعده . وكأن ذلك لم يكفِ فانفكّت تكّة شرواله على الباب فأراد شدّها فلم تطعه يداه المكبّلتان فأثبتهما على وسطه فوق الشروال ، فكانت له هيئة المصاب بمغص، فلم يتمالك سجين أن صاح هازئاً :

ـ بادي شاهم جوق يا شاه !

وأتبعها بقهقهة فتجاوبت القهقهات من زندان إلى زندان ، فاستدار الحارس على عقبَيه لعلّه يدهم أحداً بالجرم المشهود، فسكتت الضحكات فجأة ، وحلّ محلها غمغمة منكرة، كلّما نظر الحارس إلى شبّاك ظاناً أنها منه قابله صاحبه بوجه هادىء كالنحاس فما يزيده ذلك إلا غيظاً . والغمغمة ما تفتأ متواصلة وهو يثب إلى هنا وههنا كالحيوان المربوط ... وكانت تلك طريقة السجناء في طلب الاستنطاق ، يلجأون إليها كلّما أتى رسولا رئيس التحقيق فأخرجا أحداً منهم . وتذكّر سامي أنهم فعلوا قبل أيام ما يفعلون الآن حينما

كان دور رفيقه حنّا الدهّان . أبرياء في أكثريتهم ، يعتقدون أنهم ما يمثلون أمام رئيس التحقيق حتى تنصع براءتهم فيطلق سراحهم . وقد وثّق اعتقادهم هذا أن حنّا الدهّان خرج ولم يعد ، وأن آخرين قبله خرجوا ولم يعودوا ... وبدلاً من أن تسكت الغمغمة تحت التهديد تضاعفت وامتدّت ، فجُنّ جنون الحارس فكشّر وضرب بسوطه على أقرب طاقة . ولكن سامي كان قد احتاط للأمر فأحدثت الضربة على الشبكة صفقة خرساء ، ووقف يرسل إلى ضاربه من خلالها ابتسامة ساخرة . وتهيأ الحارس لفتح الباب واقتحام السجين فإذا الجنديان يظهران من جديد وينادیان معاً :

— سامي عاصم !

لم يكن ينتظر أن يجيء دوره بهذه السرعة . وعلى غير قصد منه تفقّد زنّاره قبل أن يدخل الجنديان ويضعا يديه في القيد .

ساقاه إلى بناية الديوان العرفي وأدخلاه إلى غرفة عرفها ، هي التي أدخلوه إليها فور وصوله إلى عاليه . وعرف الضابط ، هو نفسه ذو الرقبة الثخينة والمنخرين المفتوحين . وفي الزاوية كاتب وراء طاولة صغيرة غارق في أوراقه . وكأن رشدي بك لم يشعر بدخول سامي فلم يلتفت إليه وظل يتحدث إلى الكاتب . ثم استوى عاقداً حاجبيه ورمى السجين بنظرة غضب ، أعقبها بابتسامة طفت على شاربيه كالشعاع الكاذب . ثم دفع إلى أحد الجنديين ورقة فخرجا بسامي فشيّعهم إلى الباب وخبطه .

* * *

كانت السجون كثيرة . بيوت يطرد الأتراك أهلها ويزجّون فيها الشبان بالعشرات والمئات ، ضحايا الوشايات الكاذبة والسعايات الدنيئة . أما مغذّو النهضة القومية ومعدّو الانتقاض على الدولة فلم توفّق إلا إلى القليل منهم . وكانت الطبقة السفلى في بناية المحكمة العسكرية سجناً لأصحاب التهم الكبيرة .

أنزله الجنديان ودخلا به قبواً كبيراً في سقفه قنديل ضئيل . فاستولت على سامي رهبة لا عهد له بها ، لا يدري أهي من هؤلاء الجنود الواقفين كالأنصاب

الرخامية إلى الجانبين، أم من هذا الصمت الشامل الذي لم يكن يُسمع فيه إلا غرغرة القنديل ، وكأنه هو الآخر مخلوق يُحتَضَر .

تفحص الزندان الذي أُلقي فيه ، فإذا سرير وكرسي وطاولة صغيرة وإبريق ماء . وعلى غير عطش منه تناول الإبريق ورفعه إلى فمه ، ثم قعد يتساءل لماذا نقلوه وما ينتظره بعد هذا . وانتهى إلى الترجيح أنهم قرروا استنطاقه من غد ، فارتاح إلى الفكرة واستلقى على سريره ، فأحدثت حدائده المخلّعة صريراً منكراً .

ولكنه لم يجد إلى النوم حيلة ، فعاد إلى القعود ينظر إلى رئيس الحراس يتمشى في الرواق ذهاباً وإياباً ، وخياله يطول بالضوء ويقصر ، ويقصر ويطول ، ويتخذ في تقلصه وامتداده أشكالاً غريبة ...

واختفى الخيال فجأة ، ثم أقبل صاحبه حاملاً إحراماً وقال :

— خذْ ، هذا من عمر حمد !

ودفعه إليه فتلقاه سامي وفتح عينيه وفمه ، ولكن رئيس الحراس عقد بين حاجبيه وتابع بصوته الأجش :

— الآن يجب أن تنام .

ومدّ يده الضخمة إلى الباب وأقفله على السجين .

٨

وتعاقبت الأيام ...

ونسيت زينه ما نالها على أثر عودتها من عاليه تأنيباً من جدّها ، ولكماً من خالتها وشدّ شعر . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لاحتملته بصبر وسرور ، ولكن الشيء الذي ما يزال يحزّ في نفسها أن ورده أشركت الشيخ في التبعة ، فرفعت يدها عليه وأوشكت لولا الحياء أن تضربه . وها قد مضى على الحادث شهر ونيّف وأبو سعيد منعزل في غرفته يبسط فوق الموقد كفّيه

المعروقتين ويسامر همومه طول النهار وهزيعاً من الليل ، لا يتوجه إلى كنّته بكلمة ولا يطأ دكانها بقدم .

وكان أشد ما يقلقه لا الخوف على نفسه ، « فلم يبق من العمر أكثر مما مضى » كما يقول ، بل الخوف على زينه وطام . فإن الجوع يهجم بخطوات الذئب ، ويجوس المنازل المجاورة ، يأخذ منها الكبير والصغير والمرأة والرجل ، واحداً بعد واحد وجماعة إثر جماعة ، وورده لا تطعم زينه رغيفها اليابس إلا مغموساً بأحد اثنين : العيب أو الدم . ويذهب بها البخل إلى القسوة حتى على طام فتأبى إلا أن تحمل كتفاه الطريتان نصيبهما من مشاقّ المعيشة ...

* * *

إلى جانب الطرق العامة المتعرجة ، التي تصل بين مدن الشاطىء وقرى الجبل في لبنان ، دروب قصيرة للمكارين والمشاة صقلت الحوافر والأقدام حجارتها على كرّ الزمان ، فهي ناعمة ملساء تلمع على الشمس لمعان الفضة ، ويزلق عليها المطر في الشتاء . بعضها باقٍ على ما رصفه راصفوه قبل العهد بالعربات والسيارات ، والبعض الآخر قلقلته دعسة دابّة باهظة الحمل ، أو عدا عليه سيل جارف فأزاحه من محلّه . تذهب هذه الدروب قافزة فوق الطرق العامة من رابية إلى واد ، ومن سفح إلى منبسط ، في العراء هنا ، وفي غابة من الصنوبر هناك ، وفي دغل من الملول والبلاّن هنالك ، تؤنس وحشتها في أكثر ساعات النهار والليل جلاجل البغال والحمير بطنينها ، ومواويل أصحابها المتجاوبة الأصداء .

في درب من هذه الدروب الوعرة ، عشية ذلك اليوم من آذار ، فتاة تمشي ساندة سلّة كبيرة على كتفها ، وخلفها صبي يحني ظهره بسلّة أصغر ، وينقل شبكة الحبل بين يديه نقلاً متسارعاً ، وقد نفخ العبء أوداجه وأرخى رجليه ، ولكنه لا يتجاسر على فتح فيه بشكوى . فإذا أدارت وجهها إليه قوّم من ظهره جهده ، وتبادلا ابتسامة وواصلا السير . والدرب ما ينفكّ صعوداً ، والفتاة ترفق السماء من الغرب المرة بعد المرة وتستحثّ رفيقها « يللا ! يللا !

الدنيا تنذر بالمطر ! » فيوسع خطاه شاداً على الحبل ، ويكرر سؤاله « ألا يزال البيت بعيداً ! » فتعلّله بقرب الوصول ، فيعود إليه النشاط ... ولكن الدرب لا ينتهي إلا إلى درب آخر ، فدعاها إلى الراحة قليلاً فما ردّت عليه ، فشكا الجوع فلم تحفل ، فتوقّف فنهرته : « امشِ امشِ ! » فخانته قواه وحطّ سلّته ، ومدّ يده إليها .

— أتركها ! اتركها ! ألا تعرف أُمك ؟ ما يخلّصني منها ؟

— جوعان ، يا أختي !

— أُمك لا تصدقني ، وتتهمني بها .

— أقول لها : « يا أُمي أنا أكلت برتقالة » برتقالة واحدة . هه هه ! أنظري هذه ، صفراء ، ممصوصة ، لا يشتريها أحد .

ورفعها إلى فمه ، فرفعت يدها وهمّت به ، فأفلت الحبّة ولكن عينيه ظلتا تترددان بينها وبين أُخته . وجعل يفطفط ويفحص الأرض برجله . ثم سوّى غطاء سلّته عابساً :

— أتظنين أنني سآكلها ! لا بجميلك ولا بجميل أُمي . إجّتي فيها ثلاثون متليكاً . آخذ متليكين وأقول لأمي : « أعطيني برتقالة وهذا ثمنها ! » وأختار أحسن واحدة ... عندما كان البستاني يزن لك درت وراءه وقطفت حبّة . هذه هي . لم أُخبرك لئلا تضربيني .

— كذّاب ! تلفّق لي هذه الحكاية لتأكلها .

— هذه ليست لي ولا لأحد .

— لمن ؟

— سأعطيكِ إياها لتأخذيها للخواجه سامي . ألا تريدين أن تذهبي إلى عاليه ؟

— هل تحب سامي يا طام ؟

فخفض رأسه :

— كثيراً ، كثيراً . لماذا لا يهرب من السجن ؟ أنا لو كنت محلّه لهربت .

ـ خذ برتقالة من سلّتي . أتعجبك هذه ؟

فانتصب واقفاً وعاونته على حمل عبثه . فسبقها يلتهم البرتقالة ويقضم لبابها بأسنانه المحددة . ثم لم يلبث أن جاراها ، ثم تأخر عنها ، فاضطرّت أن ترضيه بمحطة ثانية ... من محطة إلى محطة ، والمسافات بين المحطات تقصر ، والبيت ما يبرح بعيداً قريباً بين سؤاله وجوابها ، حتى أظلمت الدنيا بوجهه وطرحه اليأس على حجر فمالت سلّته وتناثر ما فيها ودموعه . فأرسلت زينه سبّة أُخرى إلى خالتها وانثنت تلمّ حبّات البرتقال ، ثم حملت السلّتين معاً، الكبرى على كتفها والصغرى بيدها ، فنهض طام فرِحاً يسايرها ويرفع بين الخطوة والخطوة كفاً مساعدة إلى كتفها . وطفقت تسرع ناظرة إلى المساء بجزع ، فقال :

ـ أمشينا كل هذا المشي في النزول ؟

ثم وقع وقام ... ثم استسلم لسقطة كبيرة تاركاً زينه وحدها . فلم تفطن إليه إلا على مسافة ، فنادته فلم يجب، فحطّت السلّتين ووثبت إليه ، فاتّقاها بكوعه الصغير وانكمش حتى لامس خدّه التراب .

ـ أُختي ، أُختي ! وحياتك اتركيني هنا ، وغداً تمرّين بي وتأخذينني .

فوقفت يدها دونه . وإنها لكذلك إذ ارتعشت لقطرة ماء على أنفها ، فرفعت عينيها إلى السماء ، وما كادت حتى انهمر المطر . فجذبت أخاها إلى كنف صنوبرة . ولبث كلاهما في حمى الشجرة طويلاً والسماء لا تكفّ ، والريح تشتد وتصفر ، والصبي يغرق في طوق قميصه ويتضاءل صاكّاً بسنّين له نافرتين ، ويحدّج زينه بخوف ، كأن تبعة المطر والريح عليه ، فتتداركه بذراعها وتضمّه إليها .

ومرّ مكاري في أول الدرب يضرب حماره ويدفع بقفاه لاجتياز حافة ، فبادرت إليه :

ـ الله يردّ عن أولادك ! تضع لي سلّة على ظهر هذه الدابّة .

فلم يسمعها المكاري لضجيج العاصفة .

ـ سلّة صغيرة، رطل برتقال .

– إلى أين ؟
– إلى ساقية المسك . هنا .
– طريقي ليست إلى ساقية المسك . حا ! حا !

وردّ كوفيته على أذنيه . فبقيت تنظر إليه حتى توارى . ثم انقلبت وقد عزمت عزماً . أدنت السلّتين فزادت من الصغيرة على الكبيرة، ووضعت حبتين في جيبها، وعقدت طرفيّ ثوبها من الميلين على ثلاث بثلاث ، ففضلت ثمان ، فدفعت إلى طام اثنتين :

– كُلْ ، كُلْ نكاية بأملك !

فأكلهما متعجباً ، وأطعمته الثالثة غصباً ، وأكلت هي حتى زحم الماء حلقها . وحارت ما تصنع بالاثنتين الباقيتين، فتركتهما أخيراً في السلّة وحملتها ودارت في الدغل فخبأتها لغد بين وزالتين متلاصقتين ، وألقت فوق قضبانهما المتشابكة حجراً ، وسوّت الستر على كنزها ، ثم تراجعت فما بان منه شيء .

ونادت أخاها فارتقى صخراً وركب على ظهرها لافاً ذراعيه حول عنقها . فمشت تغالب العاصفة الهوجاء وتتلقى ضربات المطر على خديها ، ولكنها تمشي دائماً ، تنقل السلّة الثقيلة من يد إلى يد، وتدفع رأسها في الدرب الصاعد ، يغرز الحصى في قدميها الحافيتين فلا تحسّ، ويكرّ بعضه مهزوماً إلى قعر الوادي .

٩

هذه المرة قامت ورده إلى العتبة فاستقبلت زينه بكثير من الحفاوة واستمعت إلى إفادتها عن السلّة الأخرى ببشاشة، وزادت في الرقة فوضعت لها رغيفين أبيضين وصحن فاصوليا فيه حزّة لحم .

– كلي يا بنتي ، كلي .

رابَ الفتاة هذا الحنان المفاجىء وهذا الكرم من خالتها ونظرت في الدكان فلم ترَ ما ينير ظلمتها. كانت الساعة قد جاوزت السابعة والموائد مستوحشة ليس إلا أبو زيد في الزاوية يثني عنقه ويعلّق عينيه بصندوق الخبز ... قد قنع من ورده ، بعد هول ما قاساه من أجلها في الديوان العرفي ، أن يعود إلى وظيفته السابقة : الوقوف على الباب ومراقبة الطريق في سهرات السكر والقمار . وحلف بشرفه وسيدة المعونات ، عليها السلام ، لا يتناول عرقاً أبداً لئلا يزيّن له تهديداً آخر بإفشاء السرّ ويعرّضه لنزهة ثانية إلى عاليه ، شأنه شأن الكلب الأمين يزحف إلى سيده متمرغاً على قدميه غير حافل بما أصابه في السعي وراء الطريدة من جهد ، وما ترك بين الأشواك من دم جلده .

حملت زينه عشاءها إلى غرفة جدّها وقعدت بجانب الموقد فقاسمته إياه . ولم تلبث أن هوّمت على الشبع والدفء ، فدعاها أبو سعيد إلى النوم وذهب إلى فراشه . كانت البروق تتدافع ببهقها وتشقّ النوافذ، فجرّت الفتاة لحافها إلى فوق رأسها وتجمّعت تحته مستسلمة إلى ارتعاشة لذيذة . ثم ارتجّ البيت برعدة عظيمة ، وخبطت الرياح على الشبابيك بالبرَد وثارت الطبيعة ثورتها . فحاولت زينه أن تسدّ أذنيها، وخُيّل إليها بعض الحين أنها وُفّقت إلى ذلك وأنها أغمضت عينيها بإغفاءة . ثم فتحتهما وقد أزعجها ، أكثر من الرعود وضرب البرَد على النوافذ، صفقات مشوّشة ظنّتها في البداية فعل الرياح في أغصان الازدرختة أمام المراح . ثم وضحت الصفقات فإذا هي هنا في الدكان ، وإذا هي محاورة بألسنة بشر : «أتكون خالتي سهرانة إلى هذه الساعة ؟ » ولم تشغل فكرها طويلاً ، فقد كانت ورده معتادة أن تحيي الليل إلى الفجر أحياناً ، فعادت تحاول النوم فإذا الأصوات تعلو ومعها صيحات ... أصيحات هي أم ضحكات ؟... فلتكن ما تكون ، ما همّ زينه منها !

وأدارت ظهرها ووطّنت نفسها على الرقاد . ثم وثبت قاعدة وقد فُتح الباب بين الغرفة والدكان بعنف . وأرادت أن تصيح ، فارتدّ الباب بمثل العنف الذي فُتح به ، ودارت وراءه مصاولة بالأجسام مع شتائم تركية وعربية . فقامت

زينه حافية على البلاط ومشت إلى الباب وأمسكت بمفتاحه الكبير البارد فلم تطعها يداها لإيصاده . وقفت تميل بأذنها ، والعراك في الداخل يشتد ، واسمها ، اسمها هي زينه، يتردد في صوت خُيّل إليها أنها تعرفه . فوضعت عينها على الخصاص لعلّها ترى شيئاً فإذا خالتها وجندي نصف عارٍ يتماسكان ، يدفع رأسه هاجماً وهي تصدّه، وتلتمس كفّه لتعضّها ... ثم ابتعدا وغابا ... وسكنت الضجة وأعقبها لهاث المتشاجرَين . فلم يهدّىء ذلك من روع زينه وأحسّت قلبها يذهب بين ضلوعها ويجيء كمطرقة الجرس . وندمت أن لم تُقدِم على إقفال الباب خلال الضجة ، إذن لكان الصرير ضاع فيها . وحارت ما تفعل، لا تجسر أن تدير المفتاح ولا أن تعود إلى فراشها والباب غير مقفل . فإذا بالاثنين يستأنفان العراك بعد هدنتهما القصيرة ، سكوتاً هذه المرة لا جدال ولا سباب . ولم تفكر زينه بوضع عينها على الخصاص ، وعنّ لها أن تستغيث بجدّها، ثم عنّ لها أن تقتحم الباب ، فإذا بوقع أقدامهما يقترب ، فضربت بكلتا يديها على المفتاح تضغطه جهدها وتحرص في الوقت نفسه على أن لا تحرّكه فيصرّ، والمصاولة وراء الباب مستمرّة مع نفخ ولهاث شديدين . فنظرت من شقّ الباب فرأت الجندي وخالتها ... ولكنها لا تريد أن ترى ، فسترت وجهها بكفّيها وانقلبت إلى فراشها .

* * *

استفاقت ورده مبكرة ، وانتظرت حتّى نزل أبو سعيد عند الصبحا فدخلت تدور حول زينه وعلى وجهها كلام . وكانت زينه جنب الموقد تغالب الحطب كسراً وخبطاً وتُلقم النار .

وفتحت ورده فمها أخيراً :

ــ ألا تريدين أن تأكلي ؟... كان الطقس رديئاً في الليل .

فلم تلتفت، ودفعت رأسها في الموقد تنفخ النار والرماد يتطاير على وجهها ووجه خالتها .

ــ أسألك ، ألست جائعة ؟

ـ لا .

ـ ألا تنزلين إلى إنطلياس اليوم ؟

ـ لا .

ـ ولا تقعدين في الدكان ؟ إذن موتي جوعاً إكراماً لسامي عاصم !

ودقّت قبضة على قبضة . وسمعت وقع قدمي أبو سعيد فأردفت :

ـ أنت وجدّك النحس !

وخرجت . فعادت زينه إلى النفخ ، فلمّا وصل جدّها وسألها لماذا تبكي حوّلت وجهها وقالت :

ـ لا أبكي يا جدّي ، بل طلع الرماد إلى عينيّ .

وأجهشت ، فتناول الملقط منها وقامت تطلّ من النافذة ، فقال :

ـ أُقعدي هنا . لن أدعك تنزلين اليوم .

١٠

كان الصباح جميلاً ، قد صفت السماء وتلألأت ، وفاحت من الأرض رائحة زكية وهدأ كل شيء في الطبيعة فلا يُسمع إلا خرير الساقية في الوادي القريب .

تأمّلت زينه في هذا النهار فأغراها صحوه . وبالرغم من محاولات أبو سعيد أصرّت على النزول ، فأخذت من خالتها رأسمال كل يوم وحملت سلّتها . وهمّت أن تهمس في أُذن جدّها بشيء ، ثم هزّت بكتفيها ومشت .

قصدت إلى بيروت وباتت ليلتها في الخان الذي باتت فيه من قبل ، وبكّرت في الصباح فاستأنفت طريقها إلى عاليه سيراً على قدميها الحافيتين فبلغتها قبيل الظهر . وقبل أن تدخل السوق وضعت نعلَيها وذهبت توّاً إلى صاحبتها ونقدتها المجيدي قطعاً من بشالك ومتاليك لتستحصل لها على الإذن .

أدخلها رئيس الحراس إلى زندان سامي ولم يفتّشها بل اكتفى بأن أوصاها « لا كلمة خارجة عن المجاملات ! » . ولم يكن سامي ينتظر زيارتها في تلك الساعة ، على كثرة تفكيره فيها ، فقام وفي عينيه حفاوة المحبة ودهشة المفاجأة، فشعرت حالاً بفرق ما بين هذه الزيارة وزيارتها الأولى ، وداخلها من أجل ذلك سرور كبير . فقعدت على حافة الكرسي بحياء تشوبه الخشية ، وبسطت كفّيها على ركبتيها . وجلس السجين قبالتها على السرير يردد النظر بينها وبين شفيق أفندي، لعلّه يغادرهما إلى شأنه لينصرفا إلى شأنهما ... ولكنه ظل لاصقاً بالعتبة مديراً ظهره . وفجأة استدار وأقبل نحوهما ممسكاً بساعته وقال :

— مضى من الوقت دقيقة ونصف .

ورفع وجهه القاسي إلى زينه فاضطربت في أعماقها .

— بقي لك ثلاث دقائق ونصف . هذا هو النظام .

ورجع إلى موقفه ، فهتف سامي :

— أتريد أن تتركنا ؟

فلم يلتفت ، فتابع :

— الظلام كاف ، فلا تزده بجثتك !

فاستدار رئيس الحراس، فاستوت زينه واقفة بينهما وقد حدّثتها نفسها بشرّ . ولكن شفيق أفندي قطّب حاجبيه وقال :

— يجب أن أحضر الحديث . هذا هو النظام .

وكان في صوته رباطة جأش فعلت ما لم يفعله تهديد قط في الديوان العرفي وسجونه . فاطمأنت زينه بعض الاطمئنان ، وأطرق سامي .

ماذا يقول لها ؟ الواقع أنه لم يكن يشتهي أن يقول لها شيئاً ، ففمه محتاج إلى تبريد قلبه بغير الكلام . كان الحب يتدفق في دمائه موجاً حتى يصل إلى حلقه فيكاد يخنقه، وتطلّ الرغبات من عينيه كالأظافر فيردّهما عن الفتاة لا استحياء بل عجزاً عن الفتك ، وهذا الجبل راسٍ على العتبة ، وهذه الحراب قائمة في الرواق ...

لقد مضت عليه في السجن ساعات كان يحسّ فيها أن المرأة هي كل شيء في الدنيا ، وأنه بدونها مخلوق مضطر إلى احتقار نفسه . وها هي ذي المرأة التي يحبها بين يديه لا يستطيع أن يطوّقها بذراع أو يمرّ على عنقها بشفة . وهي ، لسذاجتها ، ما تزال تسأله عن صحته ومأكله ومشربه .

ولم ينتبه إلا على شفيق أفندي يدعو الزائرة إلى الخروج . حينئذ زالت الغشاوة عن عينيه ورأى زينه بلحمها ودمها على قيد شبر منه، فلم يكن إلا أن يضمّها إلى صدره بكل ما أُوتي من قوة . ولكنه لم يفعل ودسّ كفّه يبحث عن ذخيرة عود الصليب ليقول – كما يقول الطفل – إنه لا يزال حريصاً عليها يتذكّرها بها كل يوم. وكانت زينه إلى جانبه فاغتنمتها فرصة غالية ومالت عليه تتشمّمه، ثم مسحت شفتيها بكتفه ...

وخرجت .

وأطل سامي يشيّعها ، فإذا سجين في الحجرة المقابلة يرسل إليه ابتسامة وغمزة . ولكنه لم يكن مهيّأ في ذلك الحين لمثل هذه المعابثة فصدف عنه وانقلب إلى زندانه .

١١

طال العهد على سامي وهو مطروح في هذا السجن الرهيب ، فتشرّبت نفسه رطوبة الحيطان ، وخيّم على عينيه ظلام هذه الغرفة الضيقة ، حتى لكان يدخل في روعه أحياناً أنه إنما خُلق للسجن فليس له من الماضي أكثر مما للمستيقظ من حلم ، ومن المستقبل إلا شبح أسود مبهم ، فيوشك أن يستسلم إلى القضاء يفعل به ما يشاء . ويثور أحياناً أخرى فيقوم متمشياً ، لاعناً ، كافراً ، يودّ لو يهجم على رئيس الحراس ويمسكه من كتفيه . فقد كان شفيق أفندي ، في روحاته وجيئاته وتوقيع قدميه على البلاط من أول النهار

إلى الليل ، أشبه شيء بالآلة أو الساعة الدقاقة المزعجة . ولما أقبل عليه ذات صباح وقال له : «إلى الاستنطاق !» صعّد فيه سامي بصره بشيء من عجب ، فكرّر :

ــ سآخذك الآن إلى الاستنطاق .

وخُيّل إليه أن في صوت شفيق أفندي، على خشونته ، شيئاً من العذوبة . أكان فيه عذوبة حقاً ، أم بحّة خدعت أُذنيه ؟ لا يدري، ولكنه أحسّ بدفقة من الحياة جديدة تغمر كيانه ، وتتحدر باردة من رقبته إلى كتفيه إلى ظهره ، فقد طالما اشتاق الاستنطاق للدفاع عن نفسه . وابتعد عنه رئيس الحراس يدعو جندياً ، ثم عادا معاً إلى سامي فوضعا في يديه القيد الحديدي .

ــ إمشِ !

طلع به شفيق أفندي والجندي إلى غرفة الاستنطاق . ونظر سامي فرأى الكاتب على طاولته ورشدي بك على الطاولة الأخرى ، هو هو بمنخريه المفتوحين وفكّه القبيح القاحم ، مع عناية هذه المرة بشعراته القليلة فهي مسدولة تلمع على صلعته ، وأناقة في ملابسه الخضراء ذات الأزرار النحاسية الكبيرة . إلا أن يأفوخه كأنما استدقّ ، فبانت الأذنان نافرتين كجناحي خفّاش .

وتكلّف رئيس التحقيق ابتسامة وشال بحاجب وقال :

ــ كنت أُفضّل أن أراك في ثوب الأخ حنانيا ! ولكن حظك كبير . لأن هنالك أمراً لا بأس أن أُطلعك عليه ، هو أني أكره الثياب السوداء . ترى إذن أنني أعرف ماضيك وكيف استخفيت عن العدالة وفي أي مكان . ما لنا ولهذا فقد مضى ، أو أننا لم نصل إليه بعد . أُحب أن أسألك الآن هل أنت مرتاح في سجنك ، فأنا هنا المسؤول عن السجناء . أما تزال تعاند ؟

ــ . . .

ــ ما لك تنظر إليّ بهاتين العينين (وضرب بقلمه على الطاولة) إخفض رأسك ! ... قلت لك اخفض رأسك ! أين كنت قبل الحرب ؟ وما كانت صنعتك ؟

– في بيروت .

– ماذا كنت تعمل ؟

– أشتغل في تجارة الديما مع أبي وديع عاصم الذي نفيتموه إلى الأناضول .

– وفي التآمر على الدولة العليّة ، أليس كذلك ؟

– كنا نسعى للحصول على حقوقنا .

– حقوقكم ! ... احذر ، إحذر أن تثير غضبي . متى كان لكم حقوق خارجة عن نعم السلطان التي يتمتع بها العثمانيون على السواء ؟

– نحن عرب نطالب بحريتنا واستقلالنا .

فاستلقى رئيس التحقيق على كرسيّه حاملاً نفسه على السخرية :

– إسمع يا سامي عاصم ، اسمع . لا أريد أن أحاسبك على ما تقول . حقوق ... عرب ... استقلال ... أتعلم لماذا ؟ (ودفع فكّه إلى الأمام) لأنها كلمات فارغة .

ثم نظر إلى ورقة أمامه وقال :

– أنت متّهم بثلاثة أمور خطيرة : الأول الاشتراك بالجمعية القحطانية مع زمرة الخونة الذين قبضنا عليهم ، والثاني السعي لتهيئة الثورة . ها ! ها ! – تسمح لي أن أضحك أحياناً – بالاتفاق مع رفاقك ، والثالث قتل جندي تركي وسلبه بندقيته . لي نصيحة أسديها إليك : لا تحاول أن تنكر ، فرفاقك أقرّوا بكل شيء . بعضهم نجا بجلده ففتح فاه لمّا رأى هذا (وأشار إلى سوط معلّق وراءه بوتد) والبعض الآخر أبى إلا أن يذوقه . فمن أي فئة أنت ؟

– ...

– أجب . أسألك من أي فئة أنت ؟

– ليس لهذا السؤال دخل في الاستنطاق .

– أنت وقح على ما يبدو لي (والتفت إلى رئيس الحراس الواقف بالباب) أليس كذلك يا شفيق أفندي ؟

فظلّ المخاطَب جامداً ، فقال رشدي بك :

– إياك والكذب ! من الصعب جداً الكذب عليّ ، يجب أن تقول الآن ... بل خذ واقرأ .

وتناول ورقة صفراء ودفعها إلى سامي ، فنظر فيها الشاب طويلاً .

– إقرأ ، إقرأ !

– « يا بني قحطان ، يا سلالة عدنان ، أأنتم نيام ؟ أما تسمعون الضجة القائمة حولكم ؟ أما تعلمون أنكم في زمن مَن نام فيه مات ، ومَن مات فات؟ متى تفتحون عيونكم وترون لمعان الأسنّة المصوّبة إليكم ؟ ... انظروا كيف تسعون وتكدّون ليغتصب الغريب منكم ثمرة أتعابكم ويتركك تموتون جوعاً ...؟

– كفى !

– « ... أنتم في نظرهم كقطيع من الماشية يجزّون صوفها ... » .

– أسكت ، اسكت . قرأت المنشور قبلك .

– هذا مستحيل ، لأنني أنا واضعه !

– حسن (وتنهد بخيبة) تقرّ به إذن . حسن ! هذا كل ما أريد .

إنصبّ عليه الجواب كالماء فأطفأ غضبه على حين كان لا يريد له انطفاء، ثم قال :

– ماذا ... ماذا تعني بالأسنّة ؟ ومن هو الذي يصوّبها إليكم ؟

– لا أحرمك لذّة الاكتشاف!

فاشتعل رئيس التحقيق من جديد :

– إعلموا ، أيها الأغرار الخونة ، أن الأتراك سيبقون هنا رغماً عن أنوفكم وسيحكمونكم إلى الأبد ، إلى الأبد ! أفهمت ؟ لقد ضحّينا بألف جندي في الدردنيل ورددنا الإنكليز على أعقابهم ، وسنرسل بنصف مليون من أبطالنا إلى الترعة وندخل مصر ونطرد الإنكليز منها ، ونقتل فكرتكم الخبيثة، وجوعاً نُميتكم ! أنت قلتها ، سنُميتكم جوعاً !

وتنفّخت أوداجه وجعل يهتز ويلهث . ثم مسح العرق عن جبينه وتنفّس الصُعَداء كأنه قاد المعركة فهو يرتاح على النصر ، فلم يتمالك سامي من الابتسام .

– أتضحك ؟ هل تظنني أمزح معك ؟ وهل الحرب مدعاة للمزاح ؟
– كلاّ، ولا الثورة !
– قلت لك لا أحد يعلم متى أغضب . ولكن غضبي الحقيقي لم تصل إليه بعد .
في تلك اللحظة دخل أحد الضباط فسلّم ودنا من رئيس التحقيق فهمس في أذنه ثم تراجع وأدّى التحية . فلمّا توارى قال رشدي بك :
– أتعلم ماذا أخبرني الضابط الآن ؟ لقد حاول أحد السجناء الهرب فأطلقوا عليه الرصاص وقتلوه . عربي يطالب بالحرية والاستقلال أيضاً ! بطل من أبطالكم الذين كانوا يهيّئون الثورة . بطل يهرب ! أهذه هي بطولتكم ؟
– الهرب من الظلم ليس عيباً .
فحدقّ شفيق أفندي لدى هذا الجواب إلى سامي ثم خفض وجهه إلى الأرض .
– من أين سلاحكم لإعلان الثورة ؟ أنت ماروني ... ألست مارونياً ؟
– ما يهمّك من مذهبي ؟
– ألموارنة أصدقاء فرنسا .
– وأصدقاء كل عدوّ للظالمين .
– مَن تعني بالظالمين ؟
– ...
– تعود إلى الضحك ؟ إضحك ما طاب لك . ستبكي بعد هذا الضحك (ونظر إلى شفيق أفندي) يجب أن تعترف لي بكل مخابراتكم مع القنصلية الإفرنسية في بيروت . لا تحسب أنك ستزيدني علماً بما ستقوله فأنا مطّلع على كل شيء . كانت عيوننا ترافق خطواتكم وتحصي عليكم أنفاسكم ، وأنتم لا تشعرون .
– ...
– ما لك تسكت ؟ أُريد منك الحقيقة، الحقيقة كلّها . بماذا وعدتكم فرنسا بلسان قنصلها ؟

ــ ليس لي علم بشيء من هذا .

ــ أنا رئيس التحقيق . بين يديّ موتك وحياتك . هل أُفهمك مرة ثانية أن الإقرار خير لك ؟

ــ . . .

ــ إن هذا السكوت سيضرّك كثيراً . أُكرر نصيحتي : اعترف بكل شيء .

لم يخرج سامي عن صمته وظل يحدّق إلى رشدي بلك بعينين زجاجيتين ، فظنّ رئيس التحقيق أنه يرتبك وأنه يفتش عن وسيلة لبدء اعترافه ، فقال في نفسه : « يجب أن ألجأ إلى اللين » .

ــ أنت شاب وأنا لا أحب أن أُرسلك إلى المشنقة . لقد كنت شاباً في زماني وأفهم أن الشباب يحب الحياة .

ــ الموت في سبيلها أحب أحياناً .

ــ يظهر أنك من أصحاب الخيال .

ــ لأبتعد به عن بعض الحقائق .

ــ هوه هوه ! .. كدت أنسى أنك شاعر . بلغني أنك شاعر مُجيد . أنا أُحب شعراء اللغة العربية ، ولكن ... (واستوى في جلسته وعاد إلى التقطيب) ولكن هذا ليس موضوعنا الآن . يجب أن لا تنسى أنني أنا هنا رئيس التحقيق في ديوان الحرب . قل لي هل تحب فرنسا ؟

ــ . . .

ــ فرنسا ، هل تحبها ؟

ــ أُحب وطني .

ــ وفرنسا !

ــ مُر الكاتب يدوّن ما أقوله (وحملق سامي بالكاتب الذي كان يسند رأسه إلى مرفقه) ما لك لا تدوّن إفادتي ؟

فصاح رئيس التحقيق :

ــ هذا لا يعنيك .

ـ أم تدعني أقول ما أقول ثم تضع في غيابي الإفادة التي تشاء !

ـ من قال لك هذا ؟ أتعلم خطورة ما تقول ؟ هم يقولون عني هذا ؟ ماذا يقولون أيضاً ؟ يقولون : « رشدي بلك غول » (ومدّ بفكّه الأسفل) غول... ها ها ! إن التشبيه لا يزعجني . ولكنك لا تعرف عن هذا الغول شيئاً حتى الآن . أين اجتمعت بنعّوم لبكي ؟

ـ في ساقية المسك .

ـ أين هو الآن ؟

ـ لا أعرف .

ـ بل تعرف .

ـ لكم جواسيس فليبحثوا عنه .

ـ قل لي أين هو ؟

ـ قلت لك لا أعرف .

ـ كذّاب !

فعضّ سامي شفتيه وحملق دون أن يجيب . فصاح الآخر :

ـ أما تزال تنظر إليّ بهاتين العينين يا كلب !

وبصق في وجهه ، فانتفض السجين :

ـ بل أنت الكلب !

فرقّص رئيس التحقيق فكّه وقام متماهلاً فصفع المكبّل ثلاثاً . ثم ابتعد عنه وعاد إلى العبوس فقال :

ـ موعدنا الساعة العاشرة ليلاً . (وأشار إلى شفيق أفندي والجندي) خذاه من هنا .

أُعيد السجين إلى زندانه وقد أحسّ أن دعسته قويت ، وعلا صدره بالأنفاس الكبيرة ، ففي دمائه عزم الأيام الأولى .

قضى بقية نهاره يتشوّق إلى الموعد بينه وبين رئيس التحقيق ، على معرفته بهول ما كان ينتظره . فما يسمع طقّة الجزمة تدنو من بابه حتى يخفق قلبه

ويرفع رأسه . فإذا تابع شفيق أفندي نزهته المعهودة انقلب يحاول القراءة فلا يستطيع ، والكتابة فلا يقدر ، والجلوس فتأبى أعضاؤه الاستقرار .

وهبط المساء وجيء إليه بالقيروانة فرفس القصعة فراحت شظايا. فهجم عليه جندي بحربته، فاستوى حالفاً بينه وبين نفسه أن والله ليفترسنّه بأسنانه قبل أن تصل الطعنة إليه . فإذا شفيق أفندي يردّ الجندي إلى موقفه ويخرج ، لم يخاطب المتمرد بخير ولا شرّ . فخمدت ثورة السجين واستلقى على كرسيه .

١٢

كان رشدي بك معتاداً أن يتناول في المساء كأس خمر على وجه مليح . فغادر مكتبه وركب عربة إلى بيت كثيراً ما أقلّته إليه في لياليه السابقات . فلمّا وقفت عنده وثب شخص ضئيل إلى الفرسين فأمسك بلجامهما، ثم بادر إلى باب العربة وانحنى حتّى الأرض .

ــ إسمع يا خليل المعلاّ . أُريد منك شمبانيا . هاتان ليرتان . أتكفيانك ؟ إضحك لأرى .

ــ هُ هُ هُ هُ !

ــ تضحك لما تسرقه مني . تحاسبني في آخر السهرة وأنا سكران . على مهلك ! تطير إذا رأيت متليكاً ، هذه عادتك (وعبّس هادراً) الليلة دور صاحبك الأخ حنانيا .

ــ هُ هُ ... رأيت في السوق تفّاحات بديعة!

وكان الضابط قد أدار ظهره يصعد الدرج إلى المنزل . فهبّ إلى استقباله على الباب سيدتان أنيقتان ، يتدلى على عنق إحداهما عقد يزيد نصوع صدرها ، وللعقد ذؤابة تحتمي في الثغرة الدقيقة الناعمة بين الثديين . فانخفض رئيس التحقيق وأزاح العقد بفمه ولثم موضعه . ودخل إلى البهو فقامت ثلاث من النساء ورجلان ، يرحّب كلٌّ على طريقته بالزائر العظيم .

ولم يتأخر خليل المعلاّ ، فصُفّت المائدة بأطايب المآكل والمشرب، وتوسّط رشدي بك ربّة البيت وابنتها ، يميل على هذه ثم يميل على تلك . وضجّت القاعة بالهتافات وقرع الأقداح ، وخليل المعلاّ واقف في الزاوية يغمز الضابط على فتاة جديدة لم يفطن إليها ويهأهئ في كمّه، وصاحب البيت وصديق له يقدّمان المازة ويأمران الخدم وينهيان ، ويدوران حركة دائمة وبِشْراً لا ينقطع .

وإذا رشدي بك يردّ القدح عن شفتيه ويرفع عن كتفه ذراع إحدى المرأتين ويجمد . فيسكت الندامى جميعاً وتتجه الأنظار إليه من كل صوب ، فينفجر في ضحكة عالية قاذفاً كأسه إلى جوفه ، فتتجاوب الضحكات :

– ها ها !

– هو هو هوه !

– قه قه !

– هْ هْ هْ هْ !

– أتعلمون لماذا أضحك ؟

فنظر بعضهم إلى بعض، إلا خليل المعلاّ فقد ظلّ ماضياً في ضحكته .

– هْ هْ هْ ...

– خليل المعلاّ وحده يعرف لماذا أضحك ... ها ها ! الأخ حنانيا ، الأخ حنانيا ! والله شجاع ! الحقيقة أنني لم أرَ متّهماً بهذه الشجاعة . بل وقح ، وقح ! يتظاهر بأنه لا يبالي بالمشنقة . ويهينني أيضاً ، الكلب !

فحاروا كيف يغضبون لكرامة الضابط :

– يهينك !

– ماذا تجاسر أن يقول لك ؟

– هذا بلا عقل !

– لا يعرف من هو رئيس التحقيق !

– الكرباج سيؤدّبه !

فرفع رشدي بك يده :

– الليلة ، الساعة العاشرة . كم الساعة الآن ؟ ... بعد نصف ساعة . آه ! أنا أمين على مواعيدي . ماذا ؟ لا . لا . سأعود . ربع ساعة تكفي ... من شرب كأسي ؟ أنتِ أم أنتِ أم أنتِ ... أسمعني ضحكتك يا خليل المعلاّ . أين القنّينة ؟ أريد أن أشرب . نفسي مفتوحة هذه الليلة ... سأؤدّبه ! العرب الكلاب ! ها ها ! اشربوا معي .

فارتفعت الأقداح من كل جهة .

– كم الساعة الآن ؟ كأس أخرى قبل أن أذهب .

وحدّج جارته ومال عليها فأوقع الكأس من يدها ، فامتدّت الأيدي بالمناديل إلى ثوب الضابط تلتقط عنه قطرتَي شمبانيا ، وهو مستلق في الحضن المضياف يبتسم راضياً . ثم هبّ وسوّى من هندامه وخرج مشيّعاً بأكثر مما استُقبل به من التكريم ، وأعيدت عليه التوصية :

– لا تتأخر !

فأكّد أن المسألة لربع ساعة ، حسب العادة .

١٣

غرفة الاستنطاق نفسها . قنديل باهر يتدلّى من السقف . ورشدي بك واقف في الوسط ، وأنفه على الحائط يتوتّر انتفاخاً وتقلّصاً بشكل مضحك ، بالقرب من سوط معلّق حديثاً ، فذَنَبه يتهادى ... وشيء جديد : مقعد خشبي طويل لم تقع عينا سامي عليه حتى سرت في بدنه قُشَعريرة . وأراد أن يصيح ، لا خوفاً بل احتجاجاً ، ولكنه لم يفعل . ومشى الضابط إلى الباب فأطبقه وأدار فيه المفتاح برفق ماكر ، فأحدث صريراً مزعجاً .

وكان شفيق أفندي قد وقف برأسه الضخم لا يتحرك فيه إلا عيناه ، وانتصب إلى جانبه الجندي الهزيل الذي عاونه في الصباح على سوق سامي إلى الاستنطاق .

فأمرهما رشدي بك فبطحا السجين على المقعد ، فاستسلم لا يمتنع منهما بحركة ولا يفتح فاه بنأمة .

لماذا يريدون ضربه؟ لم يخطر له السؤال ببال . هو يتساءل فقط كيف ؟ حتى هذا السؤال يهرب وشيكاً ويهرب معه كل فكر ، فإذا رأسه فارغ ، فارغ كالجرّة الفارغة ، لو نقفه أحد لرنّ .

وعادت عيناه فوقعتا على خيال الأنف طويلاً هذه المرة، يتسلّق الحائط الأبيض الأملس صعوداً، ثم يختفي بسرعة ويمتد مكانه فكّ عريض . ولكن الأنف يعجبه أكثر من الفكّ، فيتمنى لو يظهر من جديد ، يكاد يقول لصاحبه : « دُرْ ، دُرْ لأرى أنفك ! »

هو يجهل الوقت الذي قضاه متلهياً بذلك . كل ما يعرفه الآن أنه يُحسّ ببرد في قدميه، فقد خلعا نعليه وجوربيه . ويُحسّ شيئاً قاسياً يجمع ساقيه ويشدّهما إلى المقعد . يشدّ ، يشدّ حتى لتكاد ركبتاه تنخلعان . فحاول أن يرفع رأسه ليرى ، فوجد ذراعيه قد شُدّتا أيضاً . وكان الضابط ينقف السوط على طماقته متبرّماً ، ثم دنا وصفق به فوق أُذن سامي ، وضحك ، وشتم ، ووثب إلى الطرف الآخر ، فرفع الأسير قذاله جهده ، وانفتحت عيناه هائلتين .

— آخ ! (مع أنه وطّن نفسه على السكوت) .

— أتسمع ؟ إنك تعوي كالكلب تماماً .

فسحق سامي بأسنانه وأغمض جفونه ... حاول أن يعدّ الضربات فلم تبلغ العشر حتى داخ ، فأخذت تتوالى بدون حساب ، تهوي على قدميه — هل هما قدماه ؟ — وتمشي أصداؤها في عظامه حتى تصل إلى الدماغ فتهدر فيه هديراً .

— أتقرّ الآن أين نعّوم لبكي ؟

كان قد آلى على نفسه ألاّ يفتح فاه ، فترك رئيس التحقيق يجلده حيناً ويطرح عليه سؤالاً حيناً ، ثم انقطع رشدي بك عن الأسئلة وانصرف إلى الضرب، وسامي يتململ ويتخبّط ويلوي برأسه من هنا ومن هنا ، يختنق

الصرخة ويعضّ الأنّة . والسوط يخطّ على القدمين خطوطاً بيضاء جنب خطوط حمراء فوق خطوط زرقاء ، حتى اختلطت فيهما الألوان وتنفّستا بالدم .

حينئذ ألقى رئيس التحقيق في الديوان العرفي سوطه ، وأبى قبل أن يخرج إلا أن يودّع ، فرفع جزمته ولبط بها سامي على يأفوخه ، فارتجّ رأس الضحية ، ثم هدأ هدوءاً مخيفاً .

١٤

استلقى السجين على فراشه أياماً وليالي لا يعي . أخذته الحمّى فلا يعرف نومه من يقظته، ولا يتبيّن أحداً ممن حواليه ، ولا يدرك أين هو .

ودارت به الدنيا ذات مساء ، فرأى نفسه سائحاً في الجو على عربة ، والعربة تذهب محمولة على غيوم دكناء ، تعلو وتهبط ، وتهبط وتعلو ، ولسنابك خيلها وقع بطيء، ناعم ، متوازن : طق ... طق ... طق ... ثم تقف في ساحة من السماء مظلمة ذات رعود وعواصف ، ويرتدّ عليه السائق — رشدي بك نفسه — فيمسكه ليرميه من شاهق . والخيل تسرع : طقطق طقطق ! تريد تركه لراكب آخر ينتظر على الأرض . فيضرع إلى السائق « لا ترميني لا ترميني ! » مشيراً إلى بُعد ما بينه وبين الأرض، فيتوتّر أنف رشدي بك منتفخاً ، متقلصاً ، ويهوي بسوطه الأسود عليه ، فيقع سامي في الفضاء . ولكن السوط يلتفّ حول عنقه فيقف معلّقاً بين الأرض والسماء ، فيزمجر الحوزي ، فتخرس الصواعق :

— إختنق ، اختنق أيها العربي الكلب !

وجوافر الخيل تقرع دون انقطاع : طقطق طقطق ! وقد نفد صبرها . وتضيق دائرة السوط على عنقه فتبرز عيناه وتتواثب رجلاه كأن الحياة انحدرت فاعتصمت فيهما . فيتهادى رشدي بك على حافة العربة ، يميل به رأسه إلى السقوط ، فيبدّل من غضبه وتهديده ابتساماً ومكراً ويقول :

ـ إنزل ، انزل ! ألا تريد أن تنام ؟ لك ، تحت ، فراش وثير . انزل ، أنت تحب النوم .

ـ مضى عليّ أكثر من أربعمائة سنة وأنا نائم ! لا ، لا ! لا أريد ، لا أريد ! لقد فتحت عينيّ وستبقيان مفتوحتين إلى الأبد ، إلى الأبد ! لو ترى أنفك يا رشدي بك ؟ لو كنت موضعي لترى منخريك ينفتحان وينطبقان ! إسمح لي أن أضحك . أنا أعلم أنك تكره المزاح . أما أنا فدعني أمزح . ألست حراً ؟

ـ حرّ ! سكتير ! ألا تزال تتلفظ بهذه الكلمة ؟

ويستوي الضابط في وقفته ويتمكّن من السوط فيجذبه بكلتا يديه ، ويكبر أنفه وكأنه كرة مطّاط ، يكبر ، يكبر حتى يصبح أضخم من رأسه ، ثم ينفلق انفلاقة مدوّية . ولكن سامي يرسل بصره في الآفاق البعيدة ، ويحاول أن يفوه بكلمة ، كلمة واحدة ، كلمة كبيرة ، فلا يستطيع . ويندلق لسانه إلى جانب وترتخي رجلاه . وقد سكنت العواصف والرعود ، وانقشعت الغيوم عن سماء صافية زرقاء ، وسرى نسيم معطّر لطيف ، لطيف ، لطيف ، يداعب شعره وشاربيه الصغيرين ، ويدور حواليه ، ويرجع إلى جبينه وشفتيه وخدّيه .

طقطق طقطق ... طق ... وتختفي العربة ويختفي رشدي بك . وتأتي الشمس فينفذ شعاع منها إلى العين اليمنى ، وشعاع إلى اليسرى فيفتح سامي جفونه ، فإذا حبال ذهبية مدلاّة تلفّه من رجليه ويديه وأعضائه كلّها في شبكة وهّاجة ، وتسمو به إلى فوق ، إلى فوق ، إلى فوق ! ربّي ، ما هذه الديار الغريبة ؟

ـ أين أنا ؟ أين أنا ؟

ـ أصحوت ، يا سامي ؟

فأجال المحموم عينيه فرأى صديقه عمر حمد إلى جانب السرير .

ـ أين أنا ؟

ـ ليتك في غير هذا السجن ! كنت تهذي يا سامي . هات رأسك أجسّه .

ـ عطشان ! أنا عطشان !

فناوله الإبريق، فأفرغه وتنهّد الصعداء .

ــ سوِّ المخدة جيداً . وضعتها لك عشر مرات وأنت تحضنها ثم تقذفها وتحاور خيالاً . أتركك لتستريح . يمكنك أن تناديني إذا شئت . بعد أن استنطقوا الجميع أصبحنا قادرين على الاختلاط .

ــ ماذا حكموا عليّ ؟

ــ لم يحاكموك بعد . أنت محموم منذ أسبوع . أمّا نحن فقد مثلنا أمام المحكمة وما نزال ننتظر كلمتها فينا .

وسكت عمر مُطرقاً ثم رفع وجهه وقال :

ــ أعتقد أن كل شيء قد انتهى .

ــ تريد أن تقول ...

ــ لم يبقَ إلا أن يوافق جمال باشا .

ــ وأنا ؟

ــ يقال إننا سنذهب قافلة بعد قافلة .

ــ ستسبقني يا عمر ؟ لقد كنّا دائماً جنباً إلى جنب !

ونظر أحدهما إلى صاحبه .

ــ لا نفكّر بهذه الأمور الآن . خصوصاً أنت ، لا تفكّر بها .

وخرج ، فعلا سامي في سريره يتبعه بنظره . فرأى رئيس الحراس ما يفتأ يذرع الرواق بجزمته : طق طق ! طق طق ! فرفع يده إلى جبينه ثم أرخى رأسه وقد طفَت على شفتيه ابتسامة .

١٥

الخامس من أيار السنة ١٩١٦ .

وقفت الشمس في الشفق البعيد ترسل آخر شعاع من أشعتها إلى عاليه ، ثم جاءت غيمة كبيرة سوداء فحجبت وجهها بها وغارت في البحر ، وامتدّ

الظلام طبقاً كثيفاً على المدينة فخنق فيها حتى الهواء ، فما تختلج ورقة على غصن ولا تميل عشبة .

وكان القنديل في رواق السجن شاحباً ، تتدافع دخنته من الفتيل المجروح متلوّية من هنا ومن هنا ، فيشهق لها الضوء ويرسل إلى حيطان الرواق وإلى الغرف عن جانبيه أجنحة خفافيش جبّارة تضرب السقوف والزوايا ، والسجناء واقفون خلف الأبواب ، يشبكون أيديهم بحديدها أو يتمشون ذهاباً وإياباً كأسود في أقفاص .

كانوا يُحسّون بالموت يرود حول السجن ويهمهم . فما يسعل حارس أو يتحرك حتى تعلو القلوب في الصدور ، وتطلّ الرؤوس ، وتتبادل العيون من خلال الحراب المنصوبة نظرات فيها من البطولة والذعر ، والتحدّي والاستسلام ، والسخرية والحقد ، والإيمان والكفر ، فيها من الحياة والموت كل أسرار الموت والحياة إذ يصطدمان على مفرق ويتواجهان .

دقّت الساعة التاسعة ، فانفرج باب الرواق وأطلّت منه عينان وانطلق صوت :

— سعيد عقل ، البس ثيابك واخرج !

فرأى القنديل الضئيل وجوهاً تميل ميلة واحدة إلى زنزانة المختار . ثم رأى شبحاً طويلاً يخرج مرفوع الجبين ، ثابتاً ، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً . فرافقه رئيس الحراس إلى الباب ثم أقفله وراءه .

ومرّت دقيقة ... دقيقتان ... عشر دقائق . كان الزمان ثقيلاً ، كجذع ضخم يجرّه حطّاب عاجز . خمس عشرة دقيقة ، ففُتح الباب وظهرت العينان :

— الشيخ أحمد طبّاره ، البس ثيابك واخرج !

فجأر المختار الثاني : « لا إله إلا الله ! »

ثم ردّدها بخشوع :

— لا إله إلا الله !

ولبس ثيابه وخرج . فلمّا توسّط الرواق أجال بصره في رفاقه :

— أولادي ! أولادي ! أوصيكم بأولادي . قولوا لهم : « ولا تظنّوا أن الذين قُتلوا في سبيل الله ... »

ولم يدعه الواقف بالباب يُكمل فهجم عليه وأمسكه من كتفه وقذفه .
ومضى ربع ساعة ، وعاد صاحب العينين والصوت :
— عمر حمد ، البس ثيابك واخرج !
فغصّ القنديل غصّة كبيرة ، وارتفع إلى السقف خيال ذراعين عظيمتين .
كان عمر قد لبس ثيابه وتهيّأ من قبل، فلم يسمع اسمه حتى وثب إلى الرواق هاتفـاً :
— إلى الموت ! إلى حياة الأمّة العربية ! إليّ يا اخوان نُنشد جميعاً :

نحن أبناء الألى جرّدوا السيف سنا

فهرعوا والتفّوا حوله . وشدّ سامي كتفه بكتفه ودوّت أرجاء السجن :

ومشوا في الأرض يجلون من الأرض سما

ودار عمر على رفاقه يعانقهم وهم ينشدون، فلمّا وصل إلى سامي اغرورقت عيناه، ثم مدّ يده إلى جيبه ودفع إليه ساعته وقال :
— احفظها تذكاراً مني ... إذا لم تطلب الحرية دمك غداً .
فشدّ سامي على يد صديقه وأكمل :

نفتدي الأوطـان بالأرواح هـانت ثمنا

. . . .

وعند منتصف الليل أطبق الباب شدقيه . فالتفت الباقون بعضهم إلى بعض وعدّوا النقص . ثم تجرّروا إلى حجرهم ... ينظرون إلى أمكنة رفاقهم وقـد استوحشت ، فليس فيها إلا حذاء تحت السرير مقلوب ، أو شملة على الوسادة ملتاعة ، أو كتاب مفتوح على سطوره السوداء .
ثم اخترق الليل صهيل خيل ووسوسة حراب ، ثم علت ضوضاء مبهمة وارتجّت أركان السجن ، وكرّت العربات على طريق بيروت : طقطق طقطق طقطق ... فاتكأ سامي على الشبّاك وأرسل بصره في الظلام، فجالت بين أجفانه غبطة محرقة، ثم نسّم الهواء فقطّرها دمعة . ثم ترامت إليه أصوات من بعيد وبينها الصوت العريض الذي يحبه :

رنّ فينا صوتهم فنفضنا الزمنا

ومشينا نترك الدرب موشّى بالدمـا

فارتعشت شفتاه يرافق من وراء شبّاكه بصوته الحار نشيد السابقين الذاهبين إلى الفجر :

علّقونا سلّماً للمجد يتلو سلّما

... يتلو سلما

وخيّم على السجن سكوت مبغوت ثقيل ، لا يُسمع فيه إلا وقع قدمي رئيس الحراس في نزهته الأزلية الأبدية .

وما هي إلا دقائق حتّى دخل رشدي بك وبيده ورقة كبيرة فأمر شفيق أفندي فنادى السجناء، فلمّا اجتمعوا في الرواق استعرضهم بأنظاره حتّى اهتدى إلى سامي :

ــ ألا تزال هنا ؟

ومدّ يده إلى مسدسه ودفعه إليه . فتردّدت عينا سامي بين المسدس ووجه الضابط واختلجت أصابعه وهمّ بأن ... فإذا برشدي بك يسحب يمينه بالمسدس، ويمدّ له بما في الشمال ويأمره :

ــ إقرأ على رفاقك .

وانصرف . فتكتل السجناء حول سامي يقرأون معاً :

« بلاغ القائد الكبير عن تنفيذ حكم الإعدام بخائني الوطن .

... وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الأحكام المقتضاة بحقّ المظنون فيهم من الموقوفين والفارّين كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة . فحُكم على مَن يأتي ذكرهم هنا بالإعدام : شفيق بك أحمد المؤيد العظم ، الأمير عمر ابن الأمير عبد القادر الجزائري ، عمر مصطفى حمد ، رفيق بن موسى رزق سلّوم ، محمد حسين الشنطي ، شكري بدري العسلي ، عبد الغني محمـد

العريسي ، عارف محمد سعيد الشهابي ، توفيق أحمد البساط ، سيف الدين أبي النصر الخطيب ، الشيخ أحمد حسن طبّاره ، عبد الوهّاب الإنكليزي ، سعيد فاضل عقل ، بترو باولي ، جرجي موسى الحدّاد ، سليم محمد سعيد الجزائري ، علي حاجي عمر ، رشدي أحمد الشمعه ، أمين لطفي محمد الحافظ ، جلال سليم البخاري .

« ... ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام وهم : شفيق بك المؤيد ، الأمير عمر ، شكري العسلي ، عبد الوهّاب الإنكليزي ، رشدي الشمعه ، رفيق رزق سلوم ، هؤلاء قد جرى إعدامهم في هذا الصباح في الشام في ٦ أيار ، والآخرون جرى إعدامهم في بيروت ، وسائر المجرمين صار سوقهم إلى منفاهم وحبوسهم .

... وعلى هذه الصورة تقرر في سوريا وفلسطين السكون والأمن إلى الأبد... »

قائد الفيلق الرابع وناظر البحرية

أحمد جمال

١٦

لم يكد سامي يفرغ من قراءة المنشور حتّى مزّقه وداسه وانقلب إلى غرفته فدفن وجهه في كفّيه . ثم تناول الساعة التي أعطاه إياها عمر فلمع زجاجها في العتمة ، فآذاه لمعانه وآذته تكتّاتها المتواصلة ، المتوازنة — كأن أمراً لم يحدث في الدنيا — فهمّ برميها من الشبّاك وهمّ بسحقها بقدميه، فردّته ذكرى عمر فوضعها على الطاولة برفق وقام إلى العتبة .

كان شفيق أفندي قد عاد سيرته يُقبل ويُدبر في الرواق ، خفيف الوطء هذه المرة رفيقاً . فبدا لسامي أن يتناول هذا الكرسي فيرميه به فيحطّم رأسه ؛ ولكن رئيس الحراس وقف فجأة قبالته وأرسل إليه نظرة غريبة . كانت تلك أول نظرة تلتقي فيها عيون الرجلين . والضوء يغمر وجه شفيق أفندي فيظهر

شارباه وقد ارتخيا ، وعيناه وقد جال فيهما ذهول ، وكتفاه وقد انخفضت إحداهما عن أُختها تحت حمل خفيّ .

وانقضت دقيقة والعيون متلاقية جامدة، لا يرفّ لها هدب . وأحسّ سامي ، على دهشة منه ، أن حقده ينحلّ ويذوب ذوبان الثلج على تلك النظرة التي لا تنتهي . كان يريد أن تنتهي ولا يريد ... فإذا بشفيق أفندي يخطو إليه، فينبعث الحقد في صدره مشوباً برعشة ، وتراجعت إحدى رجليه فأبى عليها ، ورفع ذقنه متحدّياً ، فألقى رئيس الحراس كفّه على كتف السجين وقال :

– يجب أن تنام .

والتقت العيون مرة ثانية .

– إنزع يدك عني !

– يجب أن تنام .

– هل النوم تحت أمركم أيضاً ! كيف أنام وبعد ساعة تعلّقون واحداً وعشرين أخاً لي على أعواد مظالمكم ؟

– أربعة عشر في بيروت ، وسبعة في دمشق ...

– أتسألني ؟

– في يوم واحد ...

– عدا المحكوم عليهم بالسجن وعشرات المنفيّين ...

– أتخيفني بهذا الإحصاء ؟

– إخفض صوتك ! ولا تزال المشانق منصوبة ...

– أغرب من وجهي !

– الموعد الرابعة صباحاً . أين ساعة عمر ؟

– تريد أن تسلبني إياها ؟

فغامت تحت شاربَي شفيق أفندي ابتسامة . ثم ثنى رأسه فتناول ساعته من جيبه ونظر فيها . ثم أعادها ورفع كفّه إلى جبينه وأدار ظهره . فمدّ سامي بأنفه واجتاز العتبة لاحقاً به كأنه يجذبه بخيط من سحر . وتفقّد شفيق أفندي أعوانه فإذا هم يُغفون على بنادقهم ، فانكفأ بعبوسه المعهود وقال لسامي :

ــ إذهب ونم . لا تفارق فراشك !

وكان في صوته رباطة الجأش التي غلبت سامي لأول مرة لدى زيارة زينه له ، فمشى إلى سريره .

تنازعته أفكار متقطعة مشوّشة ، تقفز به من المشانق إلى ساقية المسك ، إلى ذكريات صباه البعيد . ثم انتبه إلى نفسه وعاد الحقد حيّة تلفّ قلبه ، فتهيّأ للوثوب فالتقت عيناه العينين الأخريين مرة ثالثة . وكان شفيق أفندي ممسكاً ساعته، وقد وقفت يده في الفضاء وانفرج فمه . وخُيّل إلى سامي ، من خلال الضوء المصفرّ ، أن رئيس الحراس يتهادى ، وأن عينيه هاتين تنظران ولا تريان .

وكان المصباح قد جفّ زيته ، فشهق شهقته الأخيرة ، وأطلع شرارات قوية ، حمراء ، باهرة ، وانطفأ ...

الغَيْث

١

إنتشر خبر المشانق في البلاد فأحدث دوياً عظيماً .

وجاء كامل أفندي الورّاق إلى دكان ورده كسّار ، وقعد أبو زيد وورده وزينه وطام يصغون إليه وهو يسرد عليهم أسماء الذين أُعدموا ويفرك كفّيه :

— رحمة الله عليك يا صديقي ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! واحد وعشرون شاباً ، صفوة شباب العرب ! أعوذ بالله ! رحمة الله عليه ! ما كان أشجعه وأظرف حديثه !

فسأل أبو زيد :

— مَن ؟

— رفيق سلّوم .

فترقرقت عينا أبو زيد ، فقال الجاويش :

— هل عرفته في عاليه ؟

— لا .

وعاد إلى البكاء .

— رحمة الله عليك يا حبيبي ! إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ورفع كامل أفندي عينيه إلى السماء يسلّم تسليماً ، وهم ينظرون إليه واجمين ، وزينه تودّ أن تطرح عليه ، مبالغة في الاطمئنان ، ألف سؤال وسؤال فلا تجسر ، فتحدّق إليه رجاء أن يقرأ تلك الأسئلة في عينيها ، ولكنه يستأنف تحسّره ويهزّ برأسه ، فتحدّج إلى خالتها فتراها هي الأخرى تحدّج

إليها، وكأن كل واحدة تتربّص بصاحبتها . ثم وخزت الفتاة جدّها وسألت كامل أفندي لماذا لا يدخل إلى الغرفة . فأجاب أنه مضطر أن يعود إلى الثكنة في الموعد ، وأنه لولا ذلك لما أزعج أبو سعيد عن زاويته . والواقع أنه قد طالما تأخر في الماضي عن الموعد فما حفل ، حتى كانت هذه القائمة السوداء من المشانيق والمحكوم عليهم بالسجن والنفي ، فبعثت فيه رهبة وأنعشت في نفسه حرمة للنظام خُيّل إليه يوماً من الأيام أنه داسها إلى الأبد .

وتهيأ للقيام فدعته ورده على غير عادتها إلى المكوث قليلاً ، وهمّت بأن تقول له شيئاً فتلعثمت ، ثم بلعت بريقها وقالت :

— أتظن أن تهمة سامي عاصم خطيرة ؟

وكان في صوتها اضطراب ، فأجاب :

— خطيرة ، خطيرة جداً .

— تعني أنه مثل هؤلاء ، وأنه يمكن أن ...

ولم تُطعها شفتاها على الكلمة الهائلة . فدُهشت زينه لهذا التحنّن تبديه خالتها على سامي وقد كانت إلى قبل ساعة لا تذكره إلا باللعنة ، وتدعو عليه بالشنق كلّما عاندتها ورفضت الابتسام لزبائن دكانها أو تأبّت من غسل صحونهم وكنس أوحالهم عن البلاط .

أما كامل أفندي فلم يُجب ورده على سؤالها، رفقاً بنفسه على الأكثر، وقال:

— ما أزال أُفكر في الوغد الخسيس الذي أرشد إلى مخبئه وأسلمه . قلت يا أبو سعيد وأُكرر قولي إن هنالك مؤامرة . فأبو زيد لم يكن يعرفه هو . وخليل المعلاّ لم يستطع أن يأخذ من طام شيئاً من السرّ . وأنا أعتقد أنك ظلمت هذا الصغير لمّا ضربته وحملته على الإقرار لك بما زلق به لسانه مع ذلك الرجل . السرّ لم يكن في أن شاباً مطلوباً من الديوان العرفي اسمه سامي عاصم استتر باسم الأخ حنانيا وجبّته ، بل أين هو هذا الشاب . والحال أن طام لم يكن يعرف أنه في المغارة ... يجب أن يكون هنالك من دلّ خليل المعلاّ على مغارة الخورية .

فمسح أبو زيد دموعه والتفت إلى أبو سعيد وقال :

ــ ماذا كنت أقول لك دائماً ؟

فقذفته ورده بتكشيرة قهر :

ــ ماذا كنت تقول يا أبله !

فخفض رأسه . وقال الجاويش :

ــ ما الفائدة الآن يا ست ورده ! سبق السيف العذل .

وخرج ، فلم تُلحّ عليه .

* * *

في الليل جثت زينه في فراشها وضرعت للمصلوب المعلّق فوق وسادتها بإيمان وخشوع . ثم اضطجعت تتمثّل سامي وقد نجا فتضمّ طيفه إلى صدرها وتستسلم إلى هذه الرؤيا ساعة ، فإذا عادت إليها أشباح المشانق ارتعدت فرائصها وضعفت حتى لكأنها طفل صغير ، فتعضّ اللحاف وتخنق صراخها ، واجدة في الحالين عذاباً مدغدغاً كاللذة ، ولذة لها وخز العذاب .

وفي الصباح لبست ثيابها وغادرت القرية .

جعلت طريقها إلى عاليه مرحلة واحدة هذه المرة . وصلت إلى بيروت عند الظهر ، وتابعت السير فبلغت عاليه عند غروب الشمس ، وقصدت تواً إلى نزل صاحبتها العوراء ، وأخرجت من صدرها رغيفاً يابساً ابتاعته من بيروت فأسكتت جوعها ، ثم استلقت لا تُحسّ ببقّ ، ولا تفكر بشيء لما نالها من جهد في يومها .

إستيقظت في الصباح على قرع الباب . ولو لم توقظها العوراء لظلّت نائمة . فهبّت وفركت عينيها فرأت النهار قد ارتفع ، فخرجت مسرعة . ولكنها ما لبثت أن تذكّرت . صرّتها تكاد تكون فارغة إلا من بضعة متاليك . فثقلت قدماها ووقفت على حافة الطريق تعضّ إصبعها بمرارة . كيف تشتري الإذن؟ كانت تعلم قبل أن تغادر ساقية المسك أن ما معها لا يكفيها ، وجاءت مع ذلك لأنها لم تكن تستطيع أن تبقى . وكانت قد أنِست من العوراء عطفاً

حين باتت عندها مرة أولى ، فقالت في نفسها : « ربما ساعدتني . على أمري »
ثم قالت : « بل أذهب أنا بنفسي عند رئيس التحقيق » .

ولم تفعل هذا ولا ذاك ، وعزمت أن تقابل سمسارة الأذون لعلها ترقّ لها . فلم تخطُ خطوتين حتى سمعت وقع حوافر فالتفتت ، فإذا رشدي بك على حصانه، فتوسّطت الشارع ورفعت يديها تلوّح بهما في الفضاء ، فهمز الفارس مطيّته وجاز كالبرق، لو لم تتحاشه لداسها . ثم لحقت به تحت الغبار الذي سحبه وراءه حتى شارفت الديوان العرفي ، فرأت الناس مجتمعين حلقات حلقات وعلى وجوههم اهتمام وهم يتهامسون . فمدّت رأسها في حلقة تصغي :



— شيء عجيب !
— شيء لا يصدّقه العقل !
— ألسجن محاط بالحراس المسلّحين ولا تُغمض لهم عين طول الليل !.
— هو نفسه حارس .
— مَن كان يظن أن حارساً يهرب من السجن الذي يحرسه !
— والظريف أن سجيناً مفقود من السجن .
— ترى ، مَن هو ؟
— لا يزال مجهولاً . ذهبوا إلى رشدي بك وأخبروه فجنّ جنونه . هل رأيتموه كيف مرّ من هنا برجاً من غضب ؟ نزل الآن يتفقد السجناء ليعرف أيّهم الهارب .
— ماذا ينفعه عرف أم لم يعرف ؟ الذي هرب هرب .
— ألا يكون الاثنان متّفقين على الهرب معاً ؟
— طبعاً !

ـ أيّ هرب ؟ سيلحق بهما العسكر ويقتلونهما كما فعلوا بسواهما من قبل .
ـ كان محكوماً عليه بالإعدام .
ـ مَن ؟
ـ السجين .
ـ كيف عرفت أنه محكوم عليه بالإعدام ؟
ـ الإعدام أو المؤبد .
ـ أو النفي إلى الأناضول .
ـ السجين هرب من الحكم ، ولكن لماذا هرب الحارس ؟
ـ هس ! هس ! تعالوا أُخبركم .
وتزحزحت الحلقة لشاب يدخل فيها ملهوفاً ، وشقّت زينه لنفسها منفذاً وأتلعت عنقها ، فقال :
ـ رأيت جثة هنا ، هنا . رأيت جثة هنا ! اقتربت من ضابطين وسمعتهما يقولان : « قتلاه وهربا » ، أي صاحب الجثة ، وهو حارس من حراس السجن . فهمت منهما كل شيء . كانا يتكلمان بالتركية ويظنّان أنني لا أفهمها أو لا يشعران بي . ولكني كدت آكلها حربة من الحاجب . (وتوقّف هنيهة يتنفس) رئيس الحراس قتل معاونه وهرب ...
ـ رئيس الحراس !
ـ هو هو !
ـ شفيق أفندي رئيس الحراس .
ـ أنا أعرفه . شفيق أفندي العلايلي .
ـ وأنا أعرفه أيضاً . نحيف الجسم .
ـ بل هو كالجبل !
ـ من أين تعرفه أنت ؟
ـ أُسكت !
ـ بل أنت سدّ فمك !

ـ أتركانا أنتما الاثنان .

ـ أكمل ، أكمل . جثة مَن رأيت ؟

ـ أتريدون أن تسمعوا ؟ (وأدار فيهم عينيه فحبسوا أنفاسهم) شفيق أفندي العلايلي ـ هكذا سمعت أحد الضابطين يقول لرفيقه ـ شفيق أفندي طلب لأحد السجناء إجازة بنقله إلى المستشفى بحجّة أنه مريض . ونادى حارساً من الحراس ليعينه، فوضعاه على خشبة ومشيا به . فلمّا ابتعدا عن السجن قليلاً ، هنا ، هنا ، أهوى شفيق أفندي على الحارس وطعنه بالخنجر وفرّ مع سجينه . أنا رأيت جثته . رأيت جثة الحارس كان الضابطان ينظران إليها مطمولة بالدم وفيها أكثر من عشرين طعنة .

ـ مسكين ! ما ذنبه ؟

ـ مسكين ! مسكين ! لماذا لا تشفق على الذين شنقوهم ؟

ـ والله العظيم ، لو سمعك رشدي بك !

ـ لا أخاف منك ولا منه . إذهب وقل له !

فتدخّل أحدهم لحسم الخلاف :

ـ الحارس قُتل ، ورئيسه والذي هرب معه سيُقتلان أيضاً . هل تظنّون أنهما يفلتان من يد الدولة ؟

ـ الدولة لا يخفى عليها شيء .

ـ مَن يقدر على الدولة ؟

ـ الحقّ على الدولة تعيّن ضابطاً عربياً رئيساً للحراس .

ـ يقولون إنه من نابلس .

ـ الدم يعطف على الدم . هل يتحوّل الدم إلى ماء ؟

ـ عربي وعربي ، فلا عجب .

ـ ولكن مَن هو السجين الذي هرب مع شفيق أفندي ؟

ـ أمَا كان قادراً على تخليص السجناء كلّهم ؟

ـ ليخلص بجلده وجلد مَن معه !

– لن ينجو لا هو ولا السجين . سترون . ليست هذه المرة الأولى يهرب فيها سجين . وقد لحقوا حتّى اليوم بأربعة قبله . الأول قتلوه في عاليه ، والثاني على طريق بيروت ، والثالث على باب الحبس ، والرابع ...

كانت زينه تشرب هذه التعليقات شرباً ، وقلبها يخفق بسؤال همّت شفتاها بطرحه على الرغم من أن غيرها كان قد طرحه تكراراً فلم يلقَ جواباً . فإذا شاب يطلّ بأنفه فوق الحلقة ويهمس :

– سامي عاصم ! الذي هرب مع رئيس الحراس اسمه سامي عاصم .

فانفتحت عيناها في الرجل . وفجأة قام خلفها صهيل ووقع سنابك ، فتفرّق الفضوليون وبقيت هي مكانها لا تصدّق ما وعت أُذناها ، تبحث عن الذي لفظَ اسم سامي لعلّه يعيد لفظه مرتين وعشر مرات ، فيهوي عليها فارس بسوطه فتمسح الضربة عن كتفها ، تصعد إلى الرصيف ، تعود إلى الشارع ، يمرّ الجنود على خيلهم شاهرين السيوف ، ملوّحين بالسياط ، تريد أن تضحك، تريد أن تبكي ، تركض ، تقف ، تلتفت إلى اليمين ، تثب إلى الشمال ، لا تسعها الدنيا .

* * *

أحدث الجنود في المدينة ذعراً كبيراً . أقفل أصحاب الدكاكين دكانيهم وأقفرت السوق في دقائق معدودة ، فليس إلا كوم أقذار وكلاب هزيلة ذات عيون جائعة . والفرسان يروحون ويجيئون ، يرفع قائدهم ذراعه مشيراً إلى ناحية فيلحقون به ثم يرجعون . وزينه تتبعهم محاذرة ، مستخفية بجدار هنا ، وبباب هناك ، حتّى وصلت إلى نزل العوراء . فإذا ضجة وجنود فيه وفي البيوت المجاورة يقلبون الأشياء ويقذفون على الأدراج ومن النوافذ ، غير حافلين بصياح النسوة وبكاء الأطفال . وتلمّست مخبأ فطلع بوجهها قبو تحت السلّم مظلم، فدخلت فيه وتجمّعت على نفسها بين عناكبه وحبست أنفاسها تصغي . حتّى إذا سمعت الجنود ينزلون الدرج انسلّت تتلصّص ، وأرادت الهرب في جهة من الجهات، فإذا العوراء تناديها فترددت ، ولكنها استشعرت منها إلحاح محبة فارتقت إليها،

وأخذت تعاونها في ترتيب البيت وإصلاح ما أفسده العسكر، يتألّق وجهها بالأمل فتمضي نفضاً وحملاً وتسوية للأثاث ، ثم تقف يداها وتجمد زائغة البصر . وعنّ لها أن تفتح قلبها لهذه العوراء الطيبة وتقول لها إن أحد الهاربيَن « فلان » ! ولكنها فضّلت أن تُخرس فرحها احتياطاً . مع أن المرأة كانت تلعن الأتراك وتدعو عليهم ، وقد غفرت لهم كل شيء إلاّ أن يعيّروها « يا عوراء ! » وحلا لها فجعلت تقصّ على زينه كيف فقدت عينها وكيف كانت من قبل جميلة، والفتاة تهزّ برأسها حيناً ، وتتكلف الابتسام الأصمّ حيناً آخر ، وهي لا تعي هذه البربرة وما تبالي صاحبتها . كانت تتخيل سامي ورفيقه — يا حبّها له ولو على غير معرفة ! — في مأمن من مطاردة المطاردين، يتضاحكان ساخرين من هؤلاء الذين يفتشون عليهما في عاليه وفي ضواحي عاليه فما يفتشون على غير عقولهم ، وما يعثرون إلا على الغبار تحت الأسرّة ، والعنكبوت خلف الخزائن ... ثم يغلبها الجزع إذ تتذكر كلام ذلك الثقيل يؤكد أن الدولة ستهتدي إليهما وتأتي بهما حيّين أو ميتين ، كأن له عليهما ثأراً أو كأن الأتراك أولاد عمّه ! فتبغضه وتودّ لو تلاقيه لتكسر أسنانه ... وتشدّ في ظنّها مع الفارّين وتذهب معهما إلى مغاور في الأودية عميقة، وتلجأ إلى صخور في الجبال ذات شعاب وقباب ... ثم تطلع لها الصورة الرهيبة : العسكر يصرعونهما بالرصاص ويجرّونهما إلى عاليه مربوطين إلى أذناب الخيل، فتطردها طرداً وتستر وجهها بكفّيها .



ظلّ هذا شأنها حتى فات الظهر وجاعت فمشت إلى السوق . كان بعضهم قد فتح دكانه وجلس مطمئناً ، والبعض الآخر قد فتح الباب نصف فتحة ووقف دونه ، وفضّل الأكثرون تعطيل العمل بقية النهار . فأخذت تسترق

النظر خشية أن يراها الرجل الذي يعرفها والذي التقت عنده خليل المعلاّ ، حتى وصلت إلى باب فدخلت واشترت رغيفاً وقعدت في الزاوية تلتهمه .

وما هي إلا دقائق حتى علا وقع السنابك ، فأطلّت فرأت الجنود قد عادوا يملأون الشارع ، يشيرون إلى الناس بأيديهم ، ويكلّمونهم بلطف هذه المرة ، والناس يخرجون من الدكاكين ويُشرفون من السطوح وينزلون على الأدراج ، حتى تجمّع حول العسكر عشرات منهم . فأومأ القائد فانطلقوا من ناحية واحدة يتسابقون ، فغصّت بلقمتها وانطلقت وراءهم .

ولحقت بمؤخّرتهم ، فسمعت واحداً يتساءل عالياً :

ـ إلى أين نركض هكذا ؟

فيجيبه الآخر :

ـ سعرك سعر الناس . أُركض !

فتقدّمت إلى الجماعة التالية فإذا بينها الثقيل ذو شاربَي ريش القنافذ .

ـ في ضهر البيدر ؟

ـ في ضهر البيدر ، هنا .

ـ الاثنان ؟

ـ الاثنان ... ماذا كنت أقول لك ؟ تعال وانظر .

وجعلا يلهثان وقد عجزا عن متابعة الكلام ، فسبقتهما تعدو وتصغي إلى ما يقال حواليها حتى وصلت مع الطليعة .

وقفت في ساحة المحكمة تشاهد مع المشاهدين ... نطاق من حبل مضروب على جثتين مطروحتين على الأرض ومغطّى رأساهما بكيس خيش . بقع من الدم مسودّة تصبغ ثوبه ، هو ، على الخاصرة وبقع أُخرى حمراء على ساقه اليمنى . جاء رصاصهم في قلبه وربّما في رأسه أيضاً . جثته الضئيلة ملقاة على البطن ، وجثة الآخر الضخمة على الظهر . وجنديان يدوران حولهما ولا يلتفتان ... كأنهما قطّتان رهستهما عربة ! وجنود بين الناس يحافظون على النظام ، والناس يسدّدون أنظاراً بلهاء ولا ينبسون ، إلا بعض همسات :

ــ الحقّ عليهما !

ــ نجّانا الله !

ــ الله يرحمهما !

تلطم هذه الكلمات أُذنيها فتميل إلى قائليها ميلة بطيئة ، ثم تعود إلى التحديق إليه ... فإلى الآخر ... ثم غامت عيناها ، فطار بها خيالها إلى ذكريات بعيدة ، فجعلت تبلع بريقها كأنها تجترّ أشياء حلوة ، وكأن طعمها ما يزال بين الأضراس فهي تتلمّظ وتبسم وتغمض أجفانها ... ثم ثاب إليها رشدها فنظرت ، فإذا هي قد بعدت عن النطاق ، وإذا بوجهها رجل قد احتلّ مكانها وضرب بكتفيه العريضتين حاجزاً . واكتنفتها الأجسام من خلفها وعن يمينها وشمالها وضاقت الحلقة عليها حتى لتمعسها . فأنزلت رأسها بين كتفيها وضربت بكوعيها فتفرّقوا وألقت بكلتا يديها على الحبل .

كانت تشعر بمثل السرور يدغدغ جلدها وهي واقفة أمام جثة مَن تحب . سرور غريب ، ناعم ، بارد ، لم تشعر بمثله قط ولم يخطر لها ببال أنها تشعر به على خطوتين من ميت ، فكيف إذا كان أعزّ إنسان لديها ! ولبثت ثانية عنقها ، معلّقة بصرها به ، لو بقيت الأبدية واقفة وقفتها تلك لما تحركت لها يد ، ولا انفتح فم ، ولا اضطربت في نفسها حاجة ولا شهوة ولا حسرة . فإذا أحد الجنديين قد رفع قدمه يضرب بها رأس الجثة الكبيرة ، فيلتفت رفيقه إليه زامّاً شفتيه، ثم يُنزل بندقيته عن كتفه متماهلاً ويضرب بها الرأس الآخر .

ــ آ...ع !

فوثب ثلاثة جنود إلى زينه واقتادوها إلى بعيد بحجّة أنها تشاغب، فحاولت أن تعصي فلكموها وجرجروها إلى مسافة . ولما أداروا ظهورهم لحقت بهم عائدة إلى الساحة ، فرأت الجمهور قد تفرّق إلاّ أقلّه، والنطاق قد رُفع ، ولم يبقَ من الجثتين إلا قطرات من الدم تلمع على التراب . فوقفت خائبة تتمثّل جثته كيف كانت مطروحة هنا ، وكيف كانت قدماه مضمومتين، وكيف أنحل

السجن والمرض ساقيه ، وسوّدا أصابع يديه ... وكيف قصّره الموت فجعل منه شيئاً قليلاً ... وكيف كان وجهه مغطّى ... لو كشفوا لها عن وجهه على الأقل ! « الميت قتلاً يُغطّى وجهه لهول منظره ! » هكذا سمعت أحد المشاهدين يجيب جاراً . أما هي فلا تستطيع أن تتصور وجهه إلا طافحاً بالقوة والبشاشة والجمال ، لا يزيده الدم المتشعّب عليه إلا روعة ، كما كان حينما حدّثها عن الثورة في مغارة الخورية ... لماذا لم تطلب من الجنود أن يرفعوا الغطاء عنه ؟ لماذا لم تهجم وترفعه هي لتراه مرة أخيرة ، وتضمّه أمام الناس جميعاً وتصرخ بأعلى صوتها : حبيبي ، لماذا قتلتموه ؟!

٤

قضت يومين بعد عودتها إلى البيت ساكتة ، منتحية زاوية من غرفة جدّها تنكمش فيها خرقة مطويّة . وأفاقت مع فجر اليوم الثالث تفرك عينيها كأنها خارجة من حلم . ثم تذكرت ما قاله جدّها فور وصولها ، فهالها الأمر . كان أبو سعيد يهمّ منذ زمان برهن بيته فما فعل . وها هو قد ذهب إلى إبراهيم فاخر ورهنه عنده بمئة ليرة !

« ستتبدّل حياتنا يا زينه . لن أسمح لك بالنزول إلى إنطلياس ، وأمنع خالتك من التوجه إلينا بكلمة ... وأُقفل هذا الباب بيننا وبين الدكان وأسمّره بخشبة ... وأُعطيك كل يوم ما تطبخين به طعامنا ، ونأكل وحدنا ... ونتخلّص من منّة ورده ومن فضلات العسكر ، ونستأثر بلبن الصبحا فلا نبيع منه ، ونصنع جبناً . »

طنّ رَجْع هذه الكلمات في أُذنيها ، فقامت إلى السطيحة فرأت أبو سعيد يمشي بالبقرة إلى الحقل . فلبثت ناظرة إليه حتى توارى ، ثم ساقتها قدماها فنزلت السلّم . كانت الشمس لم تطلع بعد وراء صنّين ، ففي السماء كدرة

زرقاء شفافة، وهواء ناعم يبعث في الظهر قُشَعريرة حلوة . فوقفت على باب المراح هنيهة ، ثم ارتفعت يدها إلى مفتاحه الكبير المعلّق بوتد إلى جانب العارضة ، ودخلت إلى المراح . كان الليل يحتمي فيه فلم ترَ شيئاً ، فاستهدت إلى السراج لا تفكر بما تفعل ، وأضاءته فانهزم الظلام إلى الزاوية . وحملت السراج بيدها تجول بين الحطام المبعثر ، تقف فوق هذا الكرسي المحطّم ، وذاك النول النخِر المتداعي ، وتتأمل في هذا الجرن المتربّع كالشيخ الهرم ، وتنظر طويلاً إلى كومة القش والحدائد المكدّسة في ناحية ، والخرق المطروحة في أخرى لها أشكال غريبة وخيالات ... ولمّا وصلت إلى المصطبة التي نام سامي عليها أُسبوعاً في أول عهده بالاستخفاء في ساقية المسك اضطرب السراج في كفّها ، فشدّت عليه فما ازداد إلا ارتجافاً . وانحنت تطوف به فوق المصطبة ذهاباً وإياباً مرتين وثلاث مرات . ثم نقلته إلى اليسار وبسطت يمناها فنفضت عن حافة المصطبة غباراً ... ونسيت نفسها فوقع السراج وانطفأ ، فتركته وجمدت مكانها في العتمة ما شاء لها الله . ثم خُيِّل إليها أنها تسمع كرّة دولاب وطرطقة نول . وما هي إلا أن عاد المراح إلى عهده السابق، فأبو سعيد يهيّئ الصباغ في الجرن، وهي قاعدة على النول تضرب برِجلها وتروح مع المكّوك وتجيء ، وأبوها يلمّ أثواب الديما ويرصفها تلّة كبيرة ويربّت عليها، والنساء على الباب يغزلن الخيطان ويغنّين أغانيهن ... ثم ماتت الضجة في أُذنيها ، فإذا هي في المراح بين أشيائه العتيقة وأشلائه العفنة ، وقد نفذ الصباح إليه شاحباً مكمدّاً، فخرجت .

وانحدرت مع وجهها في الوادي إلى مغارة الحورية .

٥

بعد الظهر أقبل طام من صوب بحرصاف ودخل إلى الدكان ينادي أمه لاهثاً :

— أمي ، أمي ! راسم بك يريد زينه الآن .

ـ ماذا ؟ راسم بك قال لك إنه يريد زينه !
ـ الآن ! طلب أن أرافقها إليه الآن . أين هي ؟ (وركض إلى الداخل) زينه ! زينه !
ـ على مهلك ! أنظر هل بجدّك هنا . لا تقل لها شيئاً بحضوره .
هذه نعمة من السماء ! وفركت ورده كفّيها سروراً . الضابط يريد ... ها هو إذن يتوسّل بنفسه إلى التقريب بينه وبينها . وأيّ وسيلة خير من زينه التي لا يقع بصر أحد عليها إلا جذبته سُمرتها وفتنته عيناها . وقد جاء الأمر في وقته ، فليس في قلب زينه من الحب الذي كان يشغلها من قبل ويشمخ برأسها إلا ذكرى لن تلبث حتى يحلّ محلّها النسيان . يُثبت اعتقاد ورده في ذلك خبرتها السابقة حينما كانت في أميركا ، والمعرفة التي تدّعيها تامة بالنساء وبشؤون العشق والغرام . ثم إن زينه تتأبّى من معاشرة الجنود ، وهم في الغالب غلاظ فقراء ، أما راسم بك الحاكم بأمره في المنطقة والذي يتسابق كبراء القوم وسيّداتهم إلى ابتسامة منه فسيكون الشأن معه مختلفاً .
وعزمت ورده ألا تتدخّل ... كم من مرة قالت لزينه هذا أبيض، فردّت بل أسود ! الحكمة إذن في البقاء على الحياد . وصدق حدسها ، فلم يلبث طام أن خرج مع أُخته من ظهر البيت ، فأطلّت تنظر إليهما يسلكان طريق بحرصاف ، وقد شدّ الصغير بيد زينه يستعجلها ويقفز فرحاً .

* * *

إستقبلها الضابط بعبوس لم تكن تنتظره ، ولم يكن طام ينتظر كذلك أن يبقيه خارجاً ، كما فعل به حينما عمل الفلق للجاويش كامل أفندي .
مشت إلى البهو وراءه ، ففتح باب غرفة ثمينة الرياش وأدخلها . فسألته ، كالمتجاهلة ، لماذا لا يكون أخوها معها هنا . فلم يجب ، ولم يبتسم ، ولم يدعُها إلى الجلوس ، وأدار ظهره فأوصد الباب ، ثم وقف إزاءها بقامته الطويلة وخفض إليها عينيه ، وقال :
ـ أُريد أن تفهمي قبل كل شيء أنني لا أتدخل فيما بينك وبين سامي

عاصم ، وأنت تعلمين أنني لو شئت التدخل لما وقف الأمر عندك ، بل لتجاوزه إلى عائلة كسّار من الكبير إلى الصغير . فقد كنتم تخبّئون عن عيون الدولة عاصياً ، فأنتم إذن مشتركون في الجريمة . ولكنها شفاعة طام . فلولاها ...

فجعلت زينه تتساءل ما معنى هذه المقدّمة .

— متى رجعتِ من عاليه ؟

— منذ ثلاثة أيام .

— الموقف دقيق جداً . يجب أن تشكري لي أنني وجّهت إليك أخاك حين كان الواجب يقضي عليّ بأن أُرسل جنديين فيكبّلانك بالحديد . (فنظرت إليه) على أني كنت على يقين أنك ستأتين ، وحسناً فعلتِ . أُقعدي ، اقعدي .

وقرّب إليها كرسياً . فقالت في نفسها : « ربّما كانت هذه طريقته تهديداً فملاطفة » ، فقعدت .

— كم يوماً مكثتِ في عاليه ؟

— ليلة ونهاراً .

— هل تعرفين شفيق أفندي العلايلي ؟

— لا ... أعني بلى . أعرفه ولا أعرفه . لماذا تسألني هذا السؤال ؟

— رئيس الحراس في السجن الذي كان فيه سامي . هل تعرفينه ؟

— رأيته مرة واحدة لمّا ذهبت لزيارة سامي . وسمعت اسمه لأول مرة من الناس في سوق عاليه .

— ألم ترَيه بعد ذلك ؟

— لا .

— ألم ترَيه بعد أن هرب من السجن هو وسامي ؟

— رأيته جثة هامدة .

— وسامي ؟

— كانت الجثتان جنباً إلى جنب .

— أيّ طريق سلكتِ في عودتك إلى ساقية المسك ؟

ـ الطريق الذي ذهبت عليه .

ـ أين بتٍّ ليلتك ؟

ـ في بيت صاحبته امرأة عوراء .

ـ ألم ترَي سامي في بيروت ؟

ـ . . .

ـ يجب أن تقولي لي الحقيقة . (وقطّب حاجبيه) .

ـ إذا كنت قد دعوتني إلى هنا لتسخر مني ومن لوعتي على هذا الشكل ...

ـ أمَضى عليكِ زمان طويل لم تزوري مغارة الحورية ؟

ـ . . .

ـ إذا كان سامي عاصم وشفيق العلايلي قد نالا جزاءهما من الدولة لمحاولتهما الهرب من السجن فقُتلا كما رأيتِ جثتيهما بعينيك ، فإن ذلك لا يمنع الإجراآت القانونية أن تتم . هنالك أمر تعترفين به وهو أنك كنت في عاليه ليلة هربهما .

ـ كنت نائمة ، وعرفت الخبر في الصباح من الناس الذين تجمهروا في السوق . أتريد أن تقول إنني ساعدته على الهرب ؟

فتكلّف راسم بك ابتسامة :

ـ الحقيقة أنكِ لو استطعتِ لما ترددتِ . أليس كذلك ؟

وبسط كفّه على كتفها ، فحاولت أن ترفعها ، فدنا حتى شعرت بأنفاسه على وجهها .

ـ كنت تحبّينه كثيراً ؟

فابتعدت ، فلحق بها .

ـ وهو ، هل كان يحبّك أيضاً ؟

ـ . . .

ـ أتستحين مني ؟ ... وكيف يمكنه أن لا يحب هاتين العينين !

فأزاحت كفّه عنها وقصدت إلى الباب ، فعاد إلى العبوس وقال :

ـ أنا أفتح لك . إصبري ، سأفتح لك . تذهبين الآن وتبقين في البيت ، فقد أضطر إلى دعوتك غداً استكمالاً للتحقيق .

وخرجت ، فطلع في وجهها خليل المعلاّ ! ولكنه أدار ظهره عجلاً وسوّى نظارتيه متظاهراً بالتحديق إلى صورة في الحائط .

فلمّا توارت مشى إلى راسم بك وقال :

ـ سمعتَ الحديث كلّه ... أرأيتَ أن الحقّ معي ؟ حاولت إقناع رشدي بك فلم يقتنع . سامي عاصم ليس مجنوناً ، وإذا كان مجنوناً فما أظن شفيق العلايلي يجاريه . هل فهمت الفتاة شيئاً ؟

ـ لا ، لا . إن هيبة الدولة تتوقف على هذا الأمر .

ـ هيبة الدولة ، كم مرة أنا أنقذتها !

ـ ثلاث مرات ، أليس كذلك ؟

ـ بل أربع مرات . هُ هُ ... يا حسرتي عليك يا خليل المعلاّ ! يا حسرتي ! يا حسرتي ! هُ هُ ! سيكون عليّ كثيراً أيضاً !

ـ وأنت تضحك مع رفيقك .

ـ الضاحك هي الدولة العليّة يا راسم بك .

فتنكّب الضابط عنه ثم قال :

ـ الحقيقة أن قلبي رقّ لها .

ـ هُ هُ !

ـ لماذا تضحك ؟

ـ قلت لك سمعت الحديث كلّه . ستدعوها إلى هنا غداً . هُ هُ .

وطلع على الشرفة وأشار بإصبعه :

ـ أُنظر ، انظر ، وقُل أليست جميلة ؟

كانت زينه تمشي مخفوضة الرأس ، غارقة في تفكير عميق . فكرر طام سؤاله للمرة العاشرة :

ـ أُختي ، أُختي ، ماذا قال لك راسم بك ؟ إذا كان قد ضربك فسأنتف

له شاربَيه غداً. أقعد في حضنه وأتظاهر بأنني سأفتلهما له هكذا (وبرم بأصابعه) وأشدّ!

ـ لو كنت أكبر مما أنت يا طام!

ـ لماذا أكبر؟

ـ هل تحب سامي؟

ـ كنت أحبه كثيراً. هل قتلوه... أعني أنه لن يقوم أبداً؟

ـ أبداً، يا طام.

ـ لو ذهبتِ حالاً، حالاً عندما رأيتهِ في عاليه ونشّقتهِ شيئاً! ربّما كان مغمى عليه مثل جارنا الذي أخذوه إلى المقبرة على المحمل فقام في الطريق!

ـ أترافقني يا طام إذا أردت أن أروح إلى بعيد، إلى بعيد؟

ـ إلى أين؟ إلى إنطلياس؟

ـ سامي كان يقول لي... ولكنّك ما تزال ولداً.

ـ ماذا كان يقول لك؟

ـ أنت لا تفهم هذه الأمور. غداً تصير شاباً.

ـ قولي لي، ماذا كان يقول لك سامي؟

ـ لا شيء، لا شيء... أنا مجنونة!

ـ سأقول لجدّي. جدّي يخبرني.

ـ وجدّك أيضاً ليته كان أصغر مما هو!

ـ جدّي كبير، وأنا صغير! تحيّرين أنتِ يا أُختي، أعني تريدين واحداً مثل سامي؟

ـ ...

ـ لن تجدي. الخواجه سامي ما له مثيل في الدنيا... أُختي أُختي، جاء جدّي!

وكانا على أمتار من البيت، فالتفتت فرأت الشيخ يدفع عصاه مسرعاً، فبادر إليه طام يلاقيه، فشال أبو سعيد بحاجبيه، فلمّا وقع بصره على زينه

انحنى يبوس الأرض . ثم أخذ يلومها على طيشها وقلّة تفكيرها بالعواقب ، وأراد أن يشفي غليله فصفق بالعصا على قفا حفيده وأنذره لا يطأ صوب بحرصاف بقدم ولا يزر الضابط إلى الأبد !

ولمّا اختلى بها في غرفته أخبرته بما جرى لها، فأحكم الخطة لإبعادها عن راسم بك إذا كان من غد ووجّه بطلبها .

٦

كان بيت كسّار بيت تقى وصلاة ، لم يتجاوز الدنس الصالون الذي جعلته ورده دكاناً ، ولم تمدّ الرذيلة إصبعاً من أصابعها إلى فكر أو عاطفة عند أبو سعيد وزينه وطام . فلمّا طلع الصباح أرسل الشيخ حفيدته إلى المخبأ الذي اتفقا عليه ، ثم خرج بالبقرة مع طام إلى الحقل ليجمعا الأزهار للمسيح.

كان اليوم الجمعة الحزينة . وللجمعة الحزينة شأن في القرية يتعاقب كل سنة ، لا يذكر أبو سعيد أنه فاته منذ طفولته مرة واحدة . كان ينطلق مع رفاقه وهو صغير ، ومع أفراد عائلته لما كبر وتزوّج ، حفاة في مباذلهم وثيابهم الرثة ، لا يتأنّقون ولا يتزيّنون إماتة لكبريائهم ، تغرز الأشواك والحجارة في أقدامهم فيجدون لوخزها لذة الإيمان وسعادة مشاركة المسيح بآلامه، ويوافيهم صبيان القرية وصباياها، ورجالها ونساؤها، يتسابقون جميعاً الى الزهرة الجميلة ويباهون بعضهم بعضاً بالباقات المنوّرة الفوّاحة .

أما اليوم فإن أبو سعيد يمشي من الوادي المستوحش إلى الرابية القفراء وليس إلا طام والصبحا ، وهيكل فرس عظمي يلمع على الشمس ... قد قعد همّ الرغيف بمَن قعد في بيته، ونفر بمَن نفر إلى بيروت وزحله وحوران، وقتل البقية فما يجد الفادي العظيم من يُعدّ كفنه .

كان يصعد ويهبط، ويتزحلق ويتسلّق، فلا يقع إلا على شقّيقة ملويّة هنا ، وبنفسجة مدعوسة هناك ، وريحانة مقصوصة عن جذور ما تزال جراحها

سائلة . كأن الربيع ، خير الأرض ، ذهب مع سائر خيراتها ، ما عافه الجراد أو لم يقدر عليه أتى عليه الأتراك وبغالهم . إلا الشوك والعوسج ، وبضع نباتات عاصيات ، ما لهنّ اسم ، اعتصمن بصخرة عاتية أو استخفين بدغل من الأدغال ، منتظرات يداً تقية في يوم الجمعة الحزينة .

وقف الشيخ ، وليس في يده إلا باقة هزيلة ، يسرّح نظره في العراء ويطوي نفسه إلى الماضي ، عهد الأرض في عرس ، يضحك وجهها بالزهر من كل لون ، وتزقزق عصافيرها بأغاني الحياة ، ويهينم نسيمها متموجاً على بساط من سندس يلفّ الرابية ويمتد إلى السفح فالوادي ، غاسلاً طرفه بالساقية . حتّى الساقية جفّ ماؤها ، وأسن ما تجمّع منه في البرَك ، وفاحت رائحة النتن القاتلة من جثث الحيوانات ، تموت فيلقيها العسكر في الوادي . حتّى السماء تنكّر وجهها فاربدّ بعد صفائه ، ومشت فيها أشلاء غيوم وراء أشلاء . وسكون في الجو كسكون القبور لا يصفّق فيه أبو حنّ ، ولا يلوّنه حسّون بريشه . ليس إلا قرد الهيش في العلّيقة القريبة الحاضنة الصخر ، عصفور صغير شائخ يتنقل بين القضبان تحت قدمَي أبو سعيد ، تاركاً على كل قضيب شيئاً من زغبه ، يتطلّع إلى السماء من خلال شبكته ويخفض دونها منقاره .

ورفع الشيخ حاجبيه يتفقّد الصبحا فلم يجدها ، فنهض ونادى :

— طام !

فردّ الصبي وتعانقت أصداء الصوتين . ثم انطلق كل منهما في جهة وراء البقرة . وما زالا يسعيان حتّى لحاها في الكروم ، فلحقا بها فاذا هي في « النقبة » . والنقبة اسم أطلقه أبو سعيد على كرمه منذ عشرين سنة حين نقب أرضه فجدّد شبابه ونصب قبابه ، حتّى صار أحسن كرم في المنطقة وذهب له صيت في الكروم .

هذا الكرم وحده يساوي مئة ليرة ذهباً ، وابراهيم بك فاخر يسترهن البيت والتوتات التي أمامه ، والكرم والحقل الذي في طرفه بمئة ليرة ورقاً ! ورطل الطحين بليرة قبل أسبوعين ، وبليرة ونصف اليوم ، وبليرتين أو ثلاث بعد

شهر ... وإذا طالت الحرب، ومَن يدري متى تضع أوزارها ، واستحقّ الرهن فلم يتمكن من دفع المبلغ وفائدته الثلاثين بالمئة ، فهل يكون معنى ذلك أنه سينفض يده من الكرم والحقل والتوتات والبيت إلى الأبد ؟

ومشى في الكرم ، قد فعل به الأتراك ما فعلوه بالحقول . قصّوا أشجاره وسلّطوا بغالهم على عرائشه قضماً ووطأ ، وخرّبوا حافاته التي رصفها بيديه حجراً فحجراً ، فتكوّمت الحجارة تلّة هنا ، وتبعثرت فرادى في موضع آخر ... ولولا شفاعة طام لدى الضابط لشقّوا فيه الخنادق كما شقّوها في الكروم المجاورة خطاً معوجّاً يمنطق القرية بسخرية الدفاع عن الوطن إذا هاجمه العـدو ! وجعل يرفع حجراً إلى محله ، ويُخرج وجه عريشة إلى النور ، ويهز برأسه حزيناً .

ثم استكفّ إلى الشمس ، ودعا حفيده أن يسوق الصبحا . فدار الصبي خلفها ، فأبت أن تنزع شفتيها عن الأرض ، فضربها ، فأصرّت ، فاستعان بجدّه فأقبل بعصاه وصفقها على ظهرها ، فرنّت الصفقة على عظامها رنّة خرساء ومالت برأسها إليه ، وعادت تجرّ لسانها على الأرض وقد ألحّ بها الجوع فما تجد عشبة . فأدركته لها رقّة فمسح بكفّه عليها ، قد نتأت في ظهرها وكتفيها وعجزها رواب صغيرة ، وانخفضت ما بينها أودية عميقة ، وبرزت أضلاعها فالعين تأخذها عدّاً .

وقبل أن يصل أبو سعيد إلى البيت عرّج على أحد الدكاكين فاشترى رطل شعير ووضع منه مقداراً في معلف الصبحا وقال لها :

– تأكلين مثلما نأكل ، ويفرجها الله !

وحمل طام باقتي الزهر وقصدا إلى سيدة المعونات .

– متى يطلع المسيح إلى السماء ، يا جدّي ؟

– في اليوم الثالث . يتدحرج الصخر عن القبر فيقوم من بين الأموات كما جاء في الكتب .

فتألّقت عينا الصغير ابتهاجاً ، وسار بضع خطوات ثم قال :

– جدّي ، جدّي ! هل مات المسيح من الجوع ؟ ...

ولمّا وصلا إلى الكنيسة لثم الشيخ جدارها ودخل مشيراً إلى حفيده أن يسبقه فيضع الباقتين على المذبح ، فمشى إلى المذبح ووقف يحدّق بغيرة إلى باقة كبيرة أخّاذة الأشكال والألوان . ولكن الثلاث الأخريات أدخلن إلى قلبه العزاء ، فوضع ما في يده وانكفأ . فإذا في وسط الكنيسة رجل قد أكبّ يصكّ جبهته بالبلاط ثم يرفع عينيه وذراعيه إلى العلاء ضارعاً بصوت عالٍ ، ثم يقرع صدره قرعاً شديداً ليعود إلى عضّ الأرض ! فأقبل طام وئيداً حتى ركع بجانب جدّه وعيناه لا تفارقان الرجل . ثم جأر المصلّي « يا ربّ ! » فلم يستطع طام حبس ضحكته ، فحدّجه أبو سعيد مؤنّباً ، فعاد إلى الوقار .

ولما استكمل الشيخ صلاته قام ولحق به حفيده ، فلم يصيرا إلى الباب حتى سأله :

— جدّي ، هل رأيت الباقة الكبيرة ؟ لمَن هذه ؟

— للذي كان يصلّي وضحكت منه .

— ومَن هو ؟

— ابراهيم بك فاخر .

٧

رجع أبو سعيد توّاً إلى المراح . وشدّ ما كانت دهشته إذ نظر فلم يجد البقرة فيه ، ووجد معلفها مقلوباً وراويتها محطّمة ، فطار صوابه فخرج يدور حول البيت فإلى الدكان :

— الصبحا ، أين الصبحا ؟

فضحكت ورده ضحكة استهزاء وسألته بدورها :

— أين زينه ؟

ثم أخبرته أن راسم بك وجّه جنديين بطلب زينه ، فأجابته أنها لا تعلم أين هي وأن جدّها ذهب بها . فانصرفا ثم عادا ومعهما الضابط ففتّشوا في

البيت ونزلوا إلى المراح وساقوا البقرة وقال الضابط : « تبقى عندي رهينة إلى أن تأتوني بزينه ! »

كان الشيخ لا يستطيع أن يتصوّر دنياه خالية من الصبحا ، فهي الذكرى الباقية من ماضيه، يتوكّأ عليها ويجرجر أيامه العاجزة ناشقاً من أنفاسها رائحة شبابه وعزّه . فلمّا سمع من كنّته ما سمع نكّس رأسه ونزل إلى المراح فوقف إزاء أشياء البقرة كاسف البال ، يفكر بالضابط أين يضعها عنده وماذا يطعمها، وهل يُبقي عليها أو يذبحها . وكان يعلم أن هذه ليست بالمرة الأولى يلجأ فيها راسم بك إلى مصادرة حيوانات الناس . سبق له أن استولى على كديش ابن عمّه طانيوس كسّار ، وبغل جاره ، وثلاثة حمير لبعض المكارين ، باسم التكاليف الحربية . فتشرّد المكارون بعد حميرهم ومات صاحب البغل جوعاً . أما طانيوس فعرف سبيله إلى الانتقام . وها هو ، منذ أن سُلب كديشه ، يغزو مستودعات العسكر بالتواطؤ مع كبارهم ، فيسلّمون إليه تحت جنح الظلام أكياس الشعير بالعشرات ، فيقضي الجوع كل أُسبوع على أربعة أو خمسة من خيل الدولة مقابل ذلك الكديش العاجز .

وكان أبو سعيد قد خبّأ حفيدته عند طانيوس لبعد بيته ولبأسه ودهائه وكثرة مداخله ومخارجه . فعزم على الذهاب إليه لإطلاعه على ما جرى ، لعلّ له رأياً .

* * *

وذاع خبر الحادث ، فلهج الناس به يتساءلون أيترك أبو سعيد بقرته أم يفديها بزينه ؟ ورآه بعضهم في اليوم التالي يدور حول منزل الضابط ويقف قبالة الصبحا على باب القبو ، فقالوا : البقرة أحبّ إليه ! وانتظروا أن يسلّم زينه . ولكن اليوم الثالث انقضى والصبحا ما تزال معتقلة ، فقال قائلهم : سيزوّج زينه من ابن عمّه طانيوس فيكفّ الضابط عنها ويفلت البقرة . وقال آخرون : بل تتولّى ورده تسوية المشكل فترضي راسم بك بما تملك من أساليبها ! ... إلى غير ذلك من حلول كانت تصل إلى أذني الشيخ فيقاسي من أجلها عذاباً كبيراً .

وطال الحبس على الصبحا فرأى أبو سعيد أن يقوم بمسعى ، فوجّه طام إلى الضابط يزعم له أن زينه هربت من ساقية المسك وأن جدّه بذل فوق الطاقة لمعرفة مقرّها فلم يُوفّق ، وأن البقرة لا يرعاها أحد فهو يخشى عليها الموت ، و « حرام أن تموت بقرة مثلها » ، فليؤذن له على الأقل أن يقوم على العناية بها ، ولراسم بك لبنها كلّه في الصباح وفي المساء .

على أن المسعى أسفر عن نتيجة معكوسة . فقد رجع طام باكياً بين جنود ثلاثة هجموا على أبو سعيد وأمروه بأن يحمل معولاً ورفشاً من عنده ، وصاحوا به :

— امشِ أمامنا إلى كرملك !

فلمّا وصلوا إلى الكرم التفت فإذا جنود كثيرون يشقّون فيه خندقاً . وتسلّمه جاويش يرئسهم فأجبره على المساهمة في العمل تحت وابل من التهديد والشتم والضرب .

* * *

وكان الضابط يأتي إلى الكرم مرة أو مرتين في اليوم فيسأل الشيخ عن زينه ، فيصرّ على الإنكار ، فيبصق في وجهه ويأمر الجاويش بجلده على مرأى منه : واستمرّ ذلك أسبوعاً وأبو سعيد يتحمّل عذابه راضياً ، وحسبه أن ألقم الثرثارين حجراً وبقيت حفيدته في منجى .

على أنه فوجئ ظهر يوم ، وهو يتناول غداءه في البيت ، بجنديين يسوقان الصبحا إليه فهبّ مبهوتاً يسألهما ، فتبادلا ابتسامة وقفلا . فترك الطعام وأسرع إلى بيت ابن عمّه ، فاستقبله طانيوس على الباب كأنه كان ينتظر قدومه وقال له :

— زينه عند راسم بك !

٨

كان فرح الضابط لا حدّ له .

زعمت له أن جدّها هو الذي أوفدها ، لا طمعاً بالبقرة فهي هدية منه

إليه ، بل تشرفاً بالقائد الكبير والحاكم الخطير . وكانت تتكلم خافضة رأسها وفي صوتها ارتجاف . ولم يكن ذلك إلا ليزيدها إغراء ويزيد راسم بك تشوّقاً إلى التمتع بمحاسنها المصونة ، فاندفع ينثر الوعود الطيبة ، ويبسط حبه في عبارات مختارة ، ويكشف بين هذا وذاك عن مخبّآت طبعه، حتى وقع في ذهنه أنها استأنست به ، فرفعت وجهها إليه وابتسمت ابتسامة الاطمئنان ، فكاد يطير فرحاً ، وقام من فوره يريد أن يقفل الأبواب ويطرد الحجّاب ، ولكنها استمهلته إلى الليل وأرسلت إليه غمزة ! فوثب لعناقها ، فردّته بدلال . ومضت في البيت ترتيباً للأثاث ونفضاً للغبار ، تضاحكه فيغابث ، ويطاردها فتداور ، حتى أرخى الظلام سدوله .

قالت :

– لا يخدمك في البيت سواي .

– ليس عندي إلا جنديان : الطباخ والحاجب . وقد صرفت الحاجب ، فهل أصرف ...

– لا أريد أن يزعجنا مخلوق .

– ومَن يصبّ لنا كأس العرق ويهيئ العشاء ؟

– قلت لك أنا أخدمك . ألا تحب أن أخدمك بنفسي ؟

فقام وعمل بما شاءت . ورجع حاملاً طبقاً عليه زجاجة وأقداح وفاكهة ، فانتصبت وأخذته منه فحطّته على المائدة ، فحمله من جديد وأشار إليها أن تتبعه ، حتى وصل إلى غرفة نومه فألقاه على السرير ضاحكاً وقال :

– هنا !

وجلس ، وضرب بيده ليُجلسها على حضنه فتمانعت ، ثم وقعت عليه وقعة واحدة فطوّقها بذراعه فانفلتت منه وتناولت قنينة العرق :

– لعن الله خالي ، عوّدتني الشراب !

– أتلعنينها من أجل ذلك ؟ الشراب حياة الإنسان . أنا إن لم أشرب في اليوم الواحد زجاجتين مثل هذه فليس اليوم من عمري. ألك هذا القدح أم لي؟

— لي أنا .

ورفعته مشمئزّة :

— أفّ لهذا الجندي الذي يخدمك ! لا يغسل الأقداح .

وقامت بقدحها ، ثم حملت القدح الآخر وقالت :

— أتعلم بماذا يُغسل القدح ؟

— . . .

— بما وُسّخ به !

— العرق ؟ (وضحك) .

فضحكت ، وتناولت الزجاجة أيضاً وذهبت إلى المطبخ فحاول أن يلحق بها .

— لا تزعج نفسك . أمّا قلت لك أنا الخادمة هنا ؟

— بل سيدة البيت .

— إذن تبقى !

فكتّف يديه ومدّ بفمه إلى ابتسامتها حتى اختفت وراء الباب .

ومضت دقيقة فنفد صبره فهتف :

— أأقوم وأساعدك ؟

— لا . لا !

ومضت دقيقة أخرى :

— إنك تضيّعين هذا الوقت الثمين .

— سترى أنني لم أضيّعه .

وجاءت تحمل بيسراها كأساً وباليمنى الكأس الثانية والزجاجة . فنهض يلاقيها ، فأدنت يمناها فتناول منها الزجاجة والكأس وقعد مكانه وجذبها إليه ، فقالت :

— نشرب أولاً .

وقرعت قدحها بقدحه . فلم ينزعه عن شفتيه إلا فارغاً .

— ما لكِ لم تشربي ؟

فانتفضت ثم ضحكت :

– كنت أحب أن نتناوب الشرب من القدحين ، فمن هنا مصّة ومن هنا مصّة .

– هاتي إذن .

وشرب من قدحها فشربت بعده ، فشرب أيضاً . ثم أرسل ساعده فلفّها به وألقاها على صدره ، فاستسلمت لقبلته في سعادة من غير هذه الدنيا .

– صبّي لي . العرق من يدك أطيب .

فصبّت ، فقال :

– كانوا يقولون لي إن بنت كسّار جميلة فلا أصدّق .

– مَن قال لك ؟ طام ؟

– لا . طام لا يفهم بهذه الأشياء ولا يهمّه إلا الزبيب والجوز .

– خليل المعلاّ ؟

– ولكنه قال لي أيضاً إنك تحبين ، أو كنت تحبين ... رحمه الله الآن ! رحمه الله ، أليس كذلك ؟ (وأفرغ كأسه) صبّي ، صبّي ! أحسّ بحلقي ناشفاً لا ترطّبه إلا الكأس العاشرة .

– الواقع أن هذا العرق حادّ . أنا أيضاً أحسّ بشيء في حلقي .

– بل هذا أحسن عرق ! أثّر فيك كلامي . أريد أن تشربي . إشربي ! إشربي ! كان عليّ أن لا أفتح حديث سامي ، المرحوم سامي ! أمّا تزالين غضبانة عليّ من أجل الأسئلة التي طرحتها عليك يومذاك ؟ صدّقيني ، كنت مضطراً بحكم القانون ... القانون لا يراعي أحداً .

– أنا أفهم موقفك جيداً . والحقّ أنك كنت لطيفاً .

– تصوّري ، تصوّري يا زينه . أنا ضابط في جيش الدولة أشرب الخمر مع حبيبة ثائر على الدولة ؟ صحيح أن هذا الثائر قد لقي جزاءه كما رأيت بعينيك ... ولكن ما لنا ولهذا .

وقذف كأسه إلى جوفه ثم قال :

ــ أين كنّا من الحديث؟ آه! لماذا انقطع طام عني؟ لولا طام... لولا طام... ألا يزال العسكر يسكرون ويقامرون في الدكان؟ خالتك تعتقد أنني أجهل كل شيء... وأبو زيد؟ كيف حال أبو زيد بعد الديوان العرفي؟... أف! ما هذا العرق؟ إن صدري يشتعل.

ــ لا تشرب من هذه القنينة. أخاف أن يكون فيها شيء. أمّا عندك غيرها؟

ــ بلى.

وقام يتهادى فأمسكته.

ــ أتركيني. أتركيني!

ومشى إلى الخزانة مردداً بقوة:

ــ أنا لا أسكر من العرق! (فاضطربت من أُمّ رأسها إلى أخمص قدميها) أنا لا أسكر من العرق! أبداً! أبداً! أنا لا أسكر.

ولكنه لمّا دفع بالمفتاح أبعده عن ثقبه شبراً. فتناولته وفتحت. فأدخل يديه الاثنتين فترامت القوارير والأقداح بعضها على بعض بقرقعة عظيمة. ثم مال فإذا عيناه تجحظان، فكادت رباطة جأشها أن تخونها. فإذا به يقهقه عالياً. ثم انحنى إلى زجاجة وهتف:

ــ هذه!

وأهوى بكفّه على أختها! ورفعها إلى فمه، فقالت:

ــ هات، أنزع لك السدّة.

فلم يفعل، وشدّ عليها بأسنانه فنزعها. وظلّت القنينة تقرقر فوق شدقيه حتى أنصفت، فتلمّظ هاتفاً:

ــ ها! هذا هو العرق الزحلي الطيّب.

وعاد فاستلقى على السرير:

ــ لو نفتح شبّاكاً. أحسّ بحرّ شديد.

فتهيأت للنهوض، فأردف:

— إبقي هنا . بل أفكّ طوقي . يجب أن أفكّه .

وطفق يصاول طوقه فما تستقرّ أصابعه على زرّ ، فدنت تعاونه فضمّها إليه ، فقالت :

— تفكّ طوقك قبل كل شيء .

— وسترتي هذه ، إخلعيها عني .

— وسترتك أيضاً !

— وطماقتي ، وكل ما عليّ ... كل ما عليّ !

— هوه ، هوه ! أخاف من هذا .

فثنى عنقه وقال :

— الـ .. مسد ... س . ! احذري ! إنه محشو !

فتناولته في سيره الجلدي اللمّاع ، ثم نزعته من غلافه برفق ، فسرت من حديده البارد إلى أصابعها رعشة هائلة . ونظرت إلى راسم بلك وقد أغمض عينيه وفغر فاه ... وخيّل إليها أنه يتحرك صوبها ، فهمّت ! فإذا به يردّ اللحاف عليه فلم تعد تسمع إلاّ خنينه وخفقات قلبها . فعزمت ألاّ تتحرك حتى تأتي ساعته .

— أين أنتِ ؟ تعالي .

فوضعت المسدس على المكتب وخطت إليه مسحورة ، واتّكأت على حافة السرير ، فشدّها إليه ، فأحسّت بحرارة فراشه ناراً تدخل إليها حتى الصميم وتطلع شعلاتها إلى وجهها فتحرقه .

— ها ها ! لو كنت سكران لأخبرتك أشياء عن سامي عاصم . ولكني لست سكران . انتهى كل شيء . لقد استرحت . استرحت . ألا ترين أني استرحت ؟ ولو كنت سكران لأخبرتك أشياء عن خليل المعلاّ . تُضحك ... تُضحك ! مات خليل المعلاّ — يا حسرتي عليك يا خليل المعلاّ ! — أربع مرات ! ولكن لا أستطيع أن أُخبرك عن خليل المعلاّ وحده لأن خليل المعلاّ ... ها ها ها ! لست سكران ... لماذا تعودين إلى حديث سامي عاصم ؟ قلت لك

دعينا منه . سامي عاصم خائن الدولة ! خائن ! خائن ! خائن ! ... في الواقع أنني أحسّ بشيء . عطشان ! عطشان ! أريد أن أشرب . تعالي . قرّبي هذا الوجه ... لن يبرّد عطشي إلا قبلة من هنا ، من هنا ! ... آه ... آه ... آه ! قومي ، أعطيني الإبريق ... الإبريق ! إن أمعائي تتمزّق !

فانسلّت من السرير ووقفت تدور بيدها خلف ظهرها وتتلمّس بها على المكتب . ثم برقت عيناها وحدّثتها نفسها للمرة الثانية أن تضع حداً لهذه الأزمة التي لا تنتهي . ولكنها لم تفعل وهرولت إلى المطبخ .

وجمدت وراء بابه تُنصت حابسة أنفاسها .

— الإبريق ... الإبريق !

فلم تتحرك . وعقب ذلك صمت طويل . فلم تشكّ أن الساعة دنت . وأخذ يدغدغها سرور أشبه شيء بالنشوة . وأطلّت برأسها على عارضة الباب ، فإذا به يزحف نازلاً عن السرير ، يقبض بطنه بكفّ ويبسط الأخرى إلى سترته المعلّقة على الكرسي ، وقد توثّبت على وجهه تهاويل من عذابه زرقاء ، حمراء ، سوداء ، وكشّر عن أسنانه . فلم يبقَ لها أن تتردد فتناولت الإبريق ومشت إليه . فحاول أن يُسند مرفقه إلى حديد السرير ، فسقط على الحضيض ، فابتعدت .

— قرّبي ! قرّبي الإبريق !

فقدّمت الإبريق ، فاختلجت أصابعه إليها . ثم جعلت عيناه تكبران ، وهي تقدّم الإبريق شيئاً فشيئاً ، حتى إذا استشعر أنها على متناوله وثب هادراً :

— سمّ ! سمّ ! سأقتلكِ !

ولكنه قبل أن يتمكّن من شمالها كانت يمينها قد أطلقت الرصاصة الأولى فالثانية ، فانطوى على قدميها ، فتراجعت تنظر إلى الدم يدفق من جبهته وصدغه نبعتين فوّارتين .

وتقلّصت ساقه العارية المكسوّة بالشعر .

ثم انبسطت على البلاط البارد وهدأت ...

* * *

في ساعة متأخرة من الليل قُرع الباب المطلّ على السطيحة من بيت كسّار قرعاً متداركاً فقام أبو سعيد وفتحه ، ولم يكد حتى اقتحمه شخص بلباس عسكري، فظنه الجاويش فهتف به :

ــ كامل أفندي ! ما يجيء بك في هذه الساعة ؟

ــ أنا زينه ! يجب أن تخرج معي في هذه الدقيقة ، وربّما لن نعود أبداً ! إحمل المال فقط واترك كل شيء .

ــ ماذا عملتِ يا زينه ؟

ــ سأخبرك عندما نبتعد من هنا . كنت أُريد أن أكتفي بالسمّ، أما وقد اضطررت إلى الرصاص فلم أرَ بداً من أن أمرّ بك . أخاف أن يأخذوك بي.

ــ زينه ! زينه !

ــ عجّل ! عجّل !

ــ وطام ؟ ماذا نفعل بأخيك طام ؟

ــ طام صغير ... وخالتي تتدبّر أمرها . أين طام ؟

فأخبرها أن الصبي ترك أمه ونام معه لأنها ضربته لرغيف أخذه من الدكان دون علمها ، فاشترى له كعكة . فأضاءت المصباح ، ومشت إلى الزاوية تتأمل في أخيها . كان شابكاً يديه على الكعكة وقد أدناها إلى فمه لم يمسّها بعد بأسنانه . وكانت خصلة من شعره الأسود مسبلة على جبينه ، فانحنت تردّها بأطراف أصابعها وتتمتم :

ــ لن آخذك معي يا طام .

وعادت تتأمل فيه ، ثم :

ــ هو ما قلت لي يا طام : أنت صغير وجدّك كبير .

ومسحت بشفتيها موضع الخصلة من جبينه .

٩

طلع الصباح ...

واكتظّ العسكر في منزل الضابط ، ومشى الخبر من بحرصاف إلى ساقية المسك الى بكفيّا والمحيدثة أن راسم بك مقتول في غرفته .

ودهم الجنود البيوت وجاء الفريق الأكبر منهم إلى بيت كسّار بصحبة طاهي الضحية ، ففتّشوا وبعثروا وحطّموا وداسوا ونهبوا . كل ذلك على مشهد من ورده ومسمع ، تحاول أن تردعهم عن الدكان وترتمي على أقدامهم متوسّلة حيناً وتنبش شعرها مولولة حيناً آخر . حتّى ضاق بها أحدهم ذرعاً فضربها بعقب بندقيته عـلى يأفوخها فوقعت مُغمى عليها ، فانحنى يصفعها ففتحت عينيها وقامت متهادية ، فأعاد عليها الكرّة لكماً على ظهرها . وسحبوها وطام إلى الثكنة .

بدأ هذا الحادث عهداً جديداً في حياة طام لم يكن يتوقع من غرائبه شيئاً ، ولم تكن نفسه البريئة قد تهيأت بعد لتحمّل فظائعه وموبقاته . فكأن الأيام التي تتدرّج بالناس في دنياهم تدرّجاً ، فتقطع بهم أنجادها وأوديتها على مراحل محسوبة ، شاءت أن تشذّ به عن القاعدة فتناولته كما يمسك الراعي حصاة بمقلاعه ، وقذفته من علٍ قذفة هائلة ، فلم يرَ نفسه إلا وسط المعركة لا سلاح لديه من قوة أو خبرة ، ولا تمتدّ إليه يد بمعونة .

وصلوا به وأمه إلى الثكنة فاجتمع عليهما العسكر ، ووقع نظره على كامل أفندي فصرخ إليه ، فتنحّى الجاويش وابتعد . واستمرا يمشيان محثوثين بالشتم والضرب ، إلى أن وقفوا بهما على عتبة غرفة فيها ضابط لم يرَ طام له وجهاً من قبل . وتقدّم الضابط فكلّم الجنود بالتركية فأدخلوا ورده إليه ، وساقوا ابنها إلى حجرة مجاورة وأغلقوا عليه الباب .

كانت الحجرة خالية ليس فيها إلا حقائب محطّمة وأكياس فارغة مع بعض أحذية ضخمة عتيقة . وكان أكثر ما أقلقه إبعاده وإفراده ، فالتصق بالباب يقرعه وينتحب عالياً ، فانفرج فجأة ودخل جندي وصفعه بلا شفقة ، وخرج .

ومضت دقائق طويلة يخنق فيها الصبي عذابه ويترك دموعه تنهمر على خدّيه صامتة هادئة . ثم إذا خبطٌ على الباب ، وما هي حتى اقتحمه جنديان يدفعان ورده من ظهرها فوقعت على الأرض، فحاول أن ينحني إليها، فاجتذباه وساقاه إلى الضابط ، فوقف بين يديه يرتعد كالقصبة في الريح ولا يتجاسر على رفع بصره .

أخذه الضابط باللّين أوّلاً ثم بالشدّة ، فلم يستطع أن ينيره بشيء ، فأمر بإخراجه ، فوضعوه في حجرة خاصة قضى فيها ليلته فريسة الخوف والألم . وفي الصباح جرّوه إلى الضابط مرة أخرى فصفّ أمامه قطعاً من الحلوى ، فلم يمدّ إليها يداً على شدة جوعه وذوبان قلبه على واحدة . فأوّل امتناعه بأن لديه سراً يخفيه ، فألحّ عليه ، فلم يأكل ، فتناول عصاً وانهال بها على ساقيه حتى كاد يهلكه .

ولكن أتعاب الضابط ذهبت سدى ولم ينتزع من الصبي إلا صراخاً واسترحاماً ودموعاً ، فأمسك عنه . وجاء الجنود فأخذوه عند أمه . وشدّ ما كانت دهشته إذ رآها تستقبله بالضحك منبوشة الشعر زائغة البصر ، فارتمى يلتمس في حضنها العزاء عمّا أصابه، فقذفته وقامت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وتخاطب نفسها بكلمات غير مفهومة، وهو يلحق بها ويتمسّك بأذيالها فتهرب منه وتعود إلى القهقهة .

في اليوم الثالث قرنوا شمالها إلى يمينه بحبل، ووضعوهما في طنبر من طنابر العسكر وساروا بهما في طريق لم يمرّ عليه طام في حياته . وكانت ورده تغفو تارة ثم تنتبه فتشدّ بالقيد محاولة الانفلات فيهوي عليها الجنود فتهدأ... وظلّ الطنبر يكرّ بهما نزولاً حتى أظلم الليل . ولقد برّح العطش بطام فطلب من الجنود أن يسقوه من القُربة الكبيرة التي معهم فلم يردّوا عليه . ثم اجتمع عليه الجوع والبرد فاحتمى بصدر أمه النائمة يرتعش وتصطكّ أسنانه، والطنبر يهبط في الأخاديد ويعلو على تلك الطريق المخرّبة برجرجة تخلع قلبه وتقضّ عظامه ، حتى خُيّل إليه أنه في رحلة لا نهاية لها .

* * *

وزُجّ طام وورده في السجن.

وتكررت رواية التحقيق بفصليها لطفاً وشدة.

على أن أفظع ما آلم الصغير أنه أصبح ابن مجنونة! وتطور جنونها فلم تعد تضحك ولم تعد تتمتم، بل تلتزم الصمت وتنتبذ ركناً تقعد فيه مسددة إلى الأرض عينين فارغتين. وتأتيها النوبة بين ساعة وساعة، فترفع إزارها إلى وجهها وتزغرد بأعلى صوتها:

— للللللي!

تقوم الزفّة في الصباح، وعند الظهر، وفي المساء، وفي منتصف الليل أحياناً. فيجتمع عليها السجناء هازئين، ويتحرّش بها خبثاؤهم وتقوم المشاجرات بينهم وبينها فيتدخل طام، ويتدخل حارس السجن، ويتكرّر الشأن كذلك حتى يغلبها النوم.

وكان في القاووش نحو من عشرين سجيناً، يختنق الجو بأنفاسهم وروائحهم، وتحفل أرضه بأقذارهم، فهي لزبجة عفنة أشبه بزريبة الخنازير. إذا كان النهار تمنّى الصبي الليل تخلصاً من مأساة أمه، وإذا كان الليل تمنّى النهار تخلصاً من البقّ والقمل والبراغيث.

وكان بين السجناء رجل شرس يهابونه، يقال له كركور. وكان يتولّى تنظيمهم وقيادة الحملات على المجنونة. يرتّبهم صفاً ويشير عليهم بالسكوت، ثم يختلس الخطو من ورائها فيفاجئها بقبلة، فتهبّ غاضبة مرسلة من الشتائم أفذعها، لاحقة به من الحيط إلى الحيط، والسجناء يحرّضونها ويضحكون، حتى يمدّ لها أحدهم قدمه فتعضّ الأرض. وقد يدخل السجّان مهدداً فلا يقع بصرها عليه حتى ترفع إزارها:

— للللللي!

فما يتمالك من الابتسام، وترتجّ أرجاء القاووش بالقهقهات.

واستفاق طام ذات ليلة فرأى رجلاً يدبّ إلى أمه، فحدّد نظره فإذا هو كركور. فلم يأتِ بحركة وحبس أنفاسه... فألفاه ينزع ثوبها برفق، ثم

ينقضّ على وجهها لثماً. فانتفضت زاعقة، وهجم الصغير على الأثيم يصدّه، وانتبه السجناء من نومهم مذعورين وكثر اللغط، فأقبل الحارس بقنديله، فانطرحوا متناومين. فالتفت فإذا طام في الزاوية يتفجّر لكماً ورفساً على كركور وقد انبطح يشخر عالياً. وكانت لا تفوت السجناء شاردة ولا واردة من حيل كركور فتقدّم منه ودقّ رأسه بالأرض، ثم أخذ بيد طام وخرج به إلى الرواق يسأله عن الحادث فيتلعثم مستحيياً، حانقاً، مسروراً أن وجد مخلوقاً يعطف على والدته ويدافع عنه. ولم يكتفِ السجّان بحسن الإصغاء والوعد بتأديب كركور حتى ربّت على كفل الولد وقبّله.

وفي الليلة التالية أخرجه ولاطفه أيضاً، ثم شرع يشدّه إليه وينفخ على خده. وما زال حتى فهم طام ما يُراد به فأفلت يركض في الرواق مستغيثاً، فأفاق بعض الجنود، فزعم لهم زميلهم أن هذا الشرّير قد حاول الفرار، فتعاونوا على القبض عليه، ثم قذفوه إلى القاووش بعد أن أدّبوه بقسوة.

١٠

قضت ورده وابنها أربعين يوماً في السجن. ورأى القائمون على الأمر أن يتخلّصوا منهما فأطلقوا سراحهما. فراحا يخبطان في الأرض، يذرعهما هو بالدموع وتواكبه هي بالزغردة ... يبيتان في العراء هنا، ويقعد بهما الجوع هناك، ويرميهما التعب على حافات الطرق، ثم يقومان فيسحبها بيده مستهدياً، مستعطياً، حتى انتهيا إلى ساقية المسلك.

أما ورده فلم ترَ شيئاً.

وأما طام فوقف حيال البيت مبهوتاً، ينظر إليه ويُنكره. فقد نزع النازعون أبوابه ونوافذه، والقرميد عن السقف مع أخشابه، وتكدست الحجارة والأوساخ، وحُفرت الأرض عن البلاط ... وليس أثر للفرش واللحف والمقاعد والحوابي.

ودار إلى ظهر البيت فرأى التوتات قُصّت من أعقابها وأقفرت الساحة ، وطار باب المراح وكل ما كان في المراح من المحراث إلى المعاول إلى المناجل إلى المعلف. ولم يبقَ من آثار الصبحا إلا رمّة حبل تتدلى من حلقتها في الحيط.

— ششششلي !

فوثب يسترها عن العيون بجسمه الصغير ويشدّ بإزارها سدلاً ، فما تُرخيه إلا أن تأخذ الزغردة مداها وتحطّ على قرارها . وكان الجيران قد اجتمعوا عليها ، يحاولون أن يكلّموها ثم يبتعدون على الأثر . منهم مَن شمت ، ومنهم مَن تحنّن. صفّان عن اليمين والشمال يتهامسون ، ويقلبون الشفاه ، ويشيرون بالأصابع . فأخذ طام يُجيل فيهم عينيه ويسأل هذا وذاك وتلك ، وهم ينظرون إليه في شعره الطويل المنفّش ، وقميصه المشقوق عن فخذه الهزيلة . ثم وقف في الساحة وصرخ بأعلى صوته :

— جدّي ! جدّي ! أين أنت يا جدّي ؟

ووقع يبكي . فأخذ الفضوليون ينسحبون جماعات وأفراداً ، ولم يتخلّف إلا بعض النسوة يُحطن بورده ويحثثنها على رفع إزارها ويُمسكن الخواصر من الضحك.

ولكن الشفقة مسّت قلب إحداهن فدنت من طام فرفعته عن الأرض وأخذته إلى بيتها وأطعمته . وخافت من المجنونة فلم تدَعها تدخل ووضعت لها صحنها على العتبة .

وعلم طام من الجارة أن ما عافه الجنود في الدكان والبيت ، بعد اعتقاله وأمه ، قد سرقه السارقون ليلة بعد ليلة ، وأن خبر السرقات اتصل بابراهيم بك فاخر فأرسل من قِبَله من أخذ الأبواب والنوافذ والبلاط قبل أن يأتي عليها اللصوص ، وأن أبو سعيد وزينه لم يعودا إلى القرية ولم يعرف أحد مصيرهما ولا سمع عنهما شيئاً . ولكن طانيوس كسّار الذي اختفى معهما جاء مرتين وسألها عن ورده وابنها . فأجابته أنها تجهل أهُما في السجن أم خرجا منه . فأكّد لها في المرة الثانية أنهما ماتا ، وهزّ كتفيه وتوارى .

— ألم يقل لكِ شيئاً عن جدّي ؟

— لا .
— ولا عن زينه ؟
— طانيوس يحب أُختك منذ زمان . وأظن أنهما تزوّجا وذهبا إلى زحله .
— زحله ؟
وتأهّب للقيام، فقالت :
— يقول آخرون بل هما في بيروت . الحقيقة أنني لا أعلم ، ولا أحد في الدنيا يعلم . أُقعد وأكمل صحنك قبل أن يأتي أحد .
ثم مضت تواسيه، ووعدته بإعطائه شيئاً كل يوم . على أنها حذّرته : « لا تأتِ بحضور زوجي أبداً ». وانتهزت فرصة غيابه في تلك الساعة فحملت فراشاً ولحافاً عتيقين وأعطت طام مخدة ، وسارا وورده خلفهما إلى البيت المخرّب، فلم يكن إلا المراح يُستطاع فيه النوم تحت سقف واحد ، فسوّت الجارة موضعاً للفراش على الدكّة التي كانت معلقاً للصبحا ، ونصحت الصبي أن يذهب من غد عند ابراهيم بك فاخر ، فلا بدّ أن يعطف الغنيّ عليه .

١١

ذهب الجنون بعقل ورده وعوّضها منه فطرة عجيبة . كانت ترى أن الرزق لا يأتي إلا على يد ابنها فشرعت تلحق به كأنها مربوطة إليه برسن . لا تكلمه، ولا تنظر إليه ، ولا ترى أحداً من الناس ولا من الأشياء حواليها . تلتزم السير خلفه فإذا وقف وقفت ، وتميل معه إذا مال ، يميناً وشمالاً كما يشاء ، وادعة مطمئنة، لا تأمر ولا تتوسّل ، ولا تؤذي أحداً ما لم يتعرّض لها .
كانت الجارة قد لقّنت طام ما ينبغي له أن يقوله للبك . فلمّا بزغ الفجر مضى في طريق بكفيّا، وأمه تتأثره ، يجتمع عليها الناس فيشير إليهم أن يسكتوا كلّما صوّتت وهمّوا بالضحك ... حتى وصل إلى الضاحية حيث يقيم الغنيّ .

وقف دون قصر فخم، له حديقة ملتفّة الأشجار تتعرّش على سورها ضروب من النبات والزهر بمئة لون واسم. كان يعتقد، لسذاجته، أنه قادر على مواجهة البك من فوره، وأنه عائد منه بالبشالك، حتّى لقد سبقها همّ التصرف بها ووضع الخطط لإنفاق ما ينبغي إنفاقه والحبس على ما يجب حبسه. فإذا بالبستاني يلمحه ووالدته في أسمالهما وقذارتهما فرفع معوله مهدداً وطردهما عن البوابة. فأجفل الصبي وقال:

– جدّي رهن بيتنا عند البك بمئة ليرة ورقاً. بارك الله له به! ولكني جئت...

فلم يدّعه يكمل وهمّ به، فدار الصبي حول السور يلتمس مدخلاً آخر. يقف بين الحين والحين ويرفع عنقه جهده، لعلّه يرى البك أو أحداً من أهله فيناديه ويقول له «أنا طام بن سعيد كسّار!» فيأذن له بالدخول... وظلّ يمشي حتّى بلغ باباً صغيراً مشبّكاً بالحديد، فأطلّ فرأى دجاجاً وأقفاصاً وحبيشياً يتبختر في الساحة، وغزالاً له قرنان طويلان، وطيراً له ريش ملوّن وذنب عظيم بألوان ورسوم أخّاذة. ولم يكن يعرف الطاووس، فدفع أنفه بين القضبان، ونسي البك والبيت المرهون وما أوصته به الجارة، وفتح عينيه يرافق مشية الطاووس، ويُدخل وجهه في الشبكة من هنا ومن هنا، والطير العجيب يفرّج ذنبه ويعلو به حتّى صار له إكليلاً.

– للللللي!

ولم تكد حتّى ارتدّ مذعوراً على كلب يقفز من وراء الباب عليه. ومضى الكلب نباحاً وثباً على القضبان، ففرّت الطيور وأطلّ ربّ المنزل على الشرفة.

– يا بك! جدّي رهن البيت عندك بمئة ليرة ورقاً. بارك الله لك به! ولكن ستُعطيني لآكل أنا وأُمي.

فأدبر الغني، فظن أنه ينزل للقائه، فعاد يحاول الدنوّ من الباب ثم يُحجم خيفة الكلب الأسود الكبير المتربّص به، وقد استلقى الآن وقدّم يديه مسدداً نظراً أحمر. ولكن البك لم يأتِ ولم يرسل من قِبَله أحداً، فهتف طام بكل قوته:

ــ جدّي رهن البيت عندك ، يا بلك !

فظهر البلك وفي يده شيء يفرك به أسنانه مكشّراً .

ــ يا سعادة البلك ! أنا طام بن سعيد كسّار .

فنزع الفرشاة من فمه وبصق بعنف . فأرسلت المجنونة زغردتهـا فهجم الكلب ، وظلّت عينا طام تترددان بينه وبين سيّده ، ثم نظر فألفى البلك قد دخل ، فثنى عنقه كاسفاً ومشى . ثم سمع صوتاً من خلفه فالتفت ، فإذا رغيفان تمدّ بهما يد من الباب ، فركض وركضت ورده تسابقه ، فلم يستطع أن يأخذ إلا بطرف رغيف ، واستأثرت بالباقي وهرولت تلتهمه .

جاء طام في اليوم التالي فأعطته الخادمة رغيفين أيضاً ، فدفع إلى أمه واحداً وأكل نصف نصيبه ، وغافلها فأخفى النصف الآخر للمساء . ثم ذهب مطمئناً إلى أنهما نائلان من البلك كل يوم رغيفين يُمسكان بهما الرمق مع ما يجمعانه في الحقول من أعشاب .

في اليوم الثالث دلف إليه ابرهيم بلك بنفسه، وكان يتنزّه في الحديقة ، وقال له عابساً :

ــ جدّك أخذ ثمن بيته ، والمجنونة تزعج الست في نومها .

ولوّح بعصا في يده وأدار ظهره .

كانت الخيبة موجعة . فهام الصبي على وجهه أياماً يقف بأبواب الناس فيطردونه . ولقد قصد إلى جارته التي أحسنت إليه فقالت إنها لا تجروُ على إعطائه شيئاً خوفاً من زوجها ، وإنّ لها أولاداً عليها إعالتهم ... وجاءها مرة أُخرى فأغلقت الباب بوجهه ... فلم يبقَ إلا الرجوع إلى ابراهيم بلك فاخر .

وكان للبلك امرأة عاقر ناهزت الأربعين . وكانت قد نزلت في ذلك الصباح إلى الحديقة فاستوت على مقعد ، تحتها طنفسة ، وخلفها طنفسة ، وإلى كوعها طنفسة ، والنارجيلة أمامها تسحب ببزّها المذهّب الشحطة بعد الشحطة وتمجّ الدخان من جانب . فلم يشكّ طام أنها ستُعطيه شيئاً . فدنا من البوابة الكبيرة ينظر هل البستاني أو الكلب يترصّده ، فلم يرَ هذا ولا ذاك فهمّ بالدخول .

فإذا فقيران يزاحمانه ويحاولان إبعاده . فألقت الست النربيش وقامت إليهم مغضبة تنادي زوجها والخادمة والبستاني ليعاونوها على طردهم . فأقبلت الخادمة ثم أقبل البستاني فأقفلا البوابة ، فلم يكن من ورده إلا أن رفعت إزارها وزغردت . فوقفت الست مبهوتة وقد وجد المشهد من نفسها هوى . ثم طلبت من المجنونة أن تعيد الكرّة شرط أن يبتعد الصبي عنها فلا يحجبها . ودعت البك فلم يسمع ، فأوفدت إليه الخادمة فأتى . ولكن طام أبى إلا أن يسدّ ما بين العيون وعري أمه ، فقالت الست وهي تمدّ بإصبعها إليه :

— أعطيك رغيفاً !

وأمرت الخادمة فأحضرت بضعة أرغفة يابسة . فلمّا أخذت عينا المجنونة الخبز ، تلوّح به اليد من وراء البوابة ، تناولت أطراف ثوبها وطفقت تثب هاربة من ابنها وهو يتكمّش بها ويشدّ بالثوب ، والست والبك يتضاحكان ، فيضحك معهما البستاني وتزمّ الخادمة بشفتيها .

حتّى إذا استوفت الست حظها من المزاح ألقت الأرغفة من فوق السور على مدّ يدها ، فتراكض إليها الفقراء يتضاربون .

١٢

رأى طام ، وهو عائد إلى البيت ، الجاويش كامل أفندي جالساً في دكان مع أحد الجنود ، فاقترب يناديه :

— كامل أفندي !

فازورّ عنه .

— أنا طام ابن ورده ! وهذه أمي ، أمَا عرفتها ؟

فتفرّس بها مدهوشاً ، وهمّ طام بالدخول فمنعه البائع من اجتياز العتبة ، فقام الجاويش ورفيقه إلى الطريق يماشيان الصغير فيقصّ عليهما ما جرى له

ولأمه ، وهي تقف بين الحين والحين لنوبة جنونها المضحكة المبكية ، وتجمع عليها الناس . فلمّا بلغوا بيت كسّار انحنى كامل أفندي على طام فوضع في كفّه شيئاً ثم همس في أذنه . وتبادل ورفيقه نظرة واستأنفا السير إلى الثكنة .

وانقلب طام إلى دكان قريب فاشترى بالمتليكين رغيف ذرة وشدّه تحت إبطه ، وعدا ووردة تعدو وراءه ، حتى إذا وصل إلى زاوية البيت نطّ الحافة إلى المراح ، فطلعت من تحته يدان ونشلتا الرغيف .

— أبو زيد ! أبو زيد !

ولحق به قافزاً فوق الحافات ... فلما أيقن أنه فاته أرسل صوته الدقيق الباكي ليصنعنّ به ويفعلنّ ، ورماه بحجر .

قضى بقية نهاره يرافق الشمس ، ينتظرها بصبر فارغ أن تغيب فيرفع عينيه إليها حانقاً حيناً ، وضارعاً حيناً ، وهي تردّ طرفه في الحالين كليلاً ، فيدخل إلى المراح يحاول طيّ الوقت بالنوم فيقلّبه الجوع على مثل الجمر ، ويقتله الانتظار صرّاً بالأسنان وبلعاً بالريق ... ووردة تدور حول البيت ، تحفر بأظافرها عن عشبة عافتها الحيوانات ولم يهتدِ إليها بنو آدم . وخُيّل إليه أن هذا النهار لا آخر له فمساؤه لن يأتي أبداً ، فقام فغافل المجنونة وانسلّ لاصقاً بالجدار ثم ركض صوب بحرصاف .

كان الأتراك قد احتلّوا دير مار يوسف وأنزلوا أجراسه وطردوا رهبانه وجعلوا منه ثكنتهم . فأخذ يدور مفتّشاً عن كامل أفندي بين الجنود الرائحين الغادين . ثم دنا فرأى صفاً من الحلل الكبيرة قد اتّقدت النيران تحتها وصعدت اللهبة منها متماوجة على الحيط تدخل من شقوقه المسودّة ، وتذهب ذوائبها في الفضاء وتضيع . وملأت رائحة القيروانة خياشيمه ، يتنشّقها ويتلمّظ ، ويرسل عينيه إلى الحلل بانفتاحة مفترسة . وكان الطاهي ينقل مرغفته الجبارة من حلّة إلى حلّة ، حتى حانت منه التفاتة فهجم على الصبي يطرده ، فأطلق ساقيه منحدراً إلى قبو الدير الذي صار إصطبلاً للخيل ، ووقف ينظر لعلّ كامل أفندي فيه . فلم يرَ إلا جنوداً يمسحون الخيل والبغال الهزيلة ، وهي ترفع بروؤسها وتميل ذات اليمين وذات اليسار ، فتلمع عيونها في العتمة لمعاناً .

وإنه لفي وقفته تلك إذ حكّ به شخص وقال :

ـــ أما قلت لك لا تأتِ إلى هنا ؟ إذهب وانتظرني في المراح .

وتابع كامل أفندي طريقه حريصاً .

* * *

في ساعة متأخرة من الليل دخل الجاويش إلى المراح وعلى خاصرته كيس كبير . ثم أدلج في الظلام عائداً ، بعد أن وعد صديقه الصغير بمثل هذا كلّما استطاع إليه سبيلاً .

وثابر يحمل إلى المراح كل أُسبوع كيساً من الشعير يختلسه من علف الخيل ، ويطرحه أحياناً في خندق اتّفقا عليه ، فيزحف طام إليه في عماية الصبح ويوصله إلى البيت فيخبّئه في حفرة حفرها له في الزاوية ، ويأكل منه مع أُمه قضماً ، ويجرشان منه بين حجرين أملسين ، ويعجنان في جرن كان في الماضي لصبغ الديما ، ويشويان خبزاً خشناً فتيتاً ، واجدين في التهامه سعادة إمساك الرمق التي ليست بعدها سعادة .

ووقع في روع طام أن الحياة ستتابع سيرها على هذا الشكل إلى ما لا نهاية له . لم يكن يتحسّر ولم يكن يترجّى ، قد ملأ فراغ بطنه رأسه فلم يدع فيه محلاً لذكرى أو منفذاً لأمل . وربما خطر له جدّه وخطرت له أُخته ، فيمثلان شبحين مبهمين ، ثم يتواريان في الضباب .

١٣

جاء الجاويش ذات مساء بكيسين معاً ، في الأول شعير على جاري العادة ، وفي الثاني أشياء ناتئة أخذ الصبي يجسّها متعجباً مسروراً . ودسّ له كامل أفندي في يده شيئاً فنظر طام على ضوء قِدّة صنوبر كان يشعلها سراجاً :

ـــ بشلك !

ـ خذ ... وثلاثة متاليك . لست في حاجة إليها .

ـ لماذا هذا كلّه ؟ يكفيني كيس الشعير . والكيس الآخر ما فيه ؟

ففتحه له ، فإذا أصناف من المقددات والمجففات ! فنظر إليها ثم إليه، فقال الجاويش :

ـ هذا كلّه لك . خبّئ المال عن أملك . مسكينة ! (وكانت تغطّ في نومها) أتدري كم أحبك يا طام ؟

فرفع إليه عينين فيهما أفصح جواب . فأطرق كامل أفندي ساكتاً .

ـ ما لك يا كامل أفندي ؟ هل عمل لك الضابط الجديد فلقاً ؟

ـ الضابط الجديد لا يعمل فلقاً لأحد .

ـ . . .

ـ ولا يسلب الناس بقراتهم لئلا يحلّ به ما حلّ براسم بك . ألم تأتِ أختك قط ؟

ـ لا .

ـ في ضواحي عاليه، يا طام، عصابة خطفت حتى اليوم ضابطين وسبعة جنود ... طام ، طام ! إسمعني ، ستأكل بعد أن أذهب ، أتسمعني ؟

فبلع الصبي بقدّة من لحم .

ـ هذا لحم طيّب . لحم أي حيوان ؟... العصابة البيضاء!

ـ مَن قال لك اسمها ؟

ـ كل الناس يعرفون .

ـ أنا أعرف شيئاً لا يعرفونه هم ولا تعرفه أنت !

ـ ماذا ؟ عند العصابة بيضة فيها خاتم سليمان ! أنا أعرف ذلك .

ـ لا ! لا. يا طام . أظن أن زينه ... (وجرض بريقه) .

ـ أختي تحب طانيوس أكثر مني ! أخذته وراحت .

ـ طانيوس كسّار مع زينه ؟ لقد جرّد الأتراك حملة تتألف من مئة عسكري تفرّقوا في الجبال والأودية وراء العصابة البيضاء ، وجعلوا مكافأة مئة

ليرة ذهباً لمن يأتيهم برئيسها حياً وخمسين ميتاً . وإذا كان جندياً صار جاويشاً، أو جاويشاً صار ضابطاً .

— لماذا لا تذهب معهم ، يا كامل أفندي ، فتقتله وتصير ضابطاً ؟

— أنا لا أقتله يا طام لأنه يقتل الأتراك . أرأيت أنك كنت مشغولاً بالأكل فلم تسمع ما قلته لك ؟

— هه هه ! أنا سامع .

— طام ، أتعلم لماذا جئتك بكل هذا ؟ كيسين وبشلك ...

— لأنك تحبني .

— هذا صحيح ، ولكن ...

وأمسك ، فقال طام :

— لكن ماذا ؟

— في الصحراء البعيدة ، البعيدة ، حيث وُلد النبيّ الكريم ، في السهل الكبير على مدّ النظر ، وحيث الشمس تكوي كياً ، والرمال التي لا آخر لها ... هنالك قد نشبت ثورة على الأتراك .

— ومَن غلب ؟

— النصر بيد الله يُؤتيه من يشاء ... العرب سيغلبون يا طام .

— ويذهب الجوع ، أليس كذلك ؟ ونعود نأكل خبزاً أبيض .

— قل إن شاء الله يا طام !

— الله لا يحب الأتراك الظالمين .

— لذلك قلت لك العرب سيغلبون ... ولكن أنا لن أكون مع العرب ، يا طام .

— مع مَن إذن ؟

— أنا جاويش في جيش الدولة ، مُضطَرّ أن أُحارب مع الأتراك .

— وتقتل العرب !

— غصباً عني .

— أنا أقول لك ما تفعل . ضع في المارتينة باروداً وانزع الرصاص . البارود لا يقتل .

— أنت ستكون جندياً في الجيش العربي .

— سأكون ضابطاً وأقتل الأتراك !

— أنا حزين يا طام ، لأنني تاركك .

— إلى أين ؟

— الصحراء البعيدة التي ذكرتها لك اسمها الحجاز . سيُرسلوني غداً إليها مع كثير من الجنود .

— ومتى تعود ؟

— مَن يعلم ؟ ربّما لن أعود أبداً .

— أبداً ؟ ... أبداً ؟ !

— اتّكل على الله . الحرب ستنتهي قريباً ... بيتنا في الشام فيه خبز أبيض ، وأرزّ ، ولحم ، وعنب وكل شيء ! إذا قدرت أن تذهب إلى الشام فاذهب إلى حيّ « الميدان » وسل أين بيت الشيخ محمد أبوكامل الورّاق . قل لي أحفظت الاسم ؟ الشيخ محمد أبوكامل الورّاق ، إياك أن تنسى !

— وتكون أنت هناك يا كامل أفندي ؟

— ربّما . وإذا لم أكن فقل لهم : أنا طام من بحرصاف ، وكان كامل أفندي صديقي . ولكن الشام على مسيرة أُسبوع . تذهب مع مكاري يُركبك على بغل أو في طنبر ... وإذا لقيت زينه فقل لها كامل أفندي يسلّم عليك ، ولتذهب إلى الشام . تذهبان معاً ... وجدّك أيضاً ... لا تبكِ يا طام . سأُعطيك في الشام مهرة حمراء لها غرّة ، وكوفية من حرير ، وعقالاً مقصّباً . لا تبكِ ! إن الله مع الصابرين .

* * *

انتبه طام من غد على قرع الطبول تتجاوب أصداؤها وترجّ في سكينة الصباح وكأنها ترجّ في قلبه . فخرج إلى الطريق مسرعاً فإذا فصيل من الجنود

آتٍ من صوب بحرصاف ، فتسلّق الحافة ، فلم يعجبه الموقع ، فأراد أن يبحث عن سواه ، ولكن الجنود كانوا مسرعين وقرع الطبول يقترب ويقوى ، فجمد حيث هو ، فوصلوا وأخذوا يمرّون تحته ، فنظر إلى الصف الأول ... فالثاني ... فالثالث ... فالأخير ! فكاد صوابه يطير ! فركض حتى سبقهم ، يستعرضهم من جديد جندياً جندياً . فزاغ بصره واختلطت عليه الصفوف . فسبقهم مرة ثانية حتى واجههم ، فإذا كامل أفندي في الصف الثاني إلى جهته لا يحجبه عنه أحد ، فخفق قلبه ومشى يحاذيه معلّقاً عينيه بوجهه حتى التقت عيون الاثنين ، ولكنه لقاء قصير كالومض ... والصبي يمشي ، يقلّد الجنود في مشيتهم ، ثم ينتبه إلى نفسه فيُمسك ، ثم يغلبه التوقيع فتعود قدماه الحافيتان تخفقان خفقاً متوازناً . وربّما عثر بمدرة أو شوكة فما ألوى ولا بالى ... حتى نظر فإذا كامل أفندي يشيل بحاجبه ويردّ برأسه إلى الوراء رداً خفيفاً . فأدرك ما يريده ، فوقف مكانه ، فابتسم الجاويش ابتسامة رضى وظلّ مائلاً برأسه نحوه أكثر فأكثر حتى أدبر ...

وطام يشيّعه ...

ظهره ، والحقيبة المربوطة عليه ، والقُربة على جنبه تنطّ لكل خطوة ... وتوارت القُربة والحقيبة فما تظهر إلا فوهة البندقية ... ولا تلبث هي الأخرى أن تضيع بين العشرات من أخواتها ...

حينئذ أحسّ طام أن قلبه يسقط عن موضعه ، فاندفع يركض وينادي بأعلى صوته :

— كامل أفندي ! كامل أفندي !

ولكن الفصيل كان قد ابتعد .

١٤

رجع طام إلى البيت حزيناً .

ولم يكد يطلّ على باب المراح حتى رأى ورده قد أخرجت كيس المقددات

والمجففات فبعثرتها في حضنها وحواليها ، تلتهم وتزدرد وتنادي أبو زيد . فاستدار على العتبة فإذا أبو زيد يقفز غيرَ بعيد شاكلاً قمبازه على شيء ، ثم يرفع يده إلى فمه . ففهم طام الحكاية فهرع إلى الحفرة فوجد كيس الشعير مكانه ، فشكر الله وارتدّ إلى أمه ينتزع من حضنها ويلمّ عن الأرض ، ويأخذ كل ذلك فيضعه فوق كيس الشعير ويقعد عليه حتّى المساء .

وفي جوف الليل ، بعد أن غرقت المجنونة في نومها ، حمل الكيس وتلك البقايا فحفر لها مخبأ في حافة أمام المراح وسوّى الحجارة كما كانت . وجعل له ولأمه حصة كل يوم ، وهو يرجو أن تنتهي الحرب ويغلب العرب الأتراك قبل أن يفرغ الكيس .

وفيما هو ذات صباح يُدخل يده في المخبأ سمع صوتاً من خلفه يناديه باسمه، فتحوّل ينظر مَن يبغته .

— أنا طانيوس .

ولكنه لم يطمئن فتراجع يسأل :

— أيّ طانيوس ؟

— اخفض صوتك ، عمّك طانيوس .

— عمّي ! عمّي !

— ظننتك متّ وتحتّت عظامك ! وها أنا أراك مثل الشيطان ! ماذا تعمل هنا ؟

— أين أُختي ؟

— لا أقدر أن أدلّك .

— كل الناس يقولون إنها خطفتك وتزوّجتَها .

— الناس يقولون هكذا ؟ !

— إي .

— يا ليت !

— وجدّي ، أين جدّي ؟

ـ كنت أُحب أن يشاهد ورده ويسمع زغردتها ولو مرة واحدة !

ـ أنت أيضاً تعرف ...

ـ أرسلتني أُختك منذ مدة إلى هنا فلم أجدك ، وطلعت المجنونة بوجهي .

ـ لم تقل لي أين جدّي !

ـ جدّك ؟ ألم أقل لك إنه مات ؟

ـ ما ... ت !

ـ تركنا وجاء ليرى الصبحا ... وضيّعناه . واتّفقنا أنا وأُختك على أنه مات ... أتريد أن تبكي أم أن تأكل ؟ خذ ، هذا كيس ملآن بالخبز . أين أضعه لك ؟ لا أدخل إلى المراح لأنني لا أُحب المجانين .

ـ خذني عندها يا عمّي .

ـ عند مَن ؟

ـ عند أُختي .

ـ ألم تقل لك إنك ما تزال صغيراً ؟ تصرع رأسي صباح مساء : « لو كان طام كبيراً ! لو كان طام كبيراً ! »

ـ كبرت يا عمّي ، أُنظر ، كبرت !

ـ ولكنك لا تزال أصغر من المارتينة ... هل أرسل إليك ابراهيم بك فاخر مئة ليرة ؟

ـ مئة ليرة ! أخذها منه جدّي .

ـ غيرها ، غيرها .

ـ غيرها ؟ لماذا ؟

ـ لم يرسل إليك شيئاً !

ـ لا .

ـ ولم يقل لك شيئاً ؟

ـ أعطتني خادمته رغيفين .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شيء .

ـ إسمع يا طام ، هذا الكيس من الخبز يكفيك من الآن إلى أن يرسل إليك البك مئة ليرة، لأنه سيرسلها ما من ذلك بدّ . ولكن إيّاك أن تقول له أو تخبر أحداً أنك كنت عارفاً بأنه سيرسلها إليك !

ـ أنت قلت له ؟

ـ هذا لا يعنيك . سيرسلها مع أحد رجاله أو يدعوك إلى بيته ويسلّمها إليك يداً بيد .

ـ تكذب عليّ لكيلا تأخذني معك عند أُختي . أُريد أن أروح معك . وحياتك ! خذني معك يا عمّي .

ـ هس ! أنا ليس لي جَلَد على الأولاد الصغار . ستأتي أُختك وتأخذك .

ـ متى ؟

ـ ستأتي ، لا أعلم متى ولا هي تعلم . المسألة تتعلق بابراهيم بك فاخر وعلى دفعه المبلغ أو تمنّعه . على كل حال لا خوف عليك أن تموت من الجوع . أنت مثل عمّك : يلوكه الموت ويلوكه ثم يبصقه !

ـ وكيف يدفع ابراهيم بك ؟

ـ أنا أتمنى أن لا يدفع .

ـ . . .

ـ إي ، أتمنى أن لا يدفع لكي يفهم أن العصابة البيضاء تقول وتفعل !

ـ العصابة البيضاء ! أصحيح يا عمّي أن رئيس العصابة من الجن ؟

ـ مَن قال لك ذلك ؟

ـ سمعت . جنّي ، يقولون ، لا هو رجل ولا هو امرأة !

ـ ها ها ها !

ـ ألا تصدّقني ؟

ـ عمّك وحده الذي يصدّقك بين الناس أجمعين ! وماذا يقولون أيضاً ؟

ـ خذني معك ، خذني معك !

ـ عدنا ؟ ! خبئ هذا الكيس وكُلْ منه حتى تأتي أُختك . قلت لك ستجيء هي وتأخذك ... أنا مضطر أن أعود . لا تبح لمخلوق أنني جئت إلى هنا ولا رأيتك ولا كلّمتك عن ابراهيم بك فاخر ولا عن العصابة البيضاء . وأُوصيك : إيّاك أن تموت !

وراح في الظلام .

١٥

إنتظر طام أسبوعاً فلم تأتِ زينه ، ولا المئة الليرة ! وتحوّل شكّه إلى يقين بأن عمّه إنما هزأ به .

وفرغ كيس الخبز ففكّر في حاله فلم يجد إلا أن يقصد إلى البك مرة أخرى، فمشى من فوره واقتفت ورده خطاه .

وكان يتمنى أن يجد البك وحده لـِما ثبت في قلبه من المقت للست منذ الحادث الأخير . وإنه لفي بعض الطريق إذ جاءت المجنونة نوبتها فلم يتمكن من الوقوف دونها لبُعدها عنه ، فاجتمع الناس ينظرون ويضحكون ، فلم يقل شيئاً واستأنف سيره، يتخيّل الست تقهقه وفي يدها الخبز الأبيض الشهي ، ويكاد يسمعها تقول له « أُعطيك رغيفاً شرط أن تتركها ! » مَن يدري ؟ ربّما كان وحده ، لا يزاحمه أحد من الفقراء ، فيستأثر بالرغيف . ولتشاهد الست ما تحب ، وليتظاهر بأنه حاول منعها فلم يستطع ، أو فليكن بينه وبين أمه مسافة كالتي كانت الآن بينه وبينها ... ثم ماذا بعد هذا كلّه ؟ أليست مجنونة ؟ المجنونة لا تؤاخَذ على ما تعمل .

ومضى يحاور نفسه كذلك . وفجأة فطن إلى حقيقة ما يفكّر فيه فصدمته فظاعته صدمة أحسّ لها مثل الصداع ، والتفت عفواً وراءه فلم يجد لأمه أثراً .

لم ينطلق في طلبها ، ولا تساءل أين قصدت بل هرول مسروراً بأنه تخلّص منها .

كان لابراهيم بك فاخر «تَك ّ» ، عربة بحصان واحد يطيب له أن يسوقها بنفسه لنزهات مسائية في الضاحية . وصل طام فرأى السائس يجهّز التَك ّ ، فانتظر على البوابة ، فأقبل البك حديثَ الوجه بالحلاقة ، على رأسه طربوش قان تنحدر ذؤابته إلى الأمام وتتفرّش ، وتختلج جفونه بحركة عصبية دائمة كأنه يقول لرائيه : «أنا لي عينان !» لأنهما كانتا صغيرتين جداً .

— أعطني متليكاً يا بك .

فصعد إلى العربة .

— يا بك ! يا بك ! الله يخلّ لك أولادك ! أنا طام بن سعيد كسّار ، جدّي رهن البيت عندك يا بك ! الله يخلّ لك أولادك ، يا بك !

ولكن الغني تناول الكرباج وصفقه به ، ثم ردّه إلى الجواد فدرج التَك ّ خبباً . واستمرّ البك يضرب بالكرباج على موٌخرة العربة يميناً حيناً ، وشمالاً حيناً آخر ، إلى مسافة بعيدة .

حينئذ أدار طام وجهه فإذا السائس يضحك بين كفّيه ويردّد :

— الله يخلّ لك أولادك ! الله يخلّ لك أولادك ! ...

فانتصب الصبي يتحدّى مقلّده . فنظر السائس إلى الجهة التي ذهب فيها سيّده وهزّ برأسه وقال :

— سبحانك يا الله ! لو أعطيته بالغلط واحداً من الدزينة التي عندي !

ومشى .

فذهب طام مع سور الحديقة حتى وصل إلى الباب الصغير المطلّ على الطيور والحيوانات ، وقد قنع بأن يلقى الست . فإذا المقعد خالٍ ليس إلاّ الكلب مربوطاً هذه المرة إلى كوخه الأحمر يغفو إغفاءة سعيدة ، والدجاجات تنقل أرجلها نقلات بطيئة . شبعانة ، الحَبّ منثور لها كوَماً ولا تمدّ إليه منقاراً ، بل تغمض عيونها وتجوز . ولكن دجاجة هناك تعالج شيئاً في التراب وتتخبّط وتمرّغ رأسها وترفعه وتخفضه وتعود إلى التخبّط ، ثم تُقبل وقد تدلّى من فمها خيط طويل ، فتدور في الساحة ثم تقف منصرفة إلى شأنها الأول ...

ثم تستأنف الدوران ، لتقف مرة أخرى تعالج الخيط لعلّه يخرج، فما يزداد إلا ولوجاً ، وطرفه المجرور على الأرض يقصر شيئاً فشيئاً ، وطام ينحني على الباب مرافقاً الحادث . فإذا الباب يصرّ منفتحاً تحت دفع جسمه ، فمدّ يده عفواً وردّه وترفّق في الاستلقاء عليه . ثم لمعت في ذهنه خاطرة ، فنظر فلم يجد أحداً ، فأخذ يفتح الباب متمهّلاً مخرساً صريره، حتى صارت الفرجة على قدّه ، فاندسّ إلى الجنينة ونظر أيضاً من هنا ومن هنا ، وحاول أن يرفع عينيه إلى الشرفة فأحسّ رقبته كأنها مشدودة بثقّالة، فاستعاض إرهافاً لأذنيه، فلم يسمع نأمة . فجرى وراء الدجاجة المعذّبة، فنفرت منه ونفرت أخواتها مرفرفات ... هيّن كل شيء ولا يُفيق الكلب ! وجمد طام هنيهة ليُعيد إلى الجو الطمأنينة التي لا غنى له عنها، حتى إذا ظنّ أنه نال من ذلك غايته تأهّب لاستئناف سعيه وراء الدجاجة ، فإذا هي تقبل والخيط في منقارها ، فارتمى القرفصاء في وجهها ففاتته ، فضرب بكفّه وراءها فأثبت طرف الخيط إلى الأرض ثم جرّها به إليه فأفطسها وانسلّ بها ...

١٦

- منذ تلك الغزوة اعتاد طام أن يغشى حديقة الغني . وقد ساعفه الحظ فوُفّق مرة ثانية إلى الدخول من الباب، وفي الثالثة وجده موضداً فتسلّق السور وأدلى بخيط احتاط به ، فعقد طرفه على دودة وجعل يرجّحه ويدفعه ، فمدّت الطيور برقابها وحامت المناقير على الدودة تتزاحم وتتضارب ويلتفّ بعضها ببعض ، حتى تمكّنت دجاجة منها فأخذتها وهرولت ناجية بها . فانحنى يذهب معها ما استطاع ليترك لها أن تبلع السنّارة . فأقبلت دجاجة أُخرى من بعيد ووثبت عليها فخافت هذه وألقت ما في منقارها ، فنقدته تلك نقدة واحدة ، فجذب طام ... رويداً ... رويداً ، والدجاجة تدنو حتى انتصبت مشنوقة . فخفق

قلبه وجعل يسحبها كالدلو من بئر ، فإذا يدان جبارتان تشدّانه من رجله ، فيسقط على الطريق وقد سلخت حجارة السور المسنونة كفّيه وثلمت أنفه .

وساقه البستاني إلى البوّابة حيث لقيه البلك بعصاه وضربه ضرباً مبرّحاً ، وهو يقع على الأرض فيرفعه الآخر من أذنيه حتى كاد يصلمهما ، فيعود الغني إلى ضربه وشتمه ويعيّره بالحرامي ، ولم يتركه إلا بعد أن تعبت يداه وخُيّل إليه أن أعصابه هدأت . حينئذ انقلب يتنفّس الصعداء ويمشي في الحديقة ذهاباً وإياباً . ثم وثب إلى الدرج فارتقاه ودخل إلى غرفته فتناول رسالة كان ألقاها على مكتبه وأخذ ينظر فيها حيناً ، ويهمّ بتمزيقها حيناً آخر .

وكان في الغرفة مرآة كبيرة فوقف قبالتها فهاله اصفرار وجهه ، فذهب إلى الباب ففتحه ونادى :

— فيروز !

فأقبلت الزوجة فدفع إليها الورقة وقال :

— إقرأي .

فأخذت تقرأ :

« إلى ابراهيم فاخر .

وجّهنا إليك مكتوباً قبل هذا نبلغك فيه إرادتنا . ولما كانت المهلة التي حدّدناها لك ، وهي أسبوع ، قد انقضت ولم تنفّذ أوامرنا رأينا أن نكتب لك ثانية ونستمهلك ثلاثة أيام أيضاً . فإذا لم تبادر خلالها إلى إعطاء أصحاب البيوت المرهونة عندك والمذكورين أدناه المبالغ المعيّنة تجاه أسمائهم نُعدمك الحياة :

أولاً :	بطرس الضاهر	٢٠٠ ليرة
ثانياً :	حنّا ناصر	١٠٠ «
ثالثاً :	بطرس كسّار	١٠٠ «
رابعاً :	بولس ماضي	٧٥ «
خامساً :	أرملة عيسى فدعان	٧٥ «

تعطي هذه المبالغ كاملة إلى هؤلاء وإلى غيرهم ممن استرهنت بيوتهم أو اشتريتها بعُشر أثمانها ، وأنت تعرفهم أكثر منا ، وفي حالة موت أحدهم إلى ورثائه .

ونعيد ما قلناه في مكتوبنا الأول : إننا لسنا قُطّاع طرق، وإلا كنّا طلبنا شيئاً لأنفسنا ، بل نحن قضاة عدل نحب أن يصل لبعض المظلومين ولو بعض حقوقهم التي اغتصبتها بأطماعك .

تنبيه : ليس لأحد الراهنين علم بهذا ، فإذا حاولت الانتقام من أحدهم سقطت المهلة وهدرنا دمك حالاً .

العصابة البيضاء »

ــ العصابة البيضاء أيضاً ! العصابة البيضاء !

كان هذا الاسم على كل شفة ، مجرّد التلفّظ به يبعث الذعر في السامعين . وكانت تُروى عن العصابة البيضاء روايات غريبة عجيبة . يقول بعضهم إن على رأسها شخصاً يرتدي ثوباً أبيض ، وهو لا يظهر إلا في الليل ، يجلس على قمة جبل فيراه الداني والقاصي ، ويصوّب إليه الجنود بنادقهم فلا يتحرك، لأن الرصاص لا يفعل فيه لدرع يلبسه تحت ثوبه ... ويقول آخرون بل يحمل ذخيرة عود الصليب ، وهي تحميه من كل شرّ وتذيب الرصاص قبل أن يصل إلى جلده ، فمُطلقه عليه كضاربه بوردة سواء بسواء ... وتذهب جماعة إلى القول إنه ساحر يستخدم جماعة من الجنّ ، ويستدلّون على ذلك بأن الدرك دهموه يوماً ثم نظروا فإذا هو قد استحال إلى عمود دخان واختفى بين الارض والسماء ... وبينما يكون يوماً في صنّين مثلاً يؤكد آخرون أنهم رأوه في اليوم نفسه في ضهر البيدر ، فهو لا يستقرّ في مكان ، ولا يعرف أحد له بيتاً ولا يفهم أسرار تنقلاته بين الجبال والأودية في طول البلاد وعرضها .

كانت فيروز تردّد على زوجها هذه الأساطير وهو يصغي إليها شارد الفكر ، ثم صاح :

ــ أمجنونة أنت لتعتقدي بهذه الخرافات ؟ الضابط مدعوّ إلى العشاء عندنا الليلة . سأعطيه هذه الورقة وهو يتدبّر مرسليها مع خليل المعلاّ .

ــ أعطيته المكتوب الأول، فماذا عمل لك هو وخليل المعلاّ ؟

ــ وماذا عملت العصابة ؟ لقد إنقضت المدة التي حدّدوها ... ها ! ها ! (وحمل نفسه على الضحك) انقضت المهلة منذ أسبوع وأكثر ، فلماذا لم يقتلوني ؟ وستنتهي المدة الجديدة وأنا بألف خير .

ــ لو أعطيت كُلاً من هؤلاء المساكين ...

فقاطعها غاضباً :

ــ ماذا ! أعطيهم أيضاً ؟!

ــ أنا لا أقول لك أعطيهم بالمئات . ولكن أرسل إلى كل واحد ثلاث ليرات أو ليرتين . أتظن أنهم سيذهبون إلى العصابة ...

ــ تعودين إلى العصابة ؟ إقطعي هذا الحديث . فليرهنوا بيوتهم وأملاكهم عند سواي ... هذه نتيجة المعروف مع الفقراء .

ــ أمّا قلت لي إن بيت أبو سعيد كسّار وأملاكه تساوي ستمائة ليرة عثمانية على الأقل فاسترهناها بمئة ورقا ؟

ــ تساوي ! ماذا تساوي ؟ قلت لكِ أنتِ لا تفهمين بهذه الأمور . أنا ذاهب .

ــ إلى أين ؟

ــ يجب أن أوصل هذه الورقة السخيفة إلى الضابط الآن ، في هذه الدقيقة !

ــ أخاف عليك . يجب أن لا تخرج من البيت .

وأمسكت بتلابيبه ، ولكنه أصرّ ، فأفلت منها وانطلق ينادي السائس أن يُحضّر له العربة .

١٧

كان طام قد ابتعد عن منزل الغني ووصل إلى السوق .

وقف أمام واجهة يلمع فيها صفّ من الخبز . ثم خطا يدفع أنفه حتى

لامس زجاجها . كانت الأرغفة كثيرة يستلقي بعضها على بعض من طرف الواجهة إلى الطرف الآخر في عرض جميل . بيضاء لها أُطُر موشّاة ، وخدود محمرّة عليها شامات سوداء . رغيف رافغ إلى جانب رغيف ضامر إلى جانب آخر قد اعوجّت يد الخبّاز به وفاتته النار فهو عجين جامد لا لون له ولا شكل . تجيء عينا الصغير وتروحان على الأرغفة ثم تستقرّان على هذا المسخ من بينها جميعاً ، فيثني عنقه إليه ويسيل لعابه عليه ، ويتشمّمه من وراء الحاجز ، وأصابعه تتفرّك على جبينه من هنا ومن هنا ، ثم تلتقي على فمه فيعضّ عليها ... حتى تنبّه له الخبّاز فقام وطرده .

كان يمشي بقدميه المشققتين ، وقمبازه الوسخ المقدود ، وشعره الطويل المبعثر ، من الحافة إلى القناة ، ومن القناة إلى الحافة ، يلتقط عن الأرض ويزاحم القطط والكلاب على الأقذار ، والطريق مزروعة عن الجانبين بعشرات الجياع أمثاله ، شيوخاً ونساء وأطفالاً ، بعضهم يستطيع المشي ، والأكثرون انطرحوا لا يملكون إلاّ الأنين .

وإنه لهائم على وجهه إذ أقبلت عربة ، فالتفت فإذا هي عربة البلك يسوقها بنفسه والست إلى جانبه تتّقي الشمس بمظلّة ملوّنة . فاقتحم الجياع العربة من كل صوب يمدّون الأيدي . لكنها كانت تنهب الأرض نهباً وأوشكت أن ترهس امرأة منهم لولا أن صفقها الغني بسوطه فارتدّت تصرخ من الألم . وفجأة توقّف الحصان لحاجته ، فحاول البلك أن يحول دونه ودونها ، فذهبت ضرباته سدى . وهرع الفقراء مرة ثانية فتولّى الكرباج إبعادهم . ثم كرّت العربة فانقضّوا على أطباق النفاية اللاهبة يتضاربون ويتصايحون . وخفّ طام فدفع كتفه بين الأكتاف وأخذ ما وسعت كفّه ونجا إلى ناحية ، يلقط حبّة الشعير وينفضها على صدره ثم يقذفها إلى فمه طيّبة شهيّة . وحانت التفاتة من بعضهم إليه فهجموا عليه ، فدفع بما في كفّه إلى شدقيه فالتهمه بما فيه قبل أن يصلوا .

قضى بقية نهاره متنقلاً منقّباً في الأرض كالحيوان . وكانت أُمه قد كفّت

عن اللحاق به منذ حبست الأيدي الرزق عنه فعنها . ففتّش عليها يوماً فوجدها في الوادي تأكل من جيفة بغل منتنة . وبغتها يوماً آخر تذبح قطة وتلتهم لحمها المطّاط نيئاً . ثم دبّ الورم في رجليها فعظمتا وقعدتا بها لا تقوى على الخروج ولا على القيام من مطرحها على باب المراح . وكأن الجوع افترس جنونها فيما افترس ، فانقطعت عن الزغردة واعتصمت بصمت هائل ، لا يتكلم فيها إلا عينان تنفتحان كبيرتين على الأشياء حيناً وفي عرض الفضاء أحياناً ، تناديان شبح الرغيف .

وفي المساء حاول أن يصل إلى البيت فلم تحمله رجلاه ، فجرّ نفسه إلى كنف قنطرة بجانب الطريق فانطوى في الزاوية ونام .

* * *

كانت الليلة قاسية ، تقطّع فيها نومه بنوبات الجوع تقطّعاً لم يعرفه في لياليه السابقات . ما يكاد يغفو ، أو يُخيّل إليه ، حتى يفيق متقلّباً على البلاط البارد ، يبلع بريقه بلعاً متواصلاً ، وكأن هذا الريق عصارة من قلبه الذائب ، وكأن بطنه الخاوي طبل فهو يصوّت بين الفترة والفترة ، ويسمع قرقرته فتؤذيه ، فيشدّ عليه بيده ويُطبق أجفانه ، فتطلع في ذهنه ذكريات من ماضيه مبهمة ، وتتوالى أشباح في موكب عجيب من أرغفة تمزّقها أشداق وحوش ، إلى أفاعٍ رؤوسها برتقالات مورّدة ، إلى صحون عدس تكرّ على الطريق مسرعة كالدواليب أفلتت من عربة ، إلى زبيب وجوز وعنب تتدلّى بحبال من السماء ، فيمدّ إليها كفّيه فتتلاشى ويقبض الهواء .

وطال به عذابه ، حتى تمنّى بينه وبين نفسه لو يرقد ولا يطلع عليه صباح أبداً . ودغدغته هذه الأمنية القصوى دغدغة حلوة ، فاستسلم لها . ولكن موكب الأشباح عاوده بأفاعيه ووحوشه وطيباته المستحيلة ، فأجهش بالبكاء ، ينادي جدّه وأخته وأمه .

ثم ضعف جهشه رويداً رويداً . ثم جمدت دموعه . وهدأت أخيراً في زاويتها كومة العظام والخرق ...

انتبه باكراً على شيء يسحبه من قمبازه وعلى صوت يقول :
— أقلبه !
وقلّبَه رجلان على خشبة ، فانتفض مذعوراً .
— قلت لك إن فيه حياة بعد .
وانصرف الرجلان إلى الزاوية الأخرى من القنطرة ، فوقف طام ينظر ما يفعلان ، ولو كان قد رأى مثل ذلك مرّات من قبل . كانت في تلك الزاوية امرأة مطروحة على ظهرها يسرح عليها القمل ، ويعلق على صدرها العاري طفل له عينان هائلتان . تقدّم الأول فرفسها على خصرها وانتظر ... فعضّ طام إصبعه وخطا خطوة أخرى . كان رأسها ملقى إلى جانب ، وشعرها منسدلاً على البلاط ، وقد اندلق من صدرها ثدي فيه أخاديد ومشحات ، تعبث به اليدان الصغيرتان ، وينقضّ عليه الفم الصغير ويجذبه عصراً ثم يفلته ويبكي .
ورفس المرأة ثانية . ونظر إلى رفيقه وقال :
— لقد شبعت موتاً .
ثم انحنى على الطفل فأزاحه ، فانقلب عن صدر أمه متململاً في خرقة تلفّ وسطه وتقصر عن ستر عورته العظيمة ، وأخذ يصرخ . وقلب الرجلان الجثة على الخشبة وحملاها فكفآها على المحمل المنتظر إلى جانب الطريق وتهيّآ للسير بها . ولكن أحدهما استدار إلى صاحبه وقال مشيراً برأسه إلى الطفل :
— ما رأيك ؟ نأخذه الآن .
— معك حق . سيموت !
— نوفّر علينا نقلة .
وكان الطفل قد تفقّد أمه فحبا صوبها حتى وصل إلى إفريز القنطرة فسقط على الشارع بين أقدام الرجلين ، فتناوله الأول من ذراعه الهزيلة ولوّح به في الفضاء ثم رماه فوق أمه .
كان طام ما يزال ينظر . ويظهر أنه أزعج الموكّلين بحمل الموتى ، فضرب أحدهما بيده إليه ، فأركن إلى الفرار وهو يصيح :

ـ أنا ما متّ ! أنا ما متّ !

وعزم ألاّ ينام خارج البيت أبداً .

١٨

قبل أن تنادي الشمس أشعتّها الأخيرة عن الأكمة الجاثمة جنوبي ساقية المسك رأت شبحاً أسود يطلّ على صخرة ثم يدور خلفها ويختفي . حتى إذا غطست في البحر وخيّم الليل أطلع رأسه وعاد إلى الشفير ، فقعد شابكاً يديه على حضنه ، يطوّف بصره في القرية الميتة المسجاة تحت قدميه : في هذه البيوت التي كانت مملوءة بالأهل والمحبة والبركة ، فاستحالت سقوفاً مخرّبة وجدراناً مدكوكة ، لا يتردّد فيها نفَس حيّ ، ولا تطأ عتباتها قدم ، اللهم إلا بعض أنوار تلوح في بيت ... وبيت إلى جانبه ... وفي كوخ أبيض في الوادي ... ضئيلة شاحبة تغالب الظلام كبقايا الجمر خلال الرماد الكثيف .

وفجأة امتدّ على طرف القرية ، وعلى التلال القائمة عن جانبيها والمتدرّجة تحتها حتى الشاطىء البعيد ، بساط أصفر كبير تقطّعه على الأودية ثغرات سود ، وتطلع الأشجار القليلة الباقية هناك وهنالك نقوشاً فيه ، فالدنيا سجّادة سحرية لا عهد بها لإيران ولا ليد إنسان . كان القمر قد أشرق خلف صنّين قرصاً من ذهب ، يصعد على رأي العين في الجلَد الأزرق الصافي ، فمال إليه الشبح يستقبله بوجهه مستسلماً إلى أضوائه تتدفّق في عينيه وتذرذر حبّاتها المتألّقة على كوفيته المقصّبة وعباءته الفضفاضة .

ثم انتصب وانحدر إلى القرية في درب ضيقة يتلمّسها بيديه ويكزّ حصاها تحت قدميه . حتى إذا شارف بيت كسّار وقف .

وقف يتأمل فيما أبقت الأيام منه ، في هذا الحيط الذي تهدّم جانب منه وتكوّمت حجارته تحته ، وصعد الجانب القائم درجات من سلّم إلى الفضاء ... وفي هذه النوافذ وقد انفتحت أشداقاً عظيمة يدخل فيها الليل ويسرّح أخيلته

الخرساء في أرجاء الغرفة التي كانت موئل النار ومجلس حكايات الجدّ وفرك الأكف والوحوحة ... وفي هذا السقف المبقور تتدلّى خشبة طويلة منه وكأنها حربة جبّارة سدّدتها السماء طعنة إلى الدكـان... وفي هذه المحدلة التي انقلبت عـلى الأرض ، يلمع بياضها على القمر ناصعاً ، قد ضاع جرّارها الحديدي وقعدت هنا ساكتة ، لن يصعد أبو سعيد إلى السطح ملفوف العنق بشملته ليدلكه بها ذهاباً وإياباً تحت وكف المطر ، ولن تهتزّ أركان البيت تحت الحدل تلك الاهتزازة الحلوة ... وفي هذه الساحة القفراء التي قُصّت توتاتها فليس منها إلا كعوب مهترئة طالعة من الأرض وكأنها أقدام بشر دُفنوا رأساً على عقب ... وفي باب المراح وقد شغر واستوحش فلن تطلّ الصبحا برأسها خارجة منه إلى الحقل ، ولن تُدبر عائدة إليه ، ولن يتّكئ على عتبته سطل الحليب مرسلاً لهبته الدافئة في صباح ولا مساء أبداً ...

وخطا الشبح إلى باب المراح ونادى :

ــ طام ! طام !

فلم يردّ عليه أحد ، فرفع صوته مكرراً فتجاوب الصدى في المراح على صمت شامل ، فهمّ بالدخول ، فطلعت في أنفه رائحة ، فدنا من الباب يتحسّس مصدرها فلم تكن في المراح ، فذهب يميناً فخفّت ، فمال إلى الشمال فجذبته . وما زال يمشي إلى جانب الحيط حتى بلغ الزاوية فعثرت رجلاه بشيء كبير رخو فانخلع قلبه وجمد ... وكانت غيمة دكناء تمرّ بالقمر إذ ذاك وتحجبه فلا يستطيع النظر أن يتبيّن الأشياء . فانحنى يتلمّس بكفّيه ، وارتدّ على الأثر ينفضهما مذعوراً . ثم سقط القمر على جثة ! ... بل هما جثتان ! أتكون هي وطام ؟ ! ولكن الجثتين كلتاهما طويلة . ودنا ... هذا قمباز أبو زيد ، وهذه شعرات ورده ، وهاتان يداه ... بل يداها هي ملقيتان عليه ... وأسنانها في فخذه ، والفخذ معروقة قد انكشط لحمها عنها وعلقت قطعة منه بتلك الأسنان المكشّرة ... وانفرجت رجلاه هو في الاستسلامـة الأخيرة ، وانضمّت قدماها هي وتجمّعتا وغابت إحداهما تحت حجر .

وملأت رائحة النتن خياشيمه ، تصعد دفعات دفعات وتدخل إلى صدره وتزحم حلقه بقلبه . ولقد عنّ له أن يرفع يده فيسدّ أنفه ، فلم يفعل . ولبث لا يتحرك معلّقاً بالجثتين نظرة لا تنتهي .

ومال القمر ، فلمعت عيناه ... عيناه هو ... عينا أبو زيد ، كأنه يتحدى السماء تحدياً فارغاً مخيفاً . وكأن هاتين العينين تبتسمان ، بل كأنهما تضحكان ، وكأن الشاربين تحتهما يختلجان ويستقيمان ثم ينعقفان . وكأن اليد ، يده هو ... بل يدها هي تسقط عن فخذه وتضمّ أصابعها الجرداء .

ولكن القمر لملم ملاءته الشفافة فجأة ، وعاد الظلام يلفّ الجثتين الهامدتين بكفنه .

فانتفض وهرع إلى المراح فدخله وأضاء عود كبريت وهتف بصوت متهدّج : « طام ! » ووقع عود الكبريت فأشعل غيره ، فإذا شيء يتململ على الدكّة ، فوثب إليه : « طام ! طام ! »

ففتح الصبي عينيه فأهوت عليه ذراعان جبّارتان :

— أخي ! أخي ! أنا زينه !

السَّنَابِل

١

إنطلقت زينه بأخيها إلى مغارة الحورية حيث كان طانيوس بالانتظار. وفتح طانيوس كيساً للصبي، فجلس يلتهم الزاد ويصغي إلى أخبار العصابة البيضاء ولا يصدّق أن العصابة البيضاء هي هذه. فلقد طبعت الأساطير في نفسه صورة عنها أبعد ما يكون لا عن زينه وطانيوس فقط، بل عن البشر أجمعين. فجعل يحدّد النظر إليهما ويقيسهما هازّاً برأسه، حتى إذا أنس منهما الجدّ ولم يبقَ من التصديق مفرّ هبط قلبه بخيبة عظيمة.

وتحوّل كلام زينه فجأة من اللين والملاطفة إلى الشدّة والتأمّر، فأحسّ بخوف يبعده عنها، فانكمش يستمع إلى تعليماتها وتوصياتها وتهديداتها. وربّما خالجته ريبة في أمرها، فينكرها بينه وبين نفسه ويقول: «كلاّ! ليست هذه زينه!» ثم يرفع بصره إلى وجهها يتصفّحه من جديد، فتلتقي عيناه عينيها في نظرة حنان، فيعود إليه الاطمئنان.

ثم فطنت زينه إلى أنه يأكل بلا حساب، فسحبت ما تبقّى في حضنه من الطعام وقالت:

— نجوت من الموت جوعاً فهل تريد أن تموت تخماً؟

أما هو فكان يريد أن يأكل أيضاً، لا ليملأ بطنه الذي امتلأ، بل ليُشبع عينين حفر فيهما الجوع هوّة من النهم لا قرار لها. فمدّ بيده إلى كسرة أخرى فضربته عليها ضربة لم يكن ينتظرها فحملق بها مبهوتاً. ولكنها كانت قد تحوّلت عنه تطوّف في المغارة نظراً تائهاً، وتقول كأنها تخاطب نفسها:

ــ هنا كان الأخ حنانيا !

وكان القمر يتسلّل إلى المغارة ، فتجثم صخورها كالأشباح ويلتجىء الظلام إلى زواياها . فانفلتت ذراع زينه عن أخيها واستوت واقفة كأنها مأخوذة بسحر ، وراحت تتلمّس في هذا المكان أشياء وذكريات ، وتُنصت إلى كلمات وأصداء يُخيّل إليها أنها ما تزال تتردّد وأن من المستحيل أن يتغلّب عليها الموت كما يتغلّب على فانيات الدنيا ...

ثم انقلبت فجأة وقالت :

ــ أما تزال تحب سامي يا طام ؟

ــ ولكن ، ألم تقولي لي أنه مات يا أُختي ؟

ــ . . .

ــ أُحبه ، بلى أُحبه !

ــ طام ! طام ! لقد كذبت عليك .

ــ بأيّ شيء ؟

ــ كذبت عليك كذبة كبيرة . أنا لست رئيس العصابة البيضاء .

ــ مَن ؟ مَن هو ؟

ــ هو كما تقول ، لا يستطيع أن يقبضه أحد على وجه الأرض ، ولا أن يراه أحد .

ــ ألا أقدر أن أراه أنا ؟

ــ . . . وأنا وعمّك طانيوس جنديان عنده . وستصير أنت مثلنا جندياً من جنوده .

ــ ويعطيني مارتينه كهذه !

ــ سأقول له أن يدبّر لك عملاً في العصابة البيضاء ، لأنك لا تستطيع أن تراه الآن .

ــ ولماذا ؟ خذيني معكِ إليه .

ــ هو في مكان بعيد ، بعيد يا طام ، وأنت صغير جداً . غداً عندما تكبر...

ــ أما تزالين تقولين إنك صغير ؟

ـــ عندما تكبر تصل إليه وتراه .

ـــ أُريد أن أراه اليوم .

ـــ ستراه يوماً من الأيام يا طام . قلت لك ستراه، ما من ذلك بدّ .

وتهدّج صوتها بالبكاء .

ـــ وحدي ؟ ستكونين معي ، أليس كذلك ؟

ـــ مَن يدري ؟ ربّما كنت وحدك .

ـــ لماذا لا ترافقيني .

ـــ ربّما سبقتك أنا . وإذا سبقتك فإنني لن أعود . أتخاف أن تذهب وحدك ؟

ـــ ومَن يدلّني ؟ هل يعرف عمّي طانيوس الطريق ؟

ـــ سأدلّك أنا . طانيوس يعرفها ولا يعرفها .

ـــ كيف !

ـــ أُريد أن أقول إنه يشرد بعض الأحيان ، لأن الطريق تطلع وتنزل بين الجبال والأودية ، وفيها شعاب كثيرة .

ـــ أنا لن أضيع . أفعل مثل الشاطر حسن في حكايات جدّي : أُعبّئ جيوبي بالرماد وأرشّ منه على الطريق لأعرفها فيما بعد ... أصحيح يا أُختي أن رئيس العصابة البيضاء يتكلم بلغة غير لغتنا ؟

ـــ اي ، له لغة خاصة .

ـــ أتفهمينها أنتِ ؟

ـــ أفهمها .

ـــ وأنا . علّميني إياها .

ـــ سأُعلّمك إياها يا طام .

ـــ علّميني .

ـــ هي قريبة من لغتنا نحن يا طام . ولكن يجب أن تخفض صوتك وتجثو على ركبتيك وتضمّ يديك .

ونظرت حواليها فإذا طانيوس ما يزال غارقاً في نومه ، فدنت من أخيها وقالت له :

— إركع .

فركع على أرض المغارة وركعت إلى جانبه وضمّت يديها إلى صدرها ، فضمّ يديه، فقالت :

— قل معي : « أبانا الذي في السموات ... »

٢

في مساء اليوم التالي ابتدأ عمل طام في العصابة البيضاء . فقد تشاور طانيوس وزينه في أمر ابراهيم بك فاخر ، فكان رأيه أن يدهمه في منزله ، وكان رأيها التربّص له بعيداً . أما هو فيطمع بالاستيلاء على شيء من مال الغني ، وأما هي فلا تريد إلا الانتقام . على أنها انتهت إلى إقناعه ، فامتثل كالكاره ... وخرج الثلاثة فكمنوا في ضاحية بكفيّا، بالقرب من طريق قال طام إن البك يركب عربته عليها كل يوم عند الغروب ، لا يتخلّف إلا في النادر عن هذه النزهة الرائقة .

انبطحت زينه وراء صخرة كبيرة ، وقبع طام إلى جانبها يحبس أنفاسه ويمدّ برأسه بين الحين والحين إلى أول الطريق ، ثم ينظر إلى أُخته في اتكائها على البندقية ، وإلى البندقية في اتكائها على الصخرة ، فتخالجه خشية فيها شيء كثير من السرور . كانت تلك المرة الأولى يخرج فيها إلى مثل هذه المغامرة . وكان يشعر بالشفقة على ابراهيم بك فاخر بالرغم من كرهه الشديد له ، فيودّ لو يجد له أسباباً مخففة :

— الناس يقولون إن رئيس العصابة البيضاء لا يقتل إلا الأتراك ، وابراهيم بك ليس تركياً .

— ابراهيم بك فاخر عدوّ لا يقلّ شرّه عن الأتراك ، بل إن شرّه أعظم . رئيس العصابة البيضاء كان يقول لي : البك وأمثاله هم العدو الداخلي والأتراك

العدو الخارجي . الأتراك يسلبون الناس حريتهم ، وابراهيم بك فاخر وأمثاله من الأغنياء الجشعين يسلبونهم خبزهم . الخبز والحرية ، هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدونهما ..

فجعل الصبي يبلع بريقه محاولاً فهم هذه الأشياء ...

وطال الانتظار . والتفتت زينه إلى دَغَل قريب كان يختفي طانيوس وراءه ، ونادته فلم يجبها . فدنت تُزيح القضبان بالبندقية فلم تجد له أثراً . فارتقت إلى تلّة وأجالت بصرها حولها فلم ترَ أحداً . فأدركت أنه غافلها ، فتعبّق وجهها بالغضب ، وانحدرت فأخذت بيد طام وقالت له :

ــ أنت تعرف بيت ابراهيم بك جيداً . أليس كذلك ؟

ــ إي.

ــ اذهب إليه ، دُر حول الحديقة وادخل إذا قدرت ، ثم تعود إلى هنا وتخبرني . وإذا رأيت طانيوس فتظاهر بأنك لا تعرفه ، لا تقرب منه ولا تكلّمه . أفهمت ؟

ــ فهمت ، فهمت . أخفض رأسي هكذا (وثنى عنقه) وأمدّ كفّي كأنني أطلب حسنة .

ــ وإياك أن تقول لأحد إن أُختك زينه أرسلتك أو أنك تعرف أين هي ؟ أنا أنتظرك فلا تتأخر . وسأقول لرئيس العصابة البيضاء أن يعطيك مارتينة صغيرة .

كان بين الكمين وبيت الغني مسيرة عشر دقائق . فانطلق طام مسرعاً ، يدير بين الفترة والفترة وجهه إلى الوراء فتشير عليه زينه بالمضي ، حتّى غاب في المنعطف ، فقعدت تنتظر على أحرّ من الجمر . ثم ساورتها المخاوف على هذا الصغير ، أن دفعت به في هذه المخاطرة مع ما تعلم من طيش ابن عمّها طانيوس ، وتعرّضه للمشاكل ، وقلّة تفكيره بالعواقب . وندمت على ما فرط منها ، وجعلت قدماها تجذبانها إلى الجهة التي مشى فيها طام ، فمشت مستخفية بالصخور والأدغال ، تنظر وتُرهف أُذنيها . وكان المساء هادئاً جميلاً فسرت في بدنها قشعريرة ، وخفق قلبها خفقة كبيرة لا تدري لأي شيء خفقها .

على أنها كانت تعتقد بمثل هذه الخفقة ، ترى فيها شعوراً سابقاً لحدث من الأحداث . فصلّت في سرّها إلى الله أن يحرس طام من الأذى .

وفجأة شقّ الجو أزيز رصاصة غير بعيد . فوثبت إلى الطريق ، فإذا طقطقة ووقع حوافر ، فتوارت . فإذا العربة تمرّ فارغة وجوادها ينهب الأرض ! فرفعت رأسها ترافقه وهو يعدو ، والعربة تعلو وتهبط بين الحفر ... ثم انطلقت رصاصة أخرى فأجفلت وأدارت وجهها ، ولكن ضجة عظيمة ردّتها ، فالتفتت أمامها فإذا الحصان قد أجفل هو الآخر وانقلب بالعربة إلى جانب الطريق رافعاً قوائمه إلى السماء .

لم يبقَ عندها أدنى ريب بأن طانيوس هو بطل هذه الحادثة . فذهبت في الجهة التي أتى منها الرصاص . فلم تسِرْ إلا قليلاً حتى سمعت حركة ، فخفّفت وطأها وأنصتت . وكانت قد وصلت إلى تلّة صغيرة ، فعنّ لها أن تنادي طانيوس ولكنها حسبت للمفاجآت حساباً فآثرت أن تستكشف بعينيها ، فحبَت على التلّة دافعة فوهة البندقية أمامها . وأطلّت فرأت طانيوس مكبّاً على جثة عسكري يفتّش في جيوبه منهمكاً لاهثاً . فهتفت :

— أين هو ابراهيم فاخر ؟

— يا ضيعة الرصاصة في هذا العسكري !

وانحدرت زينه فإذا صوت :

— أختي ! أختي !

كان طام على خطوات منها وفي يده حبل يشدّ به إلى جذع شجرة ضخمة رجلاً لم تكد عيناها تقعان عليه حتى صُعقت في مكانها . وقال طانيوس :

— هذا خليل المعلاّ ، تركته لك .

فتقدّمت منه . طالما سعت وراءه ، فإذا الأقدار تضعه بين يديها بأعجوبة . أما هو فحملق بها وصرخ مسترحماً . فلبثت ساكتة ، تغرس فيه نظرة فيها من الاشمئزاز والشماتة ، وفيها من غبطة الظفر وسعادة الانتقام . وكان طام ما يبرح ممسكاً بطرف الحبل ، وعيناه تتردّدان بين أخته وأسيره وقد لمع فيهما

سرور غريب . وإذا بزينه ترفع يدها وتنزع الكوفية التي كانت تتلثّم بها ، فيعلو صدر خليل المعلاّ بدهشة لا حدّ لها وتزيغ عيناه حتى لكأنهما تطيران من وجهه :

— زينه !

ولم يكن أحدهما يطمع من صاحبه بأكثر من هذا . فدنت منه دنوة وقد امتلأ فمها بلعاب حدّثتها نفسها بأن تقذفه به على وجهه شتيمة كبرى . وضربت بكفّها على البندقية ، فاصطكّت ركبتا المعلاّ واسترخى في وثاقه وهتف :

— كلمة ... كلمة واحدة !

فدفعت عقب البندقية بين شدقَيه فسال منهما دم وزبد، وبين الدم والزبد استغاثة أُخرى :

— زينه ! قبل أن تقتليني ...

فناولته الضربة الثانية .

— سامي عاصم ...

— أتلفظ اسمه بهذا الفم الوسخ ؟

وقذفته بضربة أُخرى . وتراجعت ، فصرخ :

— سامي عاصم لم يمت !

ولكنها نادت أخاها :

— ابتعد يا طام .

وسدّدت البندقية .

— سامي عاصم لم يمت ! إنتظري . إنتظري . الجثة التي رأيتِها أمام ديوان الحرب في عاليه ليست جثة سامي عاصم .

فانفرجت أصابعها عن الزناد . وجاء طانيوس فنكبّس بندقيتها بيده ، واقترب من خليل المعلاّ بخطى بطيئة وهزّه من كتفه :

— ماذا تقول ؟

وأقبلت زينه وقد ثاب إليها ما غرب من عقلها ، فأخذ الجاسوس يقصّ

عليهما قصة هرب سامي عاصم ورئيس الحراس شفيق أفندي العلايلي من سجن عاليه ، وما كان من الخدعة التقليدية التي دبّرتها الدولة بعد أن فات العسكر اللحاق بهما ، وذلك بأن انبطح خليل المعلاّ في الساحة على أنه جثة سامي ، وانبطح أحد الجنود الضخام إلى جانبه على أنه جثة رئيس الحراس ... وزينه تصغي مدهوشة ، وتعيد إلى ذهنها صورة تلك الجثة الضئيلة المسودّة المغطّى رأسها بكيس خيش ، وتحدّق إلى قدمَي الأسير تتعرّف فيهما على تينك القدمين ، وإلى كتفه الضيّقة الواطئة تتعرّف فيها إلى تلك الكتف . ثم يخامرها ، بالرغم من ذلك ، الشكّ فيما تسمع فتشتعل أحشاؤها ثانية ، وتحدّثها نفسها بأن هذا الجبان إنما يختلق هذه الحكاية وينسج ثوبها الجميل البرّاق التماساً للنجاة ، فتتذكر دعوة الضابط راسم بك لها على أثر عودتها من عاليه ، وتطنّ في أذنيها من جديد أسئلته المريبة : « أين بتّ ليلتك في عاليه ؟ هل رأيت سامي بعد هربه من السجن ؟ ... » ثم تتذكر هذيانه ، عندما أسكرته في تلك الليلة ، وقوله : « لو كنت سكران لأخبرتك أشياء عن سامي عاصم ... ولكنني لن أخبرك ... مسكين خليل المعلاّ ! لقد مات أربع مرات ... ! ! ! » حينئذ يعاودها الاطمئنان إلى ما تسمع ، فتجتاح كيانها موجات من نشوة ليس لها بها عهد من قبل ، وتهدر هذه الموجات في داخلها هديراً وتصعد إلى حلقها دفعات من شهد إثر دفعات ، فتلبث جامدة تصغي إصغاءة إذا عكّرها عليها معكّر فإنما هو من أسئلة طانيوس ، هذه التي يطرحها على المعترف بإلحاح وعنف ، فتودّ لو يُمسك عنها ويدَعه يتكلم وحده ... وربّما كبر هذا الذي تسمع فلم تسعه نفسها ففاض حتى غمرها بجوّ الحلم ، فليست تعتقد أنها في يقظة ، بل أن هذا الذي تكاد تلمس حقيقته وبراهينه لمس اليد لا يمكن أن يكون إلا هاجساً من هواجس حبّها أو طارقاً من طوارق الأماني . ولو لم يكن إلا هكذا لشاءت أن لا ينقطع حبله ولا ينصرم عهده . بل لكان أقصى ما ترجوه أن يمتدّ بها فلا تفيق إلا في ظلام القبر .

— يجب أن تصدّقيني يا زينه . صدّقيني ثم افعلي بي ما بدا لك . أنا أعلم

أن حياتي التي قضيتها في التجسّس على بني قومي خدمة لأعدائي وأعدائهم الأتراك قد قاربت النهاية ، بل يجب أن تنتهي . تستطيعين أن تضعي لها حداً بيدك أنتِ . على أني أحببت أن أكفّر عن ذنوبي فاعترفت لك بكل هذه الأمور . كنت آتياً مع الضابط في العربة لأتحسّس مدى ما تريد العصابة البيضاء بابراهيم فاخر ، فإذا العصابة تقع عليّ وعلى الضابط ... أنا لا أطلب منك شيئاً . لا . أنا لا أطلب منك شيئاً . كلمتي الأخيرة لك : صدّقيني ! صدّقيني ! لقد طالما كذبت ، ولكن كلمتي في هذه الساعة فيها من الصدق ما يخسف بكل ما كذبت في حياتي . أنا ، بحكم وظيفتي ، مطّلع على كثير من أسرار الدولة وواقف على سير الثورة العربية في الصحراء . إن العرب يتقدّمون من ظفر إلى ظفر ، وسيتقلّص ظلّ الأتراك قريباً عن هذه البلاد ... سامي عاصم وشفيق العلايلي هما في طليعة الثوّار ، وقد تقلّد كل منهما رتبة ضابط في الجيش العربي . إن التقارير الواردة إلى الأتراك من ميدان القتال تؤكّد ذلك . ولو كانت لديّ خريطة لعيّنت لك أين وصل سامي وصديقه ، ووضعتِ إصبعك على مكانهما .

. . . .

٣

في الأرض الواسعة ... في السهل الكبير الذي لا حدود له ... وقد خلع عليه القمر حلّته الفضية الساحرة ، وتوشّت القبّة الزرقاء بآلاف النجوم ، قافلة تُدلج بين السماء والصحراء . خيط قصير على طوله ، ضئيل على ضخامته ، يذهب مستقيماً حيناً وينعرج حيناً ، يصعد على الكثبان ويهبط ، والمطايا تخفق على الرمال الليّنة الوثيرة ، ترتمي أخيلتها تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار قافلةً أخرى إلى جانب تلك تلتزمها أبداً ، الخُفّ على الخُفّ والغارب على الغارب ، أشدّ ما يأخذ فيها صمتها الماشي كأنها من بنات الحلم أو طيوف الأرواح .

وفي المقدّمة هجينان متحاذيان، يرفعان رأسيهما بكبرياء ، ويميل راكباهما الواحد على الآخر فيتبادلان نظرة . وقد يهمّان بالحديث فلا يجدان له سبباً، فيعودان ساكتين ، متهادين على السنامين ، مستسلمين إلى هذا الجمال الهادىء ينبسط أمامهما ملء السماء والصحراء .

كان سامي وشفيق يقصدان بقافلتهما إلى أقرب محطة للقطار الحديدي ، ومعهما مدفعان خفيفان وكل ما يحتاجان إليه لقضاء المهمة الدقيقة التي انتدبهما القائد لها . وفي الهزيع الثاني من الليل أشرفت القافلة على المحطة ، وهي واقعة في وادٍ صغير تحت رابية يمتدّ الخط حواليها ويلفّها، كالحيّة لا ذنَب لها ولا رأس . فرأى سامي اعتلاء الرابية فانحرف وقاد المقدّمة، وأشار على شفيق أن يضبط المؤخرّة .

وكانت الغيوم قد حجبت القمر ، وترطّب الجو بنسمة باردة واطئة تزحف على الأرض . ثم إذا هي تشتدّ فجأة وتتحول إلى ريح تنفخ الثياب وتعوق أصحابها عن الصعود . ثم جعلت تصفر في آذانهم وتصفع وجوههم فيتهاوى بعضهم على بعض . ثم تعاظم الصفير فإذا هو ليس صفيراً بل دمدمة بزغردة بنواح بعزيف بمواء : أصوات تجتمع متنافرة وتتنافر مجتمعة كألحان الجحيم ، تجتاح ، تقتلع ، تذري في الفضاء، تذهب بأحمالها الطائرة ، ضاربة بها الآفاق طولاً وعرضاً، وعلوّاً وسفلاً ... ثم سقط الجو بالأمطار زخّاً كالرصاص يجرّح الأكف المتواثبة المتمسّكة بالرمل والحصى ، والفحول تهدر من الفزع ، بعضها يحرن ويأبى التقدّم ، والبعض الآخر يقطع اللجم شارداً أو يزلّ متدحرجاً إلى السفح ، وقد جنّ الليل فلا يرى الرائي إلا هولاً ، واختلطت استغاثات البشر بصيحات الحيوانات بزغردات ألف ألف جنّية، وقرص البرد الجلود وشلّ الأعضاء فهي تترامى عاجزة وتودّ لو تلتصق مواضعها ، لولا أن الرياح تنفضها فتعود إلى الارتفاع لتعود بها الرياح سيرتها الأولى .

فصاح سامي :

— على بطونكم ! على بطونكم، ولا تتحرّكوا !

فمَن سمعه ممّن كانوا قريبين منه انبطحوا على بطونهم يغرسون أظافرهم في الأرض صامدين للعاصفة. وانحدر هو يتابع صياحه:

ـ اضطجعوا على بطونكم! على بطونكم، ولا تتحركوا! على بطونكم!

فتردّدت الأصوات من بعده ناقلة الأمر من جماعة إلى جماعة. ثم هدر صوت شفيق فوق أصواتهم:

ـ على بطونكم! على بطونكم!

فلصقوا جميعاً بالأرض. وبركت الجمال، إلا بعض أشباح ظلّت تدور على نفسها وتلوّح بغواربها المروّعة في وجه الليل المجنون.

* * *

بعد ربع ساعة هدأت العاصفة بمثل السرعة التي هبّت بها، وانقشعت الغيوم هاربة إلى الشرق وأطلّ القمر؛ فأصدر سامي أمره بالسعي وراء الحيوانات الشاردة، فانطلقوا يبحثون عنها، ولم يلبثوا أن عادوا بأكثرها لم يفقدوا إلا أربع نياق. ثم استأنفوا الصعود، وسبقهم سامي فأشرف من القمة فلمح أضواء المحطة. ودار حول المكان فاختار منصباً للمدفعين. ثم أرسل جنديين يستكشفان الأعداء، فغابا ساعة ورجعا يقولان إن الأتراك ينامون ملء عيونهم. وكان العرب أحقّ منهم بذلك فاستسلموا إلى نوم هنيء.

ولما اطمأنّ سامي عليهم حمّل شفيق معدّات الانفجار ونزلا معاً يتلمّسان على الخط الحديدي أصلح موضع للغمه.

٤

عند بزوغ الفجر أخذت الحركة تدبّ في المحطة، واستطاع سامي أن يرى الجنود الأتراك يستيقظون على صوت البوق، يروحون ويجيئون بين بنايتين واطئتين في إحداهما برج يعلو في الفضاء، له عيون عمودية سوداء تطلّ على الجهات الأربع. ثم رأى ستة جنود حاملين البنادق قد خرجوا من البناية الأولى

على الخط الحديدي إلى ناحية الرابية ، حتى إذا وصلوا إلى السفح انقسموا ، فذهب ثلاثة إلى اليمين وانعطف الثلاثة الآخرون إلى اليسار ، وسامي يتناوبهم بمنظاره ، ويشير على رجاله بالهدوء التام .

وفجأة غاب الثلاثة الذين إلى اليمين ، وتفرّق الثلاثة الباقون كل واحد أخذ جهة . وصعد أحدهم تواً إلى الأكمة يدفع بندقيته في الأرض متكئاً عليها ، مسدداً خطواته إلى مكمن العرب بكل اطمئنان ، وهو يتوقف بين الفترة والفترة ويطوّف بصره حواليه ، ثم يتنفّس الصعداء ويتابع طريقه ، حتى لم يبقَ بينه وبين القمّة إلا بضع خطوات ، وبان شارباه المعقوفان ينفخ بينهما لاهثاً من شدّة التعب .

كان شفيق واقفاً غيرَ بعيد من سامي والبندقية بين يديه ، فنظر إليه كأنه يستشيره : « هل أُطلق ؟ » فشال بحاجبه سلباً . إن أقلّ طلقة في تلك الساعة كانت جديرة بأن تُفسد على العرب خطّتهم . فغرضهم الرئيسي نسف القطار لا الاشتباك مع حامية المحطة . وكان التركي يتقدم دائماً ، فأشار سامي على شفيق بالاستتار جيداً كيلا تنفّر الصاعد إليهما ريبة . فإذا هو يقف ويدير وجهه إلى الوراء كأنه أزمع الرجوع . على أنه لم يلبث أن استأنف الصعود . وكان إلى جانب سامي وشفيق فرجة بين صخرين لم يشكّا أن صاحبهما والج فيها ، فلم يكد يفعل حتى وثب سامي إليه فاعتلاه ضاغطاً عنقه وطرحه أرضاً فعركه بفخذه فاندلق لسانه ، وأقبل شفيق يدفع فوهة مسدسه فوق ذلك الوجه المذعور . وأخذ سامي يستنطق أسيره عن قوة الأتراك ، ففتح فاه يوأوئ ، فحسبه شفيق يتعمّد الصمت فضربه بالمسدس على جبينه ، فطفرت الدموع إلى عينيه وتراقص شارباه ، وتلعثم يطلب الكلام فلا يطيعه . فهمّ شفيق بالضربة الثانية فمنعه سامي لِما تحقّق لديه من أن الرجل إستحوذ عليه الخوف فعقد لسانه ، فأفهمه أنه لن يقتله شرط أن يعترف بكل شيء ، بل يكرمه كأحسن ما يكرم العربي ضيفه . فاطمأن وأخبر أن الأتراك يبلغون الخمسين ، وأن القائد أرسل عند الفجر الكاذب مَن استكشف سفوح الأكمة ، فوقع المستكشف

على جثتي ناقتين ، فاستدلّ منهما على مرور العرب بالقرب من المحطة ، ولكنه ظلّ في جهل للناحية التي سلكوها بعد العاصفة أو الموقع الذي أناخوا فيه ، وأنه قلق من أجل ذلك قلقاً شديداً لأنه ينتظر قطاراً بعد طلوع الشمس يحمل نحواً من مائتي جندي وعدداً من الضباط قاصدين إلى « معان » للدفاع عنها ، بعد أن تفاقم حصار العرب لها ونفدت فيها المؤن والذخائر .

ولم يكد الجندي يفرغ من إفادته الثمينة حتى استغاث بسامي طالباً قوتاً ، معترفاً بأنه لم يذق منذ يومين إلاّ رغيفاً أسود وقليلاً من الحساء . فسلّمه إلى شفيق فساقه وألقى بين يديه طعاماً ، وتركه يلتهمه بنهم الذئب في حراسة بدوي، وأوصى البدوي أن يقتله لأول صوت يحاول أن يطلقه أو حركة مريبة يأتي بها .

وكان سامي في تلك الأثناء يتفقّد المدفعين ويهيّئ رجاله . حتى إذا رضي عن كل شيء تسلّق القمّة من جديد يصوّب منظاره إلى أطراف الصحراء .

كانت الشمس قد ذرّت وانتشر البهَق في الآفاق . فلاح له في الأبعاد ما ظنّه بادىء ذي بدء تلويحة من تلاويح الصباح ، فسوّى المنظار وحدّد بصره ، فإذا شيء مثل الغمام ... بل هو دخان وتحت الدخان مثل النقطة الطويلة السوداء . فلم يشكّ أنه القطار الموعود، فدعا شفيق وأعطاه المنظار ، فوضعه على عينيه فرقص قلبه فرحاً . ثم ترامت عيون الصديقين عفواً الى السفح حيث وضعا اللغم :

— أأنت واثق منه ؟

فابتسم سامي وأجاب :

— سترى مشهداً عجباً .

كان القطار يقترب منساباً على الرمال ، نافثاً دخانه المتكاثف ، متعاظماً على رأي العين . ثم حمل الهواء قرقعة دواليبه فأحسّ لها سامي ارتعاشة في بدنه . وأبى شفيق إلا أن يذهب إلى الأسير ويشير بيده الضخمة إلى القطار كأنه يدعوه إلى جنازته . ثم لم يبقَ بين القطار والرابية إلا رمية حجر ، والدخان

يخرج من فوهة المحرّك متدافعاً متقطعاً بنغمة بطيئة متوازنة . فلم يستطع شفيق كبح نكتته وقال :

ــ حازوقة الموت !

ثم تداركت النغمة ، واختفى المحرّك يجرّ خلفه سلسلة طويلة من الحافلات فتبلعها الرابية واحدة فواحدة . فقفز سامي إلى الجهة الأخرى من القمّة، وتبعه شفيق وقبعا ينتظران بروز القطار ، وقد خفتت ضجته وراء الأكمة ، ثم أخذت تهدر ، وشقّ الفضاء صفير ارتجّ له قلب سامي . وكرّ القطار على الأثر مسرعاً ، فمرّ المحرّك فالحافلة الأولى فالثانية فالثالثة ... فالتفت شفيق إلى صديقه فرآه يحملق مأخوذاً ... فالرابعة فالخامسة فإذا دويّ كالرعد قلقت له الصحراء في سكينتها ، وجبل من الدخان يتعالى في الجو حتى حجب الأنظار ، وأخشاب وحدائد وأشلاء ودواليب تدور لتهوي في خليط عظيم من الدخان والغبار والرماد . وعقب ذلك سكوت رهيب ، وأخذت السحابة الكثيفة تنقشع شيئاً فشيئاً عن مركبات محطمة هنا ومنقلبة هناك ، وقطعة من الخط قد اقتلعها اللغم ورفع رأسها إلى العلاء ، وقتلى يتمدّدون على الأرض ، وآخرين يعلقون كالحشرات على بقايا القطار، وصيحات ذعر، وأنّات ألم ، وهتافات ...

على أنّ سامي لم يكن لديه متّسع من الوقت لكي يتملّى من هذا المنظر الرائع ، فانقلب إلى رجاله يوزّعهم وينظر بين هذا وذاك إلى الجنود المبادرين من المحطة إلى نجدة إخوانهم . حتى إذا دنوا من السفح وتكتّل الأعداء جميعاً، قتلى وجرحى وأحياء ومُنجدين ، نادى بإطلاق النار ، فدوّى المدفعان بقنابلهما وأزّ الرصاص من المثّي البندقية المتحصّنة فوق ، فقامت الضجة بين الأتراك وضاع رشدهم بين هول ما ينظرون بين الأقدام وهول ما يسقط على الرؤوس، فصاح بهم قائدهم وسحبَ سيفه وتقدّم وهو يرجو أن يتبعوه . فإذا هو يرتدّ رأسه إلى الوراء منقصفاً ، وتتدحرج جثته على السفح . فما كاد جنوده يرون مصرعه حتى أدبروا . فشهر سامي سيفه وانقضّ ، فوثب رجاله من أكنافهم وانقضّوا معه، يُعملون سيوفهم بالصامدين ويتعقّبون الفارّين .

واستعجل بعضهم الغنيمة فهجموا يغزون الحافلات ويستولون على ما فيها من ذخائر ومؤن . وشفيق بينهم يحطّم ما تبقّى من أجزاء القطار . وحانت من سامي التفاتة فإذا بجندي تركي يزحف على تلك المركبة المهشمة ويُدلي برأسه فوق شفيق ، ثم يمدّ يده بمسدس كبير محملقاً ، كأنّ الرصاص سينطاق من عينيه ! وشفيق ما يبرح لاهياً ، مزهواً بعمله ، وقد تقوّس ظهره وانصبّ المسدس فوقه . فسدّد سامي بندقيته ، فأجفل شفيق للطلقة القريبة ، ورفع بصره فإذا أصابع الجندي التركي تنفرج عن المسدس ، فتلقّاه منه ونظر إلى سامي بابتسامة . ثم سحب الجثة إلى الأرض وقذفها برجله ومشى .

وأدار سامي وجهه ، فجمع جنوده فحملوا ما استطاعوا تحميله على جِمالهم وجِمال حامية المحطة ، وساقوا أسراهم وانطلقوا لا يبالون بالحرّ ، لاضطرارهم ان يلتحقوا بفرقتهم قبل الوصول إلى « وادي أبي اللسان » .

٥

عند الظهر تضرّمت الهاجرة وجعلت الشمس تضرب الرؤوس ، فيتراجع صدى الضربات في الأصداغ ، وتحترق الأجفان حتى لتكاد تنفضّ من الوهج المتصاعد من العراء ، المترامي من الفضاء ، المتلاقي بينهما عموداً عرض الصحراء ، حاجزاً هائلاً لا جسم له ، تخترقه الجِمال بأجسامها القاسية العتيّة . والطريق لا معالم لها ولا رسوم ، تذهب القافلة جنوباً وكأنها تذهب شمالاً ، وتتقدّم وكأنها تتقهقر ، تتيه ساعة فتقف متجمّعة ، وتدور العيون الى كل صوب تستهدي بالظن والتوهّم ، حتى يرفع الدليل ذراعه ويهتف مشيراً إليهم ، فتكرّ الإبل كما يكرّ الخيط من بكرة ، وتستأنف القافلة السير .

* * *

صخور تذهب في السماء قباباً ، وتنبطح كحيوانات الأساطير ، تتعاقب قوافل ، وتتحاذى صفوفاً ، تتباعد هنا كالقطيع السارح ، وتتراكب هناك كبقايا

مدينة دمّرها الزلزال، وشمس الأول من تموز تعربد على الأفق العاري، وتكسّر أشعتها الحادّة على الصخور، فتلتمع فيها ألف مرآة ومرآة، وتمتدّ لها أظلال أغرب من أشكالها وأعجب، فيتألف من ذلك كلّه وسط الصحراء عالم رهيب هو الذي تصوّره المتصوّرون مواطن للجنّ ودهاليز لائتمارهم وسحرهم.

في ظل صخرة من هذه الصخور المهيبة استلقى شفيق على ظهره إلى جانب نبعة، يرفع رأسه بين الحين والحين فيتفقّد الجنود وقد تمدّدوا في الفيء يتّقون الحرّ، وشردت خيلهم وجِمالهم غيرَ بعيد تتلمّس الكلأ، ثم يعود إلى الاستلقاء عاقداً يديه تحت رأسه مستسلماً إلى إغفاءة حلوة.

وإنه لكذلك إذ انتبه على أزيز رصاصة فتناول بندقيته وزحف إلى الشفير. فإذا شيء من الوراء يسحبه من قدمه فالتفت وقال:

— سامي، هل سمعت الطلق؟

فاكتفى من الجواب بإيماءة، وانحنى على الماء يعبّ منه ويمسح شاربيه مبترداً. ثم خلع مسدسه من وسطه وألقاه على الأرض واضطجع بالقرب من صديقه.

ومضت دقيقة سكوت. ثم مال شفيق وقال:

— الرصاصة من الوادي، أليس كذلك؟

— كانت مرسلة إليّ فضلّت الطريق. أظن أنهم يبلغون الأربعمائة.

— ولكننا نحن فوق، وهم تحت.

— وهذا ما يجعل واحدنا بعشرة منهم.

— إذن؟

— القائد يفضّل أن نحاربهم بالنوم.

— يريد أن يرغمهم على الاستسلام؟

— أو أن يدفعهم إلى الصعود إلينا فنصطادهم كالعصافير.

وعاد سامي إلى إطباق عينيه. حتى إذا أخذه النعاس تسلّل شفيق وقصد إلى القائد.

وفجأة استيقظ سامي على صهيل وجلبة . فوثب ينظر فإذا شفيق على الكتف المحاذية من الوادي قد علا جواده، وإذا هو يزعق زعقة تجاوبت أصداؤها في الأرجاء ويندفع نزولاً . وما هي إلا أن انصبّ الوادي من جهاته الثلاث بالرجال ، البعض على الخيل والبعض على الجمال، وهي تنقضّ بهم كأنها بعض الصخور حطّها السيل ، وهم يطلقون النار من على ظهورها ، وهو في الطليعة يترك ذؤابة كوفيته الحريرية للهواء ، ويرتدّ بين الفترة والفترة كخطف البرق ليزعق زعقة أُخرى ... ونظر سامي فرأى الرعب يدبّ في قلوب الأعداء ويضعضعهم ، فهم لا يدرون كيف يتّقون الرصاص وقد زخّ عليهم كالمطر من كل صوب . فنسي ، في نشوة هذا المشهد ، هوَس صاحبه ومجازفته بما يجازف به ، فبادر إلى بندقيته ، ففرسه الشهباء فامتطاها ولوى عنقها ، فانحدرت تلحق بالسابقين ، وكأنها غضبت لِما كان من إمساكها فهي تحمحم وتمدّ برأسها وما تكاد حوافرها تطأ الأرض . وهو من فوقها يسلّم إليها تسليماً ، قد أعمى الوغى عينيه وسدّ منخريه ، ولغط المعركة يضجّ في أُذنيه صراخاً وهديراً ودويّ رصاص وهويّ أجسام ، فيحاول أن يرى فتلمع الشمس خلال الغبار والبارود المنعقدين طبقاً بين السماء والأرض ، فتؤذي بصره ويحسّ لها بين أجفانه مثل الجراح ، حتى لكأنّ هذه الجراح قد سالت بدماء محرقة لو رفع كفّه إلى خديه لالتقط حبّاتها المختلطة بعرقه المتصبّب ... والفرس ماضية به هائجة مجنونة ، تشقّ الحجاب الكثيف كالصاروخ منطلقاً بلا وعي ، وإذا بها تزلّ على حين غرّة وتنقلب رأساً على عقب، وتقذفه من عظم ذلك وحيداً في الفضاء فيقفز ثم يسقط وسط المعركة ، لا حراك ولا شعور .

٦

لم يكن سامي يهاب الموت . ولكنه ، لما ثاب إليه رشده بعد قليل ، عجب كيف أنه لا يزال في قيد الحياة . وبلغ به العجب أن لم يجرؤ على فتح عينيه،

فبقي ساهماً يتلمّس في ظنّه ألم جرحٍ ما ... فإذا هو لا يحسّ ألماً البتة ، إلا دواراً في رأسه ، فهو لا يقدر على تحريكه كأنه جلمود أو جبل . ثم سمع أصواتاً تتردّد في أُذنيه آتية من بعيد ، غامضة ، عميقة القرار ، بينها أنّات قريبة ، واضحة ، موجعة الوقع ، محددة النبرات . ففتح أجفانه فبهرته الشمس ، فعاد إلى إطباقها ، يصغي إلى هذه الأنّات المتواصلة ويتملّى منها . ثم نظر من جديد فواجهته جثة فرسه وقد انطرحت مقصوفة العنق وتمدّدت قوائمها الامتداد الأخير .

وتململ يريد القيام ، فإذا هو بحركة من ورائه ، فارتدّ فرأى جندياً تركياً بين القتلى يزحف ساحباً ساقه المشلولة ، وكلّما مدّ يده أرسل أنّة من أعماق صدره وعضّ شفته . فتناول مسدسه وهمّ بالإجهاز عليه ثأراً لمئات الجرحى والأسرى من العرب الذين فتك الأتراك بهم بلا حقّ ولا رحمة . وكان التركي مُدبراً ما يفتأ يجرجر نفسه على الحصى ويغرس أصابعه في الأرض تارة ، ويزحل على كوعه تارة أُخرى . فرفع سامي رأسه يرافقه في هذه المرحلة البطيئة الشاقّة ، فإذا هو يتحوّل شمالاً ويظهر جانب من وجهه الأبرص تبرق الرقشات فيه على الشمس بالقرب من قطرات قانية تتحدّر من صدغه . ثم يدنو فيحملق بجثة عربي بارزة بعباءتها الصفراء بين عشرات الجثث المتزمّلة بالثوب التركي ، ويضرب إليها بكفّه ملهوفاً ، فتقع الكف دونها عاجزة ، قد سمع سامي وقعها الخائب على الأرض . ثم دنا الجريح دنوة أُخرى وتناول أطراف العباءة بكلتا يديه يشدّ بها . فتعجّب سامي من فعلته وصوّب المسدس . ثم قال : « بل أنتظر ماذا يريد » ، والآخر ما يزال يعالج العباءة وهي تأبى أن تطيعه لضخامة الجثة وعجزه عن تقليبها . ثم انكبّ على الأطراف التي بين يديه يمرّغ فيها وجهه تمريغاً غريباً ، وكأنه يتشمّمها ، ويمسح عليها بشفتيه بمثل القبلات ، ثم يعلو بذقنه جهده متصفّحاً وجه القتيل .

فلم يشكّ سامي أن الرجل مجنون فأدركته عليه الشفقة ومشى إليه هاتفاً :

— هيه ! ماذا تعمل يا هذا ؟

فانتفض الجندي رافعاً يديه :

ــ أنا عربي مثلك !

ثم فتح عينيه فالتقتا عيني سامي . كان يرتجف من الذعر منتظراً أن يتلقى الموت بين الهنيهة وأختها . ولكن سامي ظلّ خافضاً كفّه بالمسدس ، يحدّق إليه تحديقة طويلة ، وقد استفاقت في ذهنه صورة بعيدة يجتهد في أن يدنيها ويستجلي شبه ما بينها وبين هذا الوجه ، فتغيب في ظلمات الماضي وتضيع في مجاهل الذاكرة ، فيبلع بريقه ويرفع كفّه إلى جبينه ، والجريح يتمتم مستغيثاً :

ــ أنا عربي مثلك ، لا تقتلني ! وقد كنت زاحفاً إلى هذه العباءة لألبسها وأنضمّ إليكم . أنا من الشام، حاولت الهرب مراراً من الجيش التركي لمّا كنت في لبنان فلم أستطع ... أرسلوني بالرغم مني إلى هنا مع رفاق لي يكرهون الأتراك مثلي ... إن العربي أكرم من التركي . العربي لا يقتل أسيره ولا يُجهز على جريحه .

وكان سامي يصغي تائهاً وهو ما يزال يتذكر . ثم انحدر بصره عفواً إلى قدمَي الجريح واستقرّ عندهما ، وارتدّ على الأثر هاتفاً :

ــ كامل أفندي ! الجاويش كامل أفندي .

فغمرت قلب الآخر موجة من الدهشة ، وطفرت دموع الفرح إلى عينيه:

ــ كامل الورّاق . من أين تعرفني ؟

ــ أنا سامي عاصم .

فخُيّل إلى كامل أفندي أنه في حلم . ألم يُقتل سامي عاصم وهو يطلب الفرار من سجن عاليه ، ويُقتل معه رئيس الحراس ؟ ! وأردف سامي :

ــ وشفيق العلايلي هنا . وهو بطل هذه المعركة الجميلة . هل نسيت فلق الضابط راسم بك وبيت كسّار في ساقية المسك ؟

ــ الأخ حنانيا ! الأخ حنانيا !

ونهض على قدميه كالشيطان ! وتعانق الصديقان أشهى من عناقهما الأول في بيت كسّار .

ثم أراد سامي تضميد جرح كامل ، فمسح الجاويش صدغه ضاحكاً :
ــ لا شيء . لا شيء . لست مجروحاً . أنا صبغت وجهي بالدماء !
وأخذ كل منهما يقصّ على صاحبه قصته ...
ولاحت في فم الوادي عباءة شفيق وارتفعت ذراعه في الفضاء يلاعب بندقيته. فلوّح له سامي، فهمز مطيّته إليه .
ووقف شفيق ينظر إلى مرافق صديقه متسائلاً مَن هو . فبادره سامي بتعريفه إليه ، وكان قد ذكره له فيما ذكره عن عهده بساقية المسك . فانفرجت أساريره، وبسط كفّه يربّت على كتف كامل أفندي، ثم قال :
ــ انتظراني في الخيمة .
وانطلق بجواده يصعد ويهبط ويعدّ القتلى .
ولمّا رجع إلى الخيمة قال :
ــ ثلاثمائة مقابل ثلاثة منّا وستة جرحى .
ثم أشار إلى عباءته :
ــ وأربع خروق في هذه العباءة الثمينة .
وقعد إلى جانب سامي يستمع معه إلى أخبار الجاويش عن ساقية المسك وبيت كسّار .

٧

في ذلك الوقت كانت زينه جالسة في إحدى الخرائب في ضاحية بكفيّا وقد انحنى طانيوس عليها يقول :
ــ زينه ، أنا ابن عمّك . هل تذكرين ما كان المرحوم جدّك يقول ؟ « يللاّ يا طانيوس ! شدّ حيلك ! زينه عروسك ! » ... لماذا تضحكين هكذا؟ لو تعلمين كم تؤذيني هذه الضحكة ! لو تعلمين عذابي من أجلك يا زينه ! ألا تشعرين بعذابي ؟ على الأقل أشفقي عليّ . أنا أطلب منك أن تشفقي

عليّ ... زينه ، زينه ! سأفعل ما تريدين . أعدُك انني لن أسلب أحداً قرشاً، ولن أنهب رغيفاً ... تعودين إلى الضحك ! أنتِ لا تؤمنين بكلامي ، تعتقدين أنني خُلقت لصاً . ولكنك غيّرتني . تستطيعين أن تغيّريني . بماذا تفكّرين؟ أديري وجهك إليّ . أصحيح أنك لا تحبينني ؟ قولي ، قولي . أتتجاسرين على الادّعاء أنك لا تحبينني ؟

ـ مَن قال لك إنني لا أُحبك يا طانيوس ؟

ـ كيف تحبينني ؟

ـ كما تحب كل فتاة ابن عمّها .

ـ ليس هذا هو الحب الذي أُريده .

ـ أحبني أنت كما تريد ، وأُحبك كما أُريد .

ـ ولكننا نختلف .

ـ أبداً .

فاقترب منها ملهوفاً ، فقالت :

ـ أسمع حركة . هس ! هس !

ولكنه انقضّ عليها ، فضربته على يده فتراجع ذليلاً :

ـ ترين أننا اختلفنا حالاً .

ـ إذا أردتَ أن نبقى متوافقين فحافظ على المسافة (وأشارت إلى ما بينها وبينه) .

فحرد وانتحى زاوية .

ثم قال :

ـ سأذهب وحدي . أقول لك سأذهب وحدي إلى بيت ابراهيم فاخر .

ـ بل لا تتحرك من هنا .

ـ لو تركتني البارحة لصلّينا اليوم لراحة نفسه .

فضحكت ، وكاد يضحك .

ـ بل قل لكانت جيوبك ملأى بالذهب .

ــ هو يهزأ بنا ولا شكّ. وحقّه أن يهزأ. فقد أنذرناه أولاً وثانياً وثالثاً... أنتِ تفسدين سمعة العصابة البيضاء.

ــ خير، على كل حال، من تلطيخها بأعمالك.

ــ تريدين أن نعيش عيشة النسّاك. أنت تتغذين بالغرام. وكان ينقصك أن يأتي هذا الملعون خليل المعلاّ ويقول لك إن سامي عاصم ما يزال حيّاً! الحقّ عليّ. كان من واجبي أن أقتله قبل أن تريَه. ومَن يضمن لك أنه لم يخترع هذه الحكاية من بطنه؟ هذا جاسوس والجواسيس يكذبون كما أشرب أنا الماء. ربّما كان يعتقد، المسكين، أنه إذا لفّق لك هذه الكذبة عفوتِ عنه. ولكنّك قتلته بلا رحمة. تقولين لي أنتَ بلا ضمير إذا قتلتُ واحداً لأستولي على ماله. أنتِ التي بلا ضمير. وإلا فلماذا قتلتِ خليل المعلاّ بعد أن بكى بين يديك واستغفر؟ ألأنه بشّرك بأن سامي لم يمت؟! أهذا جزاؤه منك؟! أنا إن قتلت فلي غاية، هي أن آكل. أما أنتِ فتقتلين لوجه الشيطان. قلت لك إن غرامك يجعلك وحشة، وحشة ضارية! فهل أعجب بعد ذلك إذا لم يكن عندك عاطفة نحوي، لا، لا. لا أُريد هذه العاطفة. أنت غولة، أنت حجر! ... ومجنونة أنت إذا كنت تظنين أن سامي يفكّر بك وبساقية المسك وبمغارة الحورية وبذخيرة عود الصليب. ها ها! ذخيرة عود الصليب تمنعه من حُبّ النساء! أم تعتقدين أنه لم يرَ على شكلك؟ بيروتي، وابن جاه، وغني! إذا انتهت الحرب وطلعتِ في الطريق بوجهه فسيحيد عنكِ إلى الطرف الآخر... هذا إذا كان حياً. ولكن اطمئني بالاً. إن مئات وأُلوفاً من العرب قُتِلوا في الثورة ويُقتَلون اليوم وسيُقتَلون غداً. ذخيرة عود الصليب تنجّيه من الموت! ها ها! إسمحي لي أن أضحك هذا دوري في الضحك عليك.

ــ أُسكت!

ــ لا أسكت. لا أسكت! إنني أتساءل ما معنى وجودي معك؟ أنا أبله! أبله! أبله! وفوق هذا تجبرينني على دفن الموتى. أطوبيّا البارّ أنا؟...

إضحكي ، إضحكي ! أدفنيهم وحدك . أنا لن أوسّخ يديّ بعد اليوم أبداً ! وفوق هذا لا تدعيني آخذ من أحد شيئاً . لولاك لأصبحت من أكبر الأغنياء ، ولتزوّجت ببنت أكبر غني . لا لا . لا أستطيع أن أعيش معك . يبس بطني من الخبز الجاف .

ــ نعمة من الله ! الناس يموتون جوعاً .

ــ ما يهمّني من الناس أنا ؟ ماتوا أو عاشوا على حدّ سواء .

ــ ألا تتألم لهم ؟

ــ أتألم ؟ أنا ! ولماذا أتألم ؟

ــ ضع نفسك مكانهم قليلاً .

ــ أنا ؟

ــ اي ، أنت . والأغنياء كابراهيم بك فاخر قد استولوا على بيوتهم وأرزاقهم ببضع ورقات تركية أو ببضعة أرطال من الطحين المغشوش ، ولم يبقَ لديهم عمل ، وانقطعت عنهم الأموال من أميركا ، ماذا كنت تصنع ؟

فهزّ برأسه ونظر إليها شزراً وكرّر :

ــ أنا ؟

قالها هذه المرّة بلهجة غلب فيها الخوف على الاستخفاف ، فتحدّته :

ــ قلت لك إي أنت !

ــ كم هو عدد الأغنياء ؟

ــ أين ؟

ــ في بكفيّا وضواحيها .

ــ أربعة أو خمسة .

ــ وكم هو عدد الفقراء ؟

ــ الباقون كلّهم .

ــ يعني ؟ يعني ألفا فقير مقابل أربعة أو خمسة أغنياء .

ــ وأكثر من ألفين .

– أفهمت ماذا كنت أفعل لو كنت فقيراً ؟
فبرقت عيناها محدّقة إليه ، فعاوده الجزع فخفض رأسه وقال :
– لا شيء ، لا شيء ...

٨

كان طانيوس من طينة غريبة عن الطينة التي جُبلت منها زينه ، لم يفهم يوماً من الأيام المثل الأعلى الذي تجاهد له ، ولم يتذوّق قط حلاوة ما كانت تجده هي في ذلك السبيل . ولقد بذلت ما في وسعها لرفعه إلى مستواها ، وتنشيقه الهواء النبيل الذي تتنشقه ، فيُخيّل إليها أحياناً أنها وُفّقت ، ثم ما تلبث أن تتبيّن خيبتها ، إذ يعود ابن عمّها إلى الحضيض الذي ارتضته نفسه واستقرّت عند حدوده الضيّقة أطماعه وأمانيه .

عاش طول حياته لا يعرف أحد من الناس ما يشتغل ولا كيف ولا أين . وكل ما يعرفونه عنه أنه رجل قليل الاختلاط ، على ظرف حديثه إذا ضمّته الصدفة إلى مجلس . ولم يكن صاحب أملاك تدرّ عليه ، ولكنه لم يشكُ مرة فقراً . يقيم في بيته البعيد المنعزل ، ناظراً إلى الدنيا كما ينظر الولد إلى صندوق الفرجة ، يبهجه ما فيها من غرائب وعجائب فيقف دونها مبهوتاً ، ويسيل لعابه على نعيم المترفين بقصورهم وعرباتهم ، وأثوابهم الجميلة ومآكلهم الطيبة ، فيبلعه ويكتفي بالتحسّر .

أجل ، كان عنده في ماضيات الأيام كديش . وكان أهل القرية يقولون له « أبو كديش » لأن هذا الكديش كان يؤلف عائلته بعد أن فقد أبويه صغيراً ، فخلّفاه إلى خالة ربّته إلى أن صار يافعاً ، ثم ذهبت بوجهها المحزون إلى القبر . ويؤكد بعضهم أنه هو الذي استعجلها إليه لفرط ما عذّبها بشراسة طبعه ، حتى كان يربطها إلى عمود في البيت ويغلق عليها ويروح . وكثيراً ما عرض عليه أبو سعيد أن يعمل في صناعة الديما ، فيعمل يوماً ويتغيّب

أسبوعين ... وتبلعه الأرض فجأة فيدخل في الظن أنه مات أو هاجر إلى غير رجعة ، فإذا هو يطلّ بعد حين وهو على أحسن ما يرام .

ولما اقتنى الكديش لم يبدّل شيئاً من طراز معيشته . يكاري عليه حيناً ويقعد أكثر الأحيان مفضّلاً الكسل والتأمل تحت الشمس ، والكديش يسرح على مقربة منه ملتقطاً الأعشاب . حتّى كان مقتل الضابط راسم بك فالتحق بزينه .

وكان يسمع أخبار الطيّاح ، فتستهويه مغامراتهم وأمجادهم ولا يملّ من ترديد أخبارهم ، على قلّة نصيبه من الشجاعة وصمود القلب . ولكنه كان يعتاض عن سلاح الأسود بسلاح الثعالب . وقد سبق لزينه أن تعرّفت إلى صنوف من حيله وأحابيله حالفها التوفيق في كل مرة . ولم يكد يعود إلى هدوئه حتّى جلست تصغي إليه وتبادله الرأي في تدبير الانتقام من المرابي ...

٩

تقدّم العرب في الأيام التالية يحتلّون المواقع واحداً إثر واحد ، ولا يلاقون من الأتراك مقاومة تُذكَر . كانوا يخلونها قبل وصولهم ويهربون متجمّعين في « الخضرة »، والخضرة حصن العقبة يتوقّف على احتلالها مصير عظيم من مصائر الثورة .

وأدرك العرب ما يُعدّ لهم ، ووزنوا ما لديهم من رجال وعتاد مقابل ما يظنون أن الأتراك قد جهّزوه في الخضرة من رجال وعتاد، فرجحت كفّة الأتراك. فرأوا أن لا يغامروا بالهجوم، وانتهى بهم التشاور إلى وجوب أخذ الأتراك بالخدعة ، والتهويل عليهم بانتصار أبي اللسان والانتصارات التي تلته ، فإن صدّقوا واستسلموا فذلك . وإلا فينتظرون مدداً ، أو يفتح الله عليهم باباً من عنده .

وكان الوقت آخر الليل ، والقمر بدراً . فأرسلوا مِن قِبلهم مَن تقدّم

فأنذر الأتراك بضرورة الاستسلام فأجابوه بإطلاق الرصاص . فأعقبوه بجندي فردّه الرصاص أيضاً ، فحاروا في أمرهم . فانبرى كامل وقال :
ــ أنا لها !

وكان ينتهز الفرصة ليثبت إخلاصه للثورة ، وليدشّن أول عمل له في الجيش العربي الذي طالما تمنّى الانضمام إليه . فطلب أن يوضَع تحت أمره بضعة جنود ، فسُئِل عمّا يريد بهم . فبسط حيلته ، فلم تعجب القائد . فاكتفى بجنديين ، فعارض أيضاً . ولكن سامي تدخّل فأقنع القائد . فسُرّ كامل سروراً عظيماً وشرع بنزع ملابسه، فلم يبقَ إلا ما يستر عورته . ثم انسلّ كالطيف الساري ، مترفقاً في خطوه ، محاذراً أن تراه عيون الأعداء قبل الأوان ، وأوصى الجنديين أن يلتزما مسافة دونه لا تقلّ عن مئة متر .

مشى ، ومشيا خلفه كما أوصى . حتى إذا اقترب من الخطوط الأمامية ارتمى يحبو مبالغة في الحرص . والجنديان ينظران إليه يدبّ كالحيوان ويتضاحكان . ثم انبطح يزحف ... فلمّا صار في الموضع الذي ظنّ أنه موافق استدار على عقبيه ، وهي الإشارة التي عيّنها للجنديين ، فأخذا يطلقان الرصاص ، فانتصب في وجه الأتراك رافعاً ذراعيه . فلم يشكّوا أنه منهم ، لعادة البدو المعروفة : أكثر ما يستهويهم في الأتراك ثيابهم، فما يقع بين أيديهم واحد منهم حتى يجرّدوه منها ... وحسبوا أنه ناجٍ إليهم يخبر خطير فالعرب يتعقّبونه خشية أن ينفذ به . فصوّبوا بنادقهم يجيبون الجنديين بمثل خطابهما . فدنا كامل وطلب مقابلة القائد . فأرسل إليه القائد أحد ضباطه ، فقال له :

ــ أنا رسول من عند العرب . جئت أُنذركم باسم قائدهم النبيل بوجوب الإستسلام حالاً . أنذرناكم بالأعلام فأجبتم بالرصاص ، وأرسلنا إليكم أسيراً من جنودكم فأطلقتم عليه النار كذلك . وكان علينا بعد هذا أن نُقابلكم بالهجوم، ولكن رجحان عَددنا وعُددنا على عَددكم وعُددكم يجعل ظفرنا غير مجيد . وليس من شيم العربي أن يقاتل إلا كفوءه . إن القبائل كلّها

انضمت إلينا . وقد علمتم ، ولا ريب ، ما حلّ بعسكركم في وادي أبي اللسان ، لم يُبقِ منه العرب مَن يُخبِر ، فمَن قُتل قُتل ، ومَن جُرح جُرح ، ومَن أُسر أُسر . فإذا كنتم تحرصون على دماء من الحرام أن تذهب هدراً فعليكم بما أرسلني به قائدي : الاستسلام بلا قيد ولا شرط . إن العرب لا يقتلون أسيراً ولا يُجهزون على جريح . وقُل لقائدك إن قائدي يقسم له بشرفه العربي أنه يؤمّن على حياته وعلى كرامته كقائد ، وعلى حياة ضباطه وجنوده جميعاً . تأكلون من طعامنا ، وتشربون كما نشرب ، وتنامون كما ننام ...

كان كامل يتدفق في خطبته معجباً بطلاقة لسانه ، والضابط التركي يقيسه من أم رأسه إلى أخمص قدميه ، حتى إذا فرغ دماغه أرتج عليه فالتجأ إلى عبارة من عباراته التقليدية الجاهزة فختم قائلاً :

ــ أجل ، وتنامون كما ننام ... إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

واستوى بأدب وفخر عاقداً بين حاجبيه منتظراً الجواب . فقال الضابط :

ــ نبلغكم قرارنا بعد يومين .

فحيّا كامل وأدار ظهره . ثم انكفأ وحيّا من جديد وقال :

ــ إن قائدي يطلب الاستسلام دون قيد ولا شرط .

ــ قل له القائد التركي يطلب يومين .

ــ وبعد يومين تستسلمون دون قيد ولا شرط .

ــ إذا لم تأتنا نجدات .

ــ ولكن العرب في هيجان عظيم . وقد عانى القائد مشقّات كبيرة في كبح جماحهم وإيقاف هجومهم .

ــ هذا جواب قائدي إلى قائدك ، وإذا شئتَ كتبتُه لك ، وليس لي ما أزيد أو أُنقص حرفاً . واذكر أنه قيل « ما على الرسول إلاّ البلاغ » .

فحملق كامل بالضابط وأردف كالغاضب :

ــ وقيل « لقد أُعذر مَن أنذر » .

وحيّا وشيكاً وهمّ بالانصراف . فناداه الضابط ، فعاد عابساً .

ـ أعندكم طعام كافٍ ؟

ـ كثير ! كثير !

فتلمّظ ، واستمهله دقيقة لاستشارة القائد . ثم عاد وقال :

ـ تقول إن قائدك يتعهّد بمعاملة قائدي معاملة حسنة ؟

ـ هذا ما قلته .

ـ قل لقائدك نستسلم عند شروق الشمس .

كان الزهو يملأ كامل ويفيض في كل جارحة من جوارحه . فلم يكد يغادر الأتراك ويطمئنّ إلى أنه صار في منجاة عن عيونهم حتى انطلق يقفز ، ويرقص ، ويدندن بأغنية حماسية سمع شفيق العلايلي في الليلة السابقة ينشدها بصوته العريض الحارّ . فإذا رصاصة تدوّي في الفضاء ، فهمّ بمناداة الجنديين وقد حسب الرصاصة من أحدهما . فإذا أُختها تصفر في أُذنيه ! فابتلع أُغرودته وارتمى يزحف على بطنه وهو يلعن القائد التركي ويشتمه أقذع شتم ... وتتابعت العيارات النارية تمرّ فوق رأسه وتغرز في الأرض حواليه . فاستلقى حابساً أنفاسه ، فلمّا خرست البنادق استأنف زاحفاً ، فحابياً خبباً ، ثم استوى على قدميه راكضاً ، يأبى عليه فرحه إلا أن يستعجل الوصول . فعادت الطلقات سيرتها الأولى ، فلم ينخفض لها ، ولجأ إلى حيلة جديدة : يذهب يميناً ثم يذهب يساراً في لفتات ودورات مخادعة ، وهو يلوّح بيديه كالشجرة في مهبّ العاصفة .

وشرع العرب يردّون على رصاص الأتراك بالمثل ، فبات بين نارين حاميتين ، ليست حسرته على الحياة كحسرته على خدعة كانت على وشك أن تؤتي ثمرها . وفيما هو يفكّر في الأمر لاعناً حظّه السيّء إذا برصاصة قد نفذت في ظهره ، فتهادى ، ثم انطوى ساقطاً كأنه ينغرس في التراب . ودفن وجهه في صدره هنيهة يتمتم الفاتحة ، ثم رفع أنفه يتنشّق بملء روحه نسمة آتية من بعيد . فعاد إليه العزم ، فأخذ يسحب جسمه على الحصى سحبة بعد سحبة . ثم خارت قواه فألقى ذراعيه ، يستريح على يأس لا حدّ له ...

وكان الفجر قد بدأ يحلّ سدول الظلام خيطاً فخيطاً ، ويغيّب النجوم

في آفاقها البعيدة نجمة فنجمة ، وسقط الجو بأندائه الرطبة على الجريح العاري المنبسط في القفر ، فارتعش من البرد . ثم حمل إليه الهواء حمحمة خيل ، فأدرك أنه صار على أمتار ، فبعث الأمل القوة فيه ، فتابع الطريق يبذل لكل شبر منها دفقة من دمه . ثم لمح شبحاً يلاقيه فجعل يستحثّ نفسه إليه ، حتى إذا تبيّنه هتف :

ــ سامي !

فدنا منه واحتمله بين ذراعيه .

وعقد القائد والضباط مجلساً فاستمعوا إلى كامل . وقال سامي :

ــ يجب أن لا يداخل الأعداء شكّ فيما أبلغهم رسولنا إياه .

وكرّ العرب في جلبة عظيمة ، فتبودلت بعض الطلقات . وجازت الحيلة ، فأشرقت الشمس على ألوف الأيدي التركية مرفوعة إلى السماء بالاستسلام .

١٠

لم يُصب الأتراك من كامل مقتلاً . ولم يمضِ عليه مدّة بعد وصول العرب إلى العقبة حتى التأم جرحه وتماثل إلى الشفاء . ولكن الطبيب منعه من مفارقة الفراش قبل استكمال دور النقاهة ، فكان سامي وشفيق يعودانه ويجاذبانه الحديث ساعات حلوة من النهار والليل .

وكانت القوات العربية تتوارد إلى العقبة لتحصينها وجعلها قاعدة من قواعدهم ونقطة الاتصال بالإنكليز في السويس وفلسطين . فترة راحة وانبساط انصرفوا خلالها إلى الاستعداد لوثبتهم الكبرى إلى سوريا واحتلال دمشق ، مطمح أنظارهم وقمّة آمالهم منذ الرصاصة الأولى .

ــ الله أكبر ! اللـ . . . . ـه أكبر !

كان هذا الأذان يتجاوب مرات في اليوم ، وكان الأصدقاء الثلاثة مجتمعين ذلك المساء في خيمتهم ، فلمّا سمعوه ركع كامل يصلّي ، وقعد شفيق صامتاً ،

ووقف سامي على الباب يصغي مأخوذاً بتردّد الأذان بين أشجار النخيل وقد انتصبت في غبشة المساء أعمدة لهيكل عظيم قبّته الجوزاء، وانبسط البحر وراءها في زرقته الضاربة إلى السواد، وهدأت أمواجه فهي تخفق على صخور الشاطىء خفقاً لطيفاً. كأنّ البحر يصغي هو الآخر، أو كأن له صلاته يؤدّيها بلغته لذلك الذي هو أكبر منه. كلّما سمع سامي الأذان وقف عند هذه اللفظة «أكبر» وتمنّى لو أن المؤذّن يمدّ بها صوته إلى ما لا نهاية له، فتشمل الشاطئ والبحر، وتستوعب الجبال والصحاري، وتبتلع الأرض والسماء... والظلم.

ولم يكد كامل يفرغ من صلاته حتى قال:

— هذا المؤذّن يقتلني. يصيح كالديك الأبحّ، ولا يرضى حتى يلحن. أمؤذّن ويلحن؟!

وكان كامل صاحب صوت رخيم، ومجوّداً حسن التجويد. وقد طالما همّ بالوثوب من فراشه واعتلاء المأذنة مكان ذلك الشيخ الأبله. فرفع شفيق أجفانه الكثيفة وقال:

— طَرْد هذا الشيخ من المأذنة أهمّ لديك من طرد الأتراك من دمشق!

— يفسد والله عليّ صلاتي، حتى لأتمنّى لو متّ قبل سماعه.

— برصاصة أبي اللسان. قه قه قه!

وأسعفه سامي:

— ها ها ها!

— بل برصاصة الخضره هذه! (وأشار إلى ظهره).

— أنت بطل الخضره غير مدافَع.

— جرحٌ في ظهرك افتديتَ به جراحاً.

فأتبعه كامل بالسجعة:

— وأرواحاً.

فعاد شفيق إلى المزاح:

ـ أنا عربي مثلك ! أنا عربي مثلك ! لا تقتلني ! لا تقتلني ! ...

فاشتعل وجه كامل خجلاً والتفت إلى سامي يستنجده على صديقه القاسي ، فلبّاه ولكن على غير ما يشتهي :

ـ إحمدِ الله على أنه أرسلني إليك ولم يرسل شفيق . إذن لقتلك .

ـ تصوّر أنه كان الساعة في الجنة .

ـ رصاصة العربي لا تُصعد العربي إلى الجنة .

ـ آه ، صحيح . ذلك فضل الرصاصات التركية ...

ـ الوحيد ...

ـ إذا أصابت أهدافها .

ـ ما أقل العرب إذن في الجنة !

ـ والأتراك ؟ أكلّهم إلى جهنم ؟

فأكّد سامي ضاحكاً :

ـ هكذا يقول كامل .

ولكن كامل ، وكان قد لزم الصمت منذ أخجله شفيق ، رأى الواجب يدعوه إلى التدخّل :

ـ أنا لا أقول هذا ، أستغفر الله ! أنا لا أقول هذا . إن بين الأتراك من هم مسلمون موحّدون يؤمنون بالله وبرسوله وباليوم الآخر . هؤلاء لهم ثوابهم عند الله . ولكن الألمان والنمساويين ومَن لفّ لفّهم ...

فقاطعه شفيق :

ـ ماذا تفعل بالإنكليز والفرنسيين ...

ـ أولئك لا يحاربوننا ، بل يحاربون معنا .

ـ لهم ثوابهم عند الله طبعاً .

فقال سامي :

ـ وعندنا أيضاً .

فاستأنف كامل :

ـ نحن أعلنّا الجهاد على الأتراك .

ـ والأتراك قد أعلنوا علينا الجهاد . فأيّ جهاد يا ترى أصحّ ؟

ـ نحن أُمة الرسول .

ـ ولكنّهم كفّرونا .

ـ كذبوا ، بل هم الكافرون . إن الخلافة يجب أن تعود إلى العرب . سينتصر العرب ويعودون سيرتهم الأولى ، ويبعثون عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، وتجدّد دمشق شبابها ، ونبايع فيها الملك حسين أميراً للمؤمنين فيجعل فيها مقرّه ، ونحوطه بالشعراء والعلماء وأهل الرأي فينا .

ـ وتكون أنت شيخ الإسلام . قه قه قه !

فأمسك كامل وأرخى رأسه على المخدة ، وشفيق يسدّد إليه ضحكته الساخرة الهائلة . ثم التفت إلى سامي وقال :

ـ أليس كذلك ؟

ولكن سامي ظلّ مطرقاً ، يمجّ بدخان لفافته غارقاً في التأمل . فضرب شفيق بيده الجبارة على كتفه ، فرفع بصره إليه ببطء كأنه يحاول قراءة ضميره . ثم عاد إلى خفض رأسه ، فسأله شفيق :

ـ بماذا تفكّر ؟

ـ . . .

ـ بزينه أيضاً ؟

ـ ربّما !

فانبرى كامل :

ـ بطام ؟

ـ ربّما بالاثنين ... وبواحد آخر .

ـ مَن ؟

ـ أنا ... أفكّر في نفسي ، وأُفكّر في أمثالي من الذين علّقهم الأتراك على أعواد مشانقهم في بيروت ودمشق ، وفي الذين نفوهم إلى أقاصي الأناضول

أو زجّوهم في أعماق السجون ، وفي الذين يحاربون معنا هنا في جيش الثورة أو انضمّوا إلى الحلفاء في مهاجرهم . منهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن لا يزال حياً ... هؤلاء جميعاً ، يا كامل ، أفكر فيهم عندما أسمع كلامك . كلاّ ليس بين العرب والأتراك جهاد ديني . الأتراك في أكثريتهم مسلمون ، والعرب في أكثريتهم مسلمون كذلك ، ولكن القضية ليست قضية مسلمين أو غير مسلمين . بل قضية عرب يقاتلون أتراكاً لاسترداد حريّتهم ، وأتراك يقاتلون عرباً لاستبقاء سلطانهم عليهم . اليوم وُلدت القومية العربية الصحيحة . إن أُمها هي هذه الثورة التي أمشي فيها أنا المسيحي العربي إلى جنبكم أنتم المسلمين العرب ، لنحارب عدواً مشتركاً لبلادنا هو التركي ، سواء اتّبع محمداً أو المسيح أو الشيطان . وإن أباها هو ذلك الاستشهاد الذي لقيه شبّان العرب وأبطالهم السابقون ، أخذهم إليه الأتراك على أنهم عرب فلم يسألوا المسلم عن قرآنه ولا المسيحي عن إنجيله . أكبر الظن أنك يا كامل تستوحي تاريخنا القديم ، وهذا التاريخ قائم معظمه على الإسلام ، وليس يعيبه أنه كان كذلك فلم يكن يستطيع أن يكون إلا كذلك . وقد طالما كانت الأديان ، عند مختلف الأمم ، الحافز الأول للمّ شعثها وتوحيد كلمتها وتكوين شخصيتها . أمّا نحن في هذا العصر فعيب علينا أن نبني دولتنا الجديدة على أُسس الدين . إن قوميتنا العربية التي وُلدت اليوم ، أقول وُلدت اليوم ، لا يهمّها من الخلافة إلا بمقدار ما يهمّ الإيطاليين من البابوية . الذين يقاتلون الأتراك اليوم يقاتلون معهم الألمان وهم لا ينازعونهم على خلافة ، وقد يقاتلون الإنكليز غداً والفرنسيين إذا طمعوا ببلادهم وحاولوا إذلالهم ...

كان سامي يتحدّث بحماسة إلى رصانة ، فأوقعت لهجته المهابة في نفس كامل فتلعثم لا يدري ما يقول ، وبعثت الزهو في نفس شفيق الذي لقّنه سجن عاليه هذه الأمثولة عملياً ، فلم يزد صديقه على أن كرّرها عليه بالكلام وألقى على بعض نواحيها الخافية نوراً .

وساد بين الثلاثة صمت طويل ، فأبى كامل إلا أن يعلّق على الحديث شيئاً ، فابتسم إلى سامي وقال :

ـ أنت فقيهنا السياسي .

فاندفع شفيق في مزاحه :

ـ أنا عربي ! أنا عربي مثلك ! لا تقتلني ! لا تقتلني !

وأطلقها ضحكة من ضحكاته الفضيّة الكرّارة . وعاد جو المرح من أوّله .

ثم التفت سامي إلى شفيق وقال :

ـ نحن مستعدّون لغد . أليس كذلك ؟

ـ يكاد العثّ يقتلنا هنا ... إسمع ، إسمع !

فهتف كامل :

ـ طيّارة ! طيّارة !

ومدّ رأسه ينظر . كانت الطيّارات تعجبه كثيراً ، وكان الإنكليز قد أرسلوا من مصر إلى العقبة بضع طيّارات لمساعدة القوات العربية على استكشاف مواقع الأعداء وإزعاجهم . قال كامل :

ـ بساط الريح في ألف ليلة وليلة ، هذا هو والله العظيم !

فقال سامي :

ـ بساط الريح كان ينقل العشاق إلى معشوقاتهم .

فأردف شفيق :

ـ والطيّارة تنقل عشق الإنكليز إلى الأتراك !

فقال كامل :

ـ ومن العشق ما يقتل ! إنني ما أزال أفكّر في الطيّارة التي حلّقت فوق معان وألقت قنابلها على مقرّ القيادة فطاحت برأس الطاهي وكسّرت القدور والصحون .

فقال شفيق :

ـ لو كسّرت رأس القائد التركي لوجدت فيه أرنبيطاً !

فضحكوا لهذه النكتة طويلاً . ثم استأنف كامل :

ـ وعندما حلّقت فوق الوادي وألقت قنابلها على مربط الخيل فقطّعت

الخيل أعنّتها وانطلقت مجنونة في الصحراء... سنوصي الإنكليز عندما نقيم دولتنا أن يرسلوا إلينا من هذه الطيّارات الشيطانية فنجهّزها بها. ونوصيهم أن يرسلوا إلينا بواخر لها مدافع.

فقال سامي:

– أما أنا فأخشى أن تكلّفنا هذه الطيّارات وهذه البواخر غالياً جداً.

– لو دفعنا ثمنها مال الدنيا لساوت مال الدنيا!

– المال يهون. أخشى أن يتقاضونا ثمنها ما هو أغلى من المال. بل أخشى أن يكونوا قد بدأوا يفكّرون بتقاضي ثمن هذه الطيّارة التي تهدر الساعة فوق رؤوسنا. لأنهم لم يرسلوها حباً لنا.

– لا حباً لعلي بل كرهاً لمعاوية.

فعيّن شفيق:

– إي، بل كرهاً للأتراك والألمان.

وصوّب إلى سامي عينين تنتظران إيضاحاً، ولكن سامي هزّ برأسه وقال:

– هذه أشياء يحين أوانها.

ثم نهض حاملاً نفسه على الابتسام.

– أتذهب معنا غداً يا كامل؟ رحلة جميلة في الصحراء.

وقال شفيق:

– والعهد الذي بيني وبين سامي يكون مثله بيننا وبينك. أتقبل؟

– ما هو؟

– إذا جُرح أحدنا في المعركة ولم يستطع حمل جرحه أجهز عليه رفيقه.

– لماذا؟

– لئلا يقع في أيدي الأتراك فيموت بدل المرة عشراً.

فأشرق وجه كامل وظلّ ينقّل عينيه الصغيرتين المدهوشتين بين صديقيه، ثم ابتسم لسامي وقال:

– رأيتك في الحلم، يا سامي، واقفاً إلى جانب زينه وكلاكما في حلّة العرس، ورأيت شفيق قد تحوّل قسّيساً يبارك إكليلكما...

فانعطف شفيق على سامي وضرب بيده إلى صدره هاتفاً :
– أرني ذخيرة عود الصليب .
فشدّ سامي على الذخيرة ونجا هارباً ، وعدا شفيق وراءه يتضاحكان ...

١١

إنطلق طام في الأسواق المغطّاة بالجياع يهمس في الآذان :
– ابراهيم بك فاخر يوزّع الطحين ! إبراهيم بك فاخر يوزّع الطحين !...
فيتناقل السامعون البشرى ، ويستأثر بها بعضهم طمعاً . يهبّ الشيخ المتهدّم ململماً قواه ، ويرفع الشاب الذليل رأسه ، وتنتفض المرأة في أسمالها ، ويخفّ الولد طائراً ... جماعات وفرادى يتراكضون ، الأمّ تجرّ طفلها ، والأخ يترك أخاه . هذا يدلح بورمه ، وذاك يقع على وجهه ، حفاة نصف عراة ، بأقدام مشقّقة وسخة ، ووجوه بارزة العظام، وشعور منفّشة طويلة ، وعيون فارغة مخيفة . موكب متّصل الحلقات هنا ، منفصلها هناك ، يثب ويعثر ويزحف، ولكنه يتقدّم دائماً . لا يفكّر أحد إلا بالكلمة الحلوة « الطحين »، ولا يرى إلا الصورة الشهية « الطحين » تشدّد عزيمة مَن ارتخت عزيمته، وتضاعف قوة مَن عنده قوة، تُمسك الأرماق في الحلوق، وتجدّد دفقات الحياة في الصدور .
– ابراهيم بك فاخر يوزّع الطحين . عجّلوا ! عجّلوا !
حتى التفت طام فلم يبقَ حواليه أحد ، فمشى في مؤخرة الجيش يستحثّ المقصّرين . ثم نفد صبره فأخذ يعدو . فلما شارف الحديقة المزهوّة في تلك الضاحية المنعزلة، راعه ذلك العدد العديد وتلقّاه لغطهم من بعيد. فدنا ينظر بحرص بين الجمع ، يتطاول على مشط قدميه ، ويندسّ بين الأجسام المتراصّة ، فاهتدى إلى زينه واقفة وسط الجمهور بقمباز عتيق .كانت قد

انتزعته عن جثة دفنتها قبل يوم ورأت أن تتخفّى به . فبادل الأخ أُخته طيف ابتسامة ، وعضّت على شفتها فصدف عنها يمدّ يده مع المادّين ويشترك في ضجيجهم .

كان الجياع يتزاحمون على البوابة، وطانيوس في المقدّمة يزيح المناكب عنه ويتمسّك بالقضبان الحديدية منادياً :

— يا بك ! يا بك !

فتردّد عشرات الأفواه :

— يا بك ! يا بك ! يا سعادة البك !

ولم يكن في الجنينة إلا الكلب ينبح على البوابة ويكشّر عن أنيابه ... وحانت التفاتة من امرأة إلى طام فسألته :

— أين الطحين ؟

وأقبل إليه جار لها :

— أين البك ؟

وتحلّق حوله آخرون :

— أين الطحين ؟

— أين إبراهيم بك فاخر ؟

— مَن قال لك إنه يوزّع الطحين ؟

— أتضحك علينا !

فرفع طام رأسه صوب زينه ، فشقّت الحلقة وهتفت :

— البك وزّع على الذين جاؤوا قبلنا ثم أمر بإغلاق البوابة .

فتعالت الأصوات :

— ونحن !

— أليس لنا حصّة ؟

— أنا أحقّ من الجميع . بيتنا مرهون عنده بخمسين ورقة !

— وأنا اشترى مني التوتات بكيس قمح نصفه زوأن وتراب .

– طرد أُمي من بيتنا فماتت على الطريق .
– وأُختي ماتت تحت شبّاكه هنا ، ولم يعطها رغيفاً !
– أراد أبي أن يسترحمه فدفعه وأوقعه عشر درجات !
واشتدّ لغطهم ، يسرد كل واحد حكايته . واندفع طانيوس يصيح :
– هذا القصر من أموالنا !
فصاحت زينه :
– هذا القصر من دمائنا !
وتردّدت الهتافات من بعدهما . فأطلّ إبراهيم بك على الشرفة .
– هذا هو !
– هذا هو البك !
– نريد طحيناً !
– نريد أن نأكل !
– إنزل إلى هنا !
– يا بك !
– يا سعادة البك !
– يا لصّ !
فزمجر من فوقهم مهدّداً بجمع كفّه :
– إبتعدوا من هنا !
– يا لصّ ! يا مجرم !
– يا مجرم !
– يا آكل أموال اليتامى والأرامل !
وعشرات الأيدي مسدّدة إليه مع عشرات الأشداق المزبدة .
– إبتعدوا يا كلاب !
– أنت الكلب !
– ماذا يقول عنّا ؟ نحن كلاب !

ـ أنت الكلب !

ـ أنت الكلب !

وهجموا على البوابة هائجين ، تدخل الأيدي خلال القضبان كبيرة وصغيرة ، ضخمة وهزيلة ، مجموعة ومنفرجة ، وتلتفّ السواعد عارية وكاسية ومشقوقة الأكمام ، والمناكب تضرب المناكب ، والأصوات تشقّ الجو خليطاً منكراً من الطحير والتهديد والتحريض والشتم والصراخ . وإذا زوجة البك قد أقبلت ومعها الخادمة تتأبّط بضعة أرغفة ، والبستاني وراءهما . واقتربت الست وعلى وجهها اضطراب تحاول تمويهه بابتسامة . فهدأ الغليان فجأة ، وتحوّلوا ينظرون بعضهم إلى بعض ، وارتفعت بعض أصوات :

ـ أنا ، يا ست !

ـ أعطني رغيفاً !

ـ لهذا الولد ، يا ست !

فطوّفت زينه حواليها عينين جازعتين ووثبت فمدّت يدها أقصى ما تستطيع فتناولت الرغيف الأول وقذفت به في وجه الغنيّة زاعقة :

ـ خذي في سحنتك !

فأردف طانيوس :

ـ نريد لكل واحد كيس طحين !

وعاد الغليان أشدّ مما كان .

ـ نريد طحيناً !

ـ أين أكياس الطحين ؟

ـ إفتحوا لنا !

وانهالت الشتائم من جديد وزعقت زينه مرة أُخرى :

ـ إخلعوا البوابة !

فتراجعت الست مذعورة . ثم تقدّمت بابتسامة عريضة ، تسترضيهم بشتى أنواع الوعود ، فتضيع أقوالها في الهواء وتبتلعها الجلبة ، وهي تحجم وتقدم ،

وتلوّح بذراعيها ، وتنظر إلى الجمع المجنون المترامي على البوابة أيدياً وعيوناً وشعوراً. حتّى خانتها شجاعتها فاستنجدت ودعت زوجها ، فسبقه البستاني إلى البوابة شاهراً معوله ، فإذا رأس قد أطلّ من فوق السور ، وانقضّ طانيوس فألقاه ومعوله أرضاً . والجمع يموج موجته الأخيرة جزراً ، فمدّاً ، فهويّاً واحداً ، فانخلعت البوابة بصرير فخبط على العارضتين ، وتدفّق السيل الهائل وتوزّع وثباً على السلالم وانسلالاً في الأقبية ، يميناً وشمالاً وراء الدجاجات الثمينة النافرة ، والمعاول والرفوش المنتظرة على الأرض ... مَن تسلّح منهم تسلّح ، ومَن لم يتسلّح فبيديه وأسنانه ، استيلاء وتحطيماً ونزعاً ، وقفزاً فوق الأثاث وقلباً له على الأدراج وطرحاً من النوافذ ، خلال قرقعة الخزائن التي تُلبط ، والمرايا التي تُكسر ، والصناديق التي تُبقر ، والأسرّة التي تُخلع ، والصحون والقدور تتناتشها الأيدي وتتداعسها الأقدام شظايا ، والفرش واللحف طيّاً ونشراً وتمزيقاً ، والطنافس تهشيماً ، والأثواب نهباً ، والمآكل التهاماً ودفعاً في الجيوب وتعبئة في الصرر وحملاً بالأكياس ، والسمن والزيت والخمر كفأً على البلاط ووطأً ... وزينه تنفر من حجرة إلى حجرة ، وخلفها طام يتأثرها بين خليط البشر والحطام ويميل معها كيفما مالت. حتّى لم يبقَ إلا المطبخ فوجلته فرأت إبراهيم بك منبوش الشعر مجنوناً ، يصدّ السالبين بالشتم وبما استطاعت يداه ورجلاه ، وهم يزيحونه من طريقهم ويمسكونه حيناً ويسدّون فمه حيناً . فهجمت عليه ودفعته إلى بيت الخلاء ومدّت بفمها ودمدمت في وجهه :

— العصابة البيضاء !

واستدارت ، فأخذت عيناها صفيحة غاز فابتدرتها بذراعيها وصبّتها على الباب وأشعلت عود كبريت ، فاندلعت النار ، فخرجت وهي تهتف :

— حريق ! حريق ! أهربوا ! حريق ! أسرعوا بالخروج !

وقصدت إلى حيث غادرت طانيوس ، والأصوات تتردّد من خلفها : « حريق ! حريق ! » ولكنها لم تلقَه . فمالت إلى الغرفة المجاورة فلم يكن فيها ، فإلى الثالثة فإلى الرابعة فلم تجد له أثراً . فشرعت تدور ملهوفة وتنادي ، وطام ينادي معها :

ـــ طانيوس ! طانيوس! عمّي طانيوس ! عمّي طانيوس! طانيوس ! ...

... بين المتأخرين في لَمّ الأسلاب ، والمنحدرين على السلّم، والمتسلّلين من الأبواب ، والقافزين من النوافذ ...

ـــ لعلّه في القبو يا أُختي ؟

فأخذت بيد طام ونزلا إلى الأقبية ، فلم يرياه . فرجعا إلى فوق ، فإذا الدخان قد تعبّق في الدار ، ولاحت خلال غيومه السوداء بعض أشباح تتحرّك . فتركت أخاها واقتحمت الظلمة الخانقة وهي لا تنفكّ عن الصراخ : « طانيوس! طانيوس ! » فحكّ بها شبح ، وصدمها آخر بشيء كبير يحمله، وخُيّل إليها أن هنالك شخصاً ثالثاً في الزاوية فاقتربت فإذا هو مَقعد قائم . وحارت من أي جهة تروح وطام يدعوها :

ـــ زينه ! زينه ! ارجعي !

وألسنة النار تندلع من الجانبين ، يدوّي القصيف في أُذنيها ، وتشوي الحرارة وجهها ، ويعمي الدخان بصرها ويسدّ أنفاسها . فاندفعت يميناً فصدمتها النار ، فاندفعت شمالاً ...

ـــ أُختي ! أُختي !

فلم تجبه ، فاقتحم اللهيب ، فعثر ووقع على وجهه .

ـــ زينه ! أُختي زينه !

وشقّ الظلام بالقرب منه لسان عظيم بلسانين ، شدقان من النار ينقضّان عليه ! فانفتحت عيناه تقابلانها بمثل النار وأرهب ! فلم يشعر إلا ويدان تحملانه من الأرض إلى الباب إلى السلّم. وكرّ الأخوان إلى الحديقة فظَهْر البيت فالعراء ، يمضيان في المساء مسرعين ، ثم يتوقفان بعيداً ينظران إلى الشعلة الجبارة الصاعدة حتى السماء .

١٢

كانون الثاني السنة ١٩١٨ .

انقطع الثلج فجأة ، وأبت السماء أن تكمل نسج الثوب الأبيض الطاهر لهضاب « الطفيلة » وأوديتها وسطوح بيوتها الواطئة المتناثرة على السفح . وهبّت الرياح باردة مُولولة ، تطرد الغيوم في الجلَد ، فتتراكض متدافعة متراكبة كالقطيع المذعور . وتعالى صراخ النساء والأطفال في ذلك الليل الدامس ، وامتلأت طرق القرية الضيقة الوحِلة بالناس ، يتنادون تحت الزمهرير ثم يتفرّقون كتلاً وأفراداً ، يتلمّسون مهرباً أو يستخفون اتّقاء الثأر الفظيع . ذلك أن خبراً انتشر بسرعة البرق بأن الأتراك يزحفون من عَمان لاسترداد الطفيلة، ولمّا يمضِ على احتلال الثوار إياها إلا بعض أُسبوع . وكان الأهالي قد هتفوا للعلَم العربي واطمأنوا إلى أنه سيخفق فوق رؤوسهم إلى الأبد، فإذا هم يشاهدون الثوّار يُخلون مواقعهم مولّين ، تاركين القرية ومَن فيها إلى الأعداء يذبحون الأبرياء ويعتدون على الحرمات ، كما فعلوا في كل مكان داسته أقدامهم .

انقضى الليل إلاّ أقلّه والهلع لا يغمض لأحد جفناً . وكانت القوّة العربية قد انسحبت في هذه الأثناء إلى المرتفعات وعسكرت في مأمن ، وراح سامي ينظر إلى الطفيلة خلال الظلام متحسّراً على مصير أبنائها وعلى الجهود التي بُذلت لأخذها ، ويتمثّل قائده قبل أيام يشرب القهوة على شرفة الحاكم التركي المستسلم ، ويكاد يسمع الهتاف يشقّ الفضاء بحياة الحرية .

وبينما هو في وقفته تلك إذ لمح جماعة يتقدّمون مسرعين ، وإذا هم وفد من الطفيلة ، أكثر من مئة شخص ، فيهم الشيخ والشاب والمرأة يحملون العصيّ وبنادق الصيد والرفوش ، قد جاؤوا يلتمسون من القائد الدفاع عن قريتهم ويعلنون استعدادهم لتقديم كل مساعدة . ولم تكن الطفيلة موقعاً خطيراً يحرص العرب على استبقائه ، فمال القائد عنهم وأصرّ على تركها إلى الأعداء . فارتمى الشيوخ بين يديه يذرفون الدموع ، وضجّ الشبّان غضباً ، فشقّت الصفوف امرأة ورفعت ذراعها صائحة :

— نحن لا نفهم بالخطط الحربية ! نحن لنا أرزاق وأولاد نريد أن نحميهم. (والتفتت إلى صاحبتها): إذا كان الجنود لا يحاربون معنا فنحن النساء نحارب، ولا ندع الأتراك يرجعون إلى الطفيلة إلا على جثثنا !

فعلت كلمات هذه المرأة في القائد ما لم تفعله حجج الشيوخ ولا خطب الشبّان المتحمّسين، فظلّ ناظراً إليها دقيقة طويلة. ثم خفض رأسه مفكراً. وساد الصمت، ينتظرون ما يكون جوابه. فرفع عينيه، فإذا عينا المرأة ما تزالان تتحدّيانه، فقال :

— إذهبوا واجمعوا لي كل قادر فيكم على حمل السلاح .

١٣

[... ومع بهق الصباح استلّ القائد سيفه وتحرّكت قطع الجيش، وبقي قسم منه حيث هو يُشرف على الأتراك يتقدمون في الوادي، تحميهم المدافع من خلفهم وتقذف قنابلها المعولة في الفضاء. ثم طلع من فم الوادي ضباب، وأخذ يدنو متقلّباً، متكاثفاً، متهادياً كحيوان بدين جبّار، مسخٌ هائل في الحيوانات له مئة رأس ولا رأس، وألف قائمة ولا قائمة، وجسم يتمطّى على رأي العين، يغمر الوادي فالسفوح فالآكام، ويجتاحها صاعداً متمدداً إلى غير حدّ. والرصاص يلعلع مخترقاً الضباب بشرارات ضئيلة كأنها النجوم لولا أنها لا تستقرّ. ولغط المعركة، بين صهيل الخيل وهتاف الجنود وقرقعة السلاح، يتعالى ويهدر في الآذان هديره الأصمّ كأن الأصابع تتداولها دون انقطاع. ثم راح الضباب يجرّ خلفه ذنباً طويلاً رقيقاً، ثم انفصل الذنب وبقي وحده معلّقاً فوق الوادي، ثم أخذته الرياح فدارت به دورة فإذا هو يتلاشى، وينجلي الميدان ناراً عن اليمين وناراً عن اليسار، وشراذم بينهما تتنادى ثم تتكتّل وتتقدّم. وقد ساعدها الضوء العائد على تنظيم صفوفها والاهتداء إلى طريقها،

وفتح ما بين البنادق وأهدافها ، فتداركت الطلقات تتخاطب متقاطعة وتتجاوب من صوب إلى صوب، وقنابل تنصبّ من فوق وأُخرى تسمو من تحت ، والكتلة العظيمة ما تفتأ تدبّ إلى الأمام وتموج عرض الوادي . وتساقطت السماء بالبرَد . ثم أمسكت وأعقبته بنتف من الثلج تتلاعب مو الهواء ، يحطّ بعضها على التلال ، ويتابع البعض الآخر تهاديه ، متهاوياً بغنج ساخر فوق الملحمة الصاخبة .

وكان الأمر قد صدر إلى سامي وشفيق أن يشغلا الأعداء من الوراء . فانطلقا في خمسين فارساً ولفّا الوادي . ثم افترقا فذهب الواحد يميناً والآخر يساراً . وما هي إلا أن أزّ الرصاص بجهة شفيق، فهبّ سامي يتفقّده، فرآه على حصانه يصوّب بندقيته إلى الوادي . ثم وثب الحصان غائباً به خلف صخرة ، وأطلّ على الأثر ينهب الأرض انقضاضاً ، والبندقية ترقص لا يتمكن شفيق من إثباتها على كتفه . وإذا هو يقفز قفزة واحدة ويسقط على الحضيض، ويظلّ الفرس راكضاً بضع خطوات ثم يجمد مائلاً بعنقه . فاندفع سامي في أقرب طريق معلّقاً بصره بمكان الحادث، يحبو اتّقاء عيون الأعداء ونارهم . ثم حانت منه التفاتة فرأى الحصان يتداعى فجأة ويتدحرج كصخر يتقاذفه السيل ... وتضاعفت الطلقات التركية وقربت، وشفيق لا يقوم ولا يُسمع نأمة . فخفق قلب سامي بعنف واستوى على قدميه ومضى يستقبل الرصاص بوجهه ويتطلّع من هنا ومن هنا .

— شفيق !

وانحنى يحتضنه . فأنّ الجريح وثنى عنقه ببطء . فالتفت سامي فرأى الدم يتدفّق من صدره ويصبغ الثلج متلثلثاً بلونه القاني .

— كنت أخاف أن أموت قبل أن أراك ... أما الآن .

وغامت عيناه . فتناوله سامي بذراعيه وحمله ، فصرخ صرخة موجعة ، ثم كرّرها وأردف :

— أتركني ! أتركني هنا !

وتجمّع الجنود يريدون رفع الجريح إلى مطيّة من مطاياهم . ولكن سامي كان قد مضى به ، يشدّه إلى ظهره المحدودب ويرفع ذقنه بين الخطوة والخطوة ويناديه فلا يردّ عليه، والرصاص ما يفتأ يترامى ناطحاً الصخور وحافراً التراب ، والجنود يحمون ضابطيهما ويتراجعون .

ـــ سامي ! سامي !

قالها بصوت ضعيف وتراخى ، وتدلّت إحدى رجليه تحفّ الأرض . ثم وقعت الثانية ، فحاول سامي أن يرفعه فلم يقدر . وانطرح الجريح يُغمض أجفانه ويفتحها ثم تختلج شفتاه :

ـــ لن يغلبونا . أليس كذلك ؟

وتغضّن وجهه، وحاول أن يرفع كفّه إلى صدره ليوقف الدم المتدفّق فترامت عاجزة . فأكبّ سامي يسدّ الجرح والدم يتشعّب بين أصابعه لزِجاً حاراً . ونادى الجنود أن يعاونوه على حمل شفيق ، ولم يكد حتّى قصفت قنبلة ارتجّت لها الأرض، وسدّ السماء حجاب كثيف من التراب والأشلاء والحجارة فصاح :

ـــ إلى الوراء !

فتراجعوا مذعورين ، وبقي وحده . فرفع الجريح إلى صديقه عينين فيهما الرجاء الأخير ! فسرَت في بدن سامي قشعريرة ولمع له مثل البرق الأسود . وجلبة الأتراك تدنو وتتعاظم، حتى خُيّل إليه أنهم يمرّون عليه ويطأون في قلبه . كانت كفّه اليمنى تمتدّ برفق إلى جنبه الأيسر وتقبض المسدس البارد ! ثم تنفرج أصابعه وترتدّ متقلّصة مشلولة، وعيناه لا تفارقان العينين المنتظرتين، المتألّقتين بشعاع من غير هذه الدنيا . وكأنّ شفيق شعر بحركة سامي وأراد أن يتثبّت منها، فلوى برأسه صوب تلك اليد الرهيبة الرحيمة، وارتعشت شفتاه :

ـــ العهد !

وقبل أن يُكمل كانت الرصاصة قد انطلقت، فاختلج لها قليلاً . ثم هدأ ... تطفو على وجهه في الموت أجمل ابتسامات الحياة .

١٤

بعد مقتل شفيق تملّك سامي شعور ليس هو الحزن بهدوئه الثقيل ، ولا اللوعة بأظافرها الجارحة ، كلاّ ولا هو اليأس . شعور غريب ، قوي وضعيف في آن واحد . قوي حتى ليُحسّ سامي بمثل العاصفة تثور حواليه وتلفّه وتدفعه لملاقاة الموت ، فيندفع فإذا الموت ينحني أمامه مغلوباً بين المغلوبين ، فيدوس عليه بحوافر جواده ويجوز من فوقه ... من معركة إلى معركة ، من نصر إلى نصر . وهو محمول في هذه العاصفة الهوجاء ذرّة من ذرّاتها الجامحة ، المجنونة ، الطائرة في الجو . حتى إذا عقبت سكينة النصر ضوضاء المعركة ، حطّ سامي كما تحطّ الذرّة ما تبالي في أي مكان . وحينئذ يهبط قلبه وينصرف إلى التفكير في الموت والحياة وفي ماضيه ومستقبله . ويفكّر بشفيق ، ويتذكّر وجهه في تلك الساعة وكلمته الأخيرة « العهد ! » ويدوّي في قلبه رجعُ الرصاصة التي أعطى بها الموت من أعطاه بالأمس الحياة ...

* * *

كان الأتراك قد انهزموا في جميع الميادين ، ووصل العرب إلى ضواحي « درعا » حيث تجمّعت قواهم من مختلف الأنحاء استعداداً للوثوب إلى دمشق . وكثر لديهم الأسرى فحاروا ما يفعلون بهم ، ففرّقوهم على القرى المجاورة يعاونون الأهالي في أعمالهم الزراعية ، فتحوّلت المنطقة إلى معتقل لا حدّ له . وخفض الانكسار أعناق الأتراك ، فذلّوا بعد جبروت وبانت عليهم المسكنة .

كان سامي مستلقياً تحت شجرة وارفة الظلّ ، يخشخش هواء الخريف بين أوراقها المصفرّة وينثرها حواليه ، فينظر إلى هذه الأوراق المتساقطة ، فيُخيّل إليه أنها صفحات من كتاب قرأه الزمان وملّه ، فهو يتناول بأصابعه القاسية الصفحة بعد الصفحة ويذريها في الفضاء ... وكامل ، بالقرب منه ، تتألّق لحيته الشقراء سروراً ، وتتراقص عيناه الصغيرتان على الأشياء ، يتحدّث على عادته عن الدولة العربية الجديدة حديثه المملوء بالحماسة والفخر . وسامي يصغي خلال الجلبة المترامية إليه من المعسكر القريب .

— إن عهد معاوية سيعود . أكاد لا أُصدّق ، يا سامي ، أننا بعد أسبوع نكون في عاصمة بني أميّة . بعد أسبوع يتحقّق حلمنا الأكبر ! ليت شفيق عاش ليتمتّع برؤية دمشق الظافرة ! أتذكر ؟ أتذكر كلماته « عندما ندخل دمشق سأطلب إلى القائد أن يعيّنني حامل العلَم . »

وحملت النسائم رائحة زكية من بعيد ، ففتح لها سامي صدره ملء الرئتين ، وأغمض أجفانه سائحاً في جو من الأماني المبهمات ، أحلى ما فيه وفيها أنه لا يدرك له حدوداً ولا يعرف لها اسماً .

وسكت كامل قليلاً ثم قال :

— سنذهب معاً إلى ساقية المسك . لي فيها مثل ما لك . لقد وعدت طام بمهرة وعقال مقصّب وعباءة من حرير ، وسأفي بوعدي . وأنت لك زينه .

فمال سامي إلى محدّثه ، وأحسّ شعاعاً يضيء في قلبه لاسم مَن يحبّ . وطفا هذا الشعاع ابتسامة على شفتيه فعاد ينظر إلى السماء . وأخذت صفحات حياته تكرّ أمامه ... زاوية صغيرة ، هنا بين ضلوعه ، قد تستوعب الصحراء والدنيا وأمجادها ، وتبقى مع ذلك مستوحشة ... وشيء صغير قد يحطّم كل ظلم على وجه الأرض ، ويغيّب الظالمين في أعماقها ، ويظلّ مع ذلك متململاً غير راضٍ ... ساقية المسك ، وبيت كسّار ، ومغارة الحورية ، ووجه زينه ... « الثورة ! الثورة ! لو تعلمين يا زينه ما أجملها ! ما أعظمها ! » لو تعلم ما أتفهها الآن ! ما أتفهها ! كالماء بلا خبز . كالخبز بلا ماء .

وكامل يتنقّل في ثرثرته . وإذا نسمة أُخرى تهبّ على الشجرة فترتعش ورقاتها كأنها تحاول التمسّك بأُمها مغالبة القدر . وتنفصل ورقة كبيرة عن أخواتها وتتمايل بين الأغصان متهاوية فوق سامي ببطء ... تروح وتجيء ، وتتقلّب وتترجّح ، ثم تحطّ فجأة على جبينه . فمدّ إليها كفّه وضغطها ، فسمع لها تكسّراً موجعاً . واستمر يفركها حتى طحنها ففتح أصابعه وأذراها في الفضاء ... ثم تلمّس ورقة أُخرى بالقرب منه وهمّ بأن يتلهّى بها كما تلهّى بالسابقة ، فإذا هدير في الجو فرفع عينيه . وهتف كامل :

— طيّارة ! طيّارة !

وتهيأ للقيام ، فأمسك به سامي وأشار عليه بالاختباء وقد علم أنها من طيّارات الأعداء . ثم أطلّت طيّارة ثانية ، فثالثة ، وجعلت تحوم فتتجمّع وتتفرّق وتدنو من الأرض وتلقي قنابلها على العرب . ولكنهم كانوا قد احتاطوا لمثل هذه الغارة فلم تصب القنابل منهم أحداً . وعادت الطيّارات أدراجها صوب درعا . فمشى سامي إلى المعسكر ولحق به كامل . وما كادا يصلان حتى رأيا عشرات من القرويين يُقبلون نحو المعسكر وهم يملأون الفضاء صراخاً طالبين النجدة . قالوا إن الأسرى الذين فرّقهم العرب في القرى قد لمّوا شعثهم وانتقضوا على الأهالي يحرقون البيوت ويتلفون الغلال وينكّلون بمن تقع عليه أيديهم ، لا يرحمون عاجزاً ولا يُشفقون على طفل .

١٥

غلت الدماء في الضباط والجنود وأصدر القوّاد أمرهم لأول مرة بإفناء الأسرى . فاندفع الفرسان من كل صوب ، واتّجه سامي إلى « المزيريب » ، وقد خلّف فيها العرب نحواً من مئتي أسير ، في شرذمة بطّاشة من رجاله . وكان دخان الحرائق يتصاعد من القرية وينعقد في الجو ، وطلقات متقطعة بعيدة تشوّش سكينة ذلك العصر ، ومواكب الهاربين تترى بين عجوز مهرولة ، وأم تركض برضيعها ، وابن ينجو بأبيه الشيخ ، يحتمون بالأدغال ، وينفرون إلى الحقول . وقد سرى الخوف إلى المواشي فانطلقت الأبقار والخرفان تقفز تائهة في العراء ، تمزّق أجسادها بين الصخور ، أو تدقّ أعناقها في المهاوي .

على أن الهاربين تشجّعوا لمّا رأوا العرب آتين إليهم ، فرجع أكثرهم إلى القرية يدلّونهم على جثث الأبرياء وقد انطرحت مغروسة بالحراب ، أو مشوّهة دقّاً بالحجارة . وحانت من سامي التفاتة إلى شجرة فرأى امرأة قد أوثقوا يديها ورجليها وعلّقوها من شعرها ، وأخرى على الحضيض قطعوا ثدييها ، وثالثة عارية فصلوا رأسها عن جسدها وركّزوا في بطنها عوداً . فصعد قلبه إلى

حلقه وهمز مطيّته، وانطلق ورجاله ينهبون الأرض ويُقلقون السماء بإرعادهم. وكان شبّان القرية ما يزالون يقاومون مستميتين في الدفاع عن بيوتهم وأرزاقهم، فما وقع بصرهم عليهم حتى هبّوا إلى لقائهم. وركض صوب سامي شبحان صغيران، أُخت تجرّ أخاً لها دون السادسة يتفجّر الدم من صدره وهو يصرخ: «أُمي! أُمي!» فثنى جواده إليهما، فذُعر الصبي وسقط على الأرض بلا حراك. فقال سامي للفتاة مشيراً إليه:

— مَن فعل به هذا؟

— ضابط تركي!

وانحنت على أخيها تولول. وتناثر الجبناء يتلمّسون مفرّاً، ووقف الآخرون مبغوتين رافعين أيديهم في الهواء. فاستعرضهم يسألها عن الجاني، وهي تصعّد فيهم بصرها وتنتقل من الواحد إلى الآخر. ثم هتفت:

— هذا هو!

فمدّ التركي بفكّه الأسفل إليها، فإلى سامي...

— أنت هنا أيضاً؟!

وجمد سامي هنيهة يرمي رئيس التحقيق السابق في الديوان العرفي بنظرة يتحدّر معها من بين أجفانه احتقار دونه الدوس بالأقدام. ثم وثب إلى الأرض ومشى إلى رشدي بك، فلمعت عينا الأسير وتحرّكت يده تتلمّس شيئاً إلى جنبه. ولكن سامي كان السابق فانتضى خنجره وأهوى عليه فأغمده في قلبه حتى النصل، فتهادى في هرير عظيم وخبط على الأرض. ثم تناول سامي مسدسه فسوّى الأتراك صفّاً واحداً وأشار على رجاله فصوّبوا البنادق وحصدوهم جميعاً. وأبى إلا أن يرجع إلى رشدي بك فأفرغ رصاصات مسدسه الست في رأسه، ورفع قدمه وألقمها ذلك الفكّ.

وكان جنوده قد انبثّوا في الأنحاء يتصيّدون الفارّين، فعلا فرسه وانطلق في أثرهم، حتى اقترب من المعسكر فإذا جلبة قوية، فجمع شرذمته ودار بهم دورة، فإذا المعركة حامية بين العرب وأكثر من ستة آلاف من الأعداء يتقدّمون من الجنوب صفّاً عريضاً يغطي السهل: الفرسان في الطليعة وعن

الجانبين ، والمدفعية في الوسط ، وفي المؤخرة خط طويل من المشاة . وكان المساء قد بدأ يرشّ غبشته على الآكام والوهاد . فأدرك العرب أن هؤلاء الزاحفين من بقايا الجيوش المنهزمة من فلسطين ، فسلّطوا عليهم المدافع . ولكن أهالي القرى الذين ذاقوا من الأتراك الأمرّين لم يستطيعوا صبراً ، وهاج بهم حبّ الانتقام فاندفعوا صوب الأعداء غير منتظرين أمراً حربياً . فلمّا رأى القوّاد ذلك لم يجدوا بداً من الهجوم بالسلاح الأبيض ، ونظر سامي حواليه وصاح بالفرسان :

– إلى الأمام !

ولكز جواده ، فعلت حمحمة الخيل وأهازيج العرب وهو يردّد :

– إلى الأمام !

والسيف في كفّه يلمع على الشفق ، وهو ماضٍ يستقبل الرصاص بصدره :

– إلى الأمام ! إلى الأمام !

والأبطال يقعون عن جانبيه من هنا ومن هنا وهو يفتح عينيه متحدّياً الموت :

– إلى الأمام ! إلى الأمام !

. . . .

الحصاد

مع سفر الطيور الغريبة أسراباً سوداء في السماء ، ووثب أظلالها المضطربة فوق الجبال والأودية ، كانت الجيوش التركية تجلي عن البلاد وتغادرها إلى غير رجعة . وقد دبّ الذعر في القوّاد والجنود فتفكّكت الروابط واختلطت الأوامر بالنواهي ، فاختلّ النظام وسادت الفوضى ، وعلت الضوضاء في الثكنات . يترك العسكر وظائفهم وأسلحتهم وكلّ ما يملكون وينجون هاربين من كل صوب ، يتكدّسون في القُطُر المولولة المسرعة نحو الشمال ، ويخرجون شراذم متجنّبين المدن والقرى ، ويتيهون على وجوههم شاردين في البراري . والناس يطلّون على السطوح ويُشرفون على رؤوس الجبال مشيّعين مع هذه الفلول المتوارية أشباح الظلم والجهل التي ساورتهم قروناً ، يبكون من الفرح ويتعانقون ، ويتنادون بالبشرى ويهزجون . غابت الوجوه الغليظة من الدواوين ، واستراحت الطرق من الجزمات الثقيلة ، وأمنت العذارى في غدواتهن من البيوت وروحاتهن ، وولّى الجوع بمواكبه الكالحة الصفراء ، واشتاقت الأرض إلى سنابل القمح والأزهار بعد الجيف وركائز المشانق ...

ونسّم الهواء بالحرية .

* * *

وكانت دمشق أكثر البلدان ابتهاجاً بالنصر . قد وافاها يومها في ميعاده ، وانحنى يمسح بأنامله السحرية أجفانها المثقلة بمئات السنين ، فاستفاقت تحطّم قيودها وسلاسلها ، وتنفض غبار الأجيال المتراكم عليها ، وانبعثت تحت شمس الشرق تشمخ بقاسيونها إلى السماء ، وتزيّن الأرض بغوطتها الخضراء ، وتطيّب الأرجاء .

كانت جموع الناس تموج عرض الشوارع والساحات ، وتكتظّ على السطوح والنوافذ ، شيباً وشباناً ونساء وأطفالاً ، في ثيابهم المزركشة الفضفاضة وأكمامهم الملوّحة في الفضاء . يهتفون ملء الصدور ، أفواهاً كالأبواق ، وجباهاً عالية ، وعيوناً متألّقة . يعتلي الشبّان مناكب الحشد ، راقصين بالسيوف والخناجر ، متنقّلين بين ألوف الرؤوس ، فتتعانق لمعات الأسلحة وشراراتها فوق دَرْز الطرابيش الحمراء ، والعمائم الخضراء والبيضاء والصفراء ، والشعور المبعثرة مع الهواء . وتتجاوب الأناشيد وتختلط الأنفاس في زحمة الفرحة الكبرى ، ويصعد كل ذلك في الجو فيملأه ويرجّه ، حتى ليُخيّل إلى الرائي أن هذه الكتلة المتلاصقة ، المتهادية ، المترامية إلى كل منفذ ، الزاحفة إلى غير حدّ ، بحر هائج قد ضاع فيه الأفراد كما تضيع القطرات ، فهو مخلوق من الأساطير له جسم واحد جبّار وروح واحد هدّار . هو الشعب العظيم قد أقبل من كل صوب وفجّ إلى عرس الحرية وعيد الاستقلال .

كانت زينه في تلك الأثناء واقفة على الشرفة من بيت الورّاق تصغي إلى كامل أفندي يقصّ عليها وعلى طام أخبار الثورة وأحاديث الانتصارات التي أحرزها سامي ، من الصحراء التي ليس لها اسم ... إلى وادي أبي اللسان حيث كان اللقاء به وبشفيق ... إلى العقبة حيث كانت قيلولة الأحلام ... إلى الطفيلة الرهيبة المدمّاة بظفر القدر القاسي ... إلى المزيريب حيث فتكة الانتقام الكبير ... فإلى ...

— إن صوته ، يا زينه ، ما يزال يرنّ في أُذنيّ . وما أزال أرى وجهه في تلك الساعة ، وتلك الكفّ تمتدّ إلى صدره وتُخرج الوديعة مضرّجة بدمائه لترتفع وتسلّمها إلي ... وشفتيه يتمتم بهما اسمكِ ويحاول أن يزوّدني إليكِ بالكلمة الأخيرة ...

وزينه تنصت ولا تقول شيئاً ... وقد علت في الشارع جلبة ، وتراجع الناس إلى الأرصفة متدافعين ، وأقبل من بعيد وقع حوافر وأهازيج . ثم انعقدت سحابة من الغبار وجعلت تدنو وتتعاظم ، والوقع يتدارك والأهازيج تملأ الفضاء . ولاحت

الكوفيّات الحريريّة والعقالات المقصّبة والعباءات المنتفخة ، وكرّ الفرسان على خيولهم ، فجُنّ الناس سروراً وزهواً يلوّحون لهم بالأيدي ، ويرشقونهم بألبسة الرؤوس ، ويترامون على أعناق المطايا ، وقد أطلّت الصبايا من أخدارهن ومزّقت النساء براقعهنّ ، وانعطفن على النوافذ والشرفات ينثرن على الجيش الأزهار والعطور ، ويمددن أذرعتهنّ مع الزغاريد إلى غير ما حدود . وزينه ، وسط هذا المشهد الرائع ، جامدة تنظر عيناها وكأنهما لا تريان ، وتُصغي أُذناها وكأنهما لا تسمعان . ثم خُيّل إليها أن موجة عظيمة قد جاءت من أقصى الشارع تتقلّب فوق هذا الحشد الزاخر ، وتقترب متعالية في مشيها حتى تطفو على الشرفة حيث هي واقفة ، تداعب قدميها ، وتتسلّل بين رجليها وتغمرها حتى عنقها ، فتحاول التنفّس فلا تستطيعه إلا بجهد ... ثم تحسّ كأن قلبها يصعد ، يصعد ، يصعد ، وإذا هو قد هاج بين أضلاعها بحراً تتدفّق أمواجه وتتلاطم بأمواج البحر الآخر ، فتغمض أجفانها وتستسلم إلى هذا المرج متهادية ، تجيء بها موجة وموجة تروح ، ساعة طويلة من الزمان الذي لا يعرف الساعات .

ثم كأنّ الغمر هبط فجأة وهبط قلبها معه ، فاستفاقت على أخيها يعالج كفّها المطبقة على ذخيرة عود الصليب ويسأل :

ـ أُختي ، أُختي ! ما هذه ؟

فخفضت رأسها إلى كفّها وظلّت تنظر إلى ما فيها . ثم اغرورقت عيناها فلم تعد ترى ... ومالت إلى أخيها وقالت وقد انفرجت أصابعها في الهواء :

ـ لا شيء ! ...

تمت

الألفاظ والعبارات التركية

فيما يلي تفسير الألفاظ والعبارات التركية التي وردت في هذا الكتاب :

- **همشري** : صاحب ، رفيق . وتُستعمل للدلالة على رجل بسيط أو مهمل .
- **ريال مجيدي** : عملة عثمانية من فضّة . الواحدة تساوي سبعة بشالك .
- **بشلك** : عملة عثمانية من نحاس . الواحدة تساوي ثلاثة قروش .
- **متليك** : عملة عثمانية من نيكل . الواحدة تساوي ربع قرش .
- **حاظدور** : تأهّب . كن مستعداً .
- **مارتينة** : بندقية .
- **أطور** : أقعد .
- **بادي شاهم جوق يشاه** : أطال الله عمر مولانا السلطان !
- **القيروانه** : طعام السجناء . وهو عبارة عادة عن حساء مع بعض الحبوب .
- **يساق** : ممنوع .
- **تشابوق** : عَجِّل .
- **سكتير** : شتيمة قبيحة يُراد بها التحقير والإسكات .

تنبيه

إن أشخاص هذه الرواية وحوادثها هي من خلق المؤلّف ، ولا تمتّ بصلة قريبة أو بعيدة إلى أشخاص أو حوادث معيّنة في مكان ما .

على أن وقائع الثورة العربية وأخبار الديوان العرفي في عاليه هي وقائع وأخبار تاريخية في جملتها ، وهي مستقاة من عدّة مصادر ، بين مذكّرات وكتب تاريخ ونبذات في الصحف .

أما الأتراك الذين يعنيهم المؤلّف فهم أتراك السلطنة العثمانية المتفسّخة التي أقام على أنقاضها الغازي مصطفى كمال دولة حديثة جديرة بكل إعجاب .

كتب للمؤلف

صدر :

الصبي الأعرج — قصص
قميص الصوف — قصص
العذارى — قصص
الرغيف — رواية
طواحين بيروت — رواية

اختارتها منظمة الاونسكو العالمية في سلسلة «آثار الكتاب الاكثر تمثيلا لعصرهم» وشرعت بترجمتها الى اللغات الاجنبية ، وقد صدرت الحلقة الاولى ، الترجمة الانكليزية ، عن دار «هاينمان» في لندن سنة ١٩٧٦

السائح والترجمان — حوارية

نالت جائزة «اصدقاء الكتاب» للمسرحية سنة ١٩٦٢ وقد ترجمت الى الفرنسية وصدرت عن «دار اوريان» في باريس ١٩٦٦

غبار الأيام — خواطر
فرسان الكلام — نظرات في الأدب والأدباء
قوافل الزمان — ديوان شعر

يصدر قريباً :

المشنقة والعصافير — قصص
المنارة والزورق — ديوان شعر

